وزارة الثقافة
المختار من التراث العربي
٥٠

من كتاب

مروج الذهب ومعادن الجوهر

تصنيف
علي بن الحسين المسعودي
ت ٣٤٦ هـ

السِّفر الثالث

ر النصوص وقدّم لها وعلّق عليها

قاسم وهب

الإشراف الفني : زهير الحمو



السفر الثالث


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وزارة الثقافة
المختار من التراث العربي
(٥٠)

من كتاب

مروج الذهب ومعادن الجوهر

تصنيف

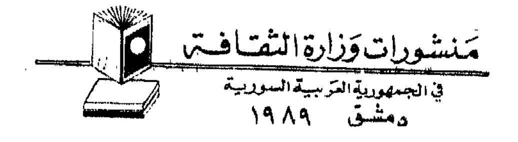
علي بن الحسين المسعودي

ت ٣٤٦هـ

السفر الثالث

اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها

قاسم وهب


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٨٩

من كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر / تصنيف علي بن الحسين المسعودي ؛ اختيار وتعليق قاسم وهب .ـ ط ١ .ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٩ .ـ ج٣ (٤٠٠ ص) ؛ ٢٠ سم .ـ (المختار من التراث العربي ؛ ٥٠) .

١ ـ ٩٥٦ مسع م   ٢ ـ ٩٢٠ مسع م ٣ ـ العنوان
٤ ـ المسعودي   ٥ ـ وهب .

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع ـ ١٩٨٩/٣/٢٠١

ذكر خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد السفاح

موجز : وبُويعَ أبو العباسِ السَّفّاح — وهو عبدُ الله ابنُ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب — ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلةً خلت من شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وقيل : إنه بويع يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلةً خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وقيل في النصف من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وأُمُّه رَيْطَةُ بنتُ عبيدِ الله بن عَبْد المدان الحارثية ، وركب إلى المسجد الجامع في يوم الجمعة فخطبَ على المنبر قائماً ، وكانت بنو أمية تَخطُبُ قُعوداً ، فضجَّ الناسُ وقالوا : أحييتَ السُّنَّةَ يابنَ عَمِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت خلافتهُ أربعَ سنين وتسعةَ أشهر وعشرين يوماً ، ومات بالأَنْبار في مدينتِهِ التي بناها ، وذلك في يومِ الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنةَ ستٍّ وثلاثين ومئة ، وهو ابن ثلاثٍ

وثلاثين سنة ، وقيل : ابنُ تسع وعشرين سنة ، وكانتْ أمّهُ تحتَ عبد الملك بن مروان ، فكان له منها الحجّاجُ ابنُ عبد الملك ، فلما توفي عبد الملك تزوجها محمدُ بنُ علي بن عبد الله بن العباس ، فَوَلَدت منه عبدَ الله بنَ محمدٍ السّفّاحَ ، وعُبَيْدَ الله ، وداود ، وميمونة .

ذكر جمل من أخباره وسيره ، ولمع مما كان في أيامه

وَصيّةُ إبراهيم الإمام له : ولما حُبِسَ إبراهيمُ الإمامُ بحرّان ، وعلم أنْ لا نجاةَ له من مروان ، أثبتَ وصيتَه وجعلها إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد ، وأوصاهُ بالقيام بالدّوْلة والجِدّ والحركة ، وأن لايَكونَ له بَعْدَه بالحُمَيمَةِ لُبْثٌ ولا عَرْجة حتى يتوجّه إلى الكوفة فإنّ هذا الأمرَ صائرٌ إليه لامَحَالةَ ، وأنه بذلك أتَتْهم الرّوايةُ ، وأظْهَرَه على أمْرِ الدّعاةِ بخراسان والنُّقَباء ، ورَسَم له بذلك رسماً أوصاه فيه أن يَعْملَ عليه ولايتعدّاه ، ودفع الوصيةَ بجميع ذلك إلى سابق الخُوارزمي مولاه ، وأمره إنْ حدَثَ به حدَثٌ من مروان في ليل أو نهار أن يجدَّ السيرَ إلى الحُمَيْمة

حتى يَدفَعَ وصيتَهُ إلى أخيه أبي العباس ، فلما قضى إبراهيمُ نَحْبَهُ أسرعَ سابقٌ في السير حتى أتى الحميمةَ فدفع الوصيّةَ إلى أبي العباس ونعاه إليه ، فأمره أبوالعباس بسترِ الوصية وأن ينعاه ، ثم أظهرَ أبوالعباس أهلَ بيتهِ على أمْره ، ودعا إلى مؤازرتهِ ومكاشفتهِ أخاه أبا جعفر عبدَ الله بنَ محمد ، وعيسى بنَ موسى بن محمد بن أخيه ، وعبدَ الله بنَ علي عمّه ، وتوجه أبوالعباس إلى الكوفة مُسْرِعاً ، وهؤلاء معه في غيرهم ممن خفّ من أهْلِ بيته ، فلقيتهم أعرابيةٌ على بعض مياه العرب في طريقهم إلى الكوفة ، وقد تقدّم أبو العباس وأخوه أبوجعفر وعمه عبدُ الله بنُ علي فيمن كان معهم إلى الماء ، فقالت الأعرابية: تالله مارأيتُ وجوهاً مثل هذه مابين خليفةٍ وخليفةٍ وخارجي ، فقال لها أبوجعفر المنصور : كيف قلت ياأمَةَ اللهِ ؟ قالت: والله لَيَلِيَنَّها هذا ، وأشارت إلى السفّاحِ ، ولَتَخْلُفَنَّه أنتَ ، ولَيَخْرُجَنَّ عليك هذا ، وأشارت إلى عبدِ الله بن علي ، فلما انتهَوْا إلى دُوْمَةِ الجَنْدلِ لقيهم داودُ بن علي وموسى بن داود ، وهما منصرفان من العراق إلى الحُمَيْمة من أرضِ الشراة ،

فسأله داود عن مسيره ، فأخبره بسببه ، وأعلمه بحركة أهلِ خراسانَ لهم مع أبي مسلم ، وأنه يريد الوثوبَ بالكوفة ، فقال له داودُ : يا أبا العباس ، تثبُ بالكوفة ومروانُ شيخُ بني أمية وزعيمهُم في أهل الشام والجزيرة مُطِلٌّ على أهلِ العراق ، وابن هُبيرة شيخُ العرب في جِلَّة العرب بالعراق ؟ فقال أبوالعباس : ياعمَّاه ، من أحب الحياةَ ذلّ ، وتمثل بقول الأعشى (١)

فما ميتَةٌ إن متُّها غيرَ عـــاجزٍ
بعارٍ ، إذا ماغالتِ النفسَ غُولُها

فالتفت داود إلى ابنه موسى ، فقال : أي بُنَيّ ، صدقَ ابنُ عمّك ، ارجعْ بنا معهُ نحيا أعزّاءَ أو نموت كراماً ، فعطفا ركابَهما معه ، وسار أبوالعباس حتى دخلَ الكوفةَ .

---

(١) الأعشى : ميمون بن قيس بن جندل المعروف بأعشى قيس : من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات غزير الشعر ، كان يلقب « صناجة العرب » أدرك الإسلام ولم يسلم ، توفي نحو ٧ هـ .

وقد كان أبوسَلمَة حَفْصُ بنُ سليمان (١) — حين بلغَهُ مَقْتَلُ إبراهيمَ الإمام — أضْمَرَ الرجوعَ عمَّا كان عليه من الدعوة العباسية إلى آل أبي طالب .

مقدم السفاح الكوفة : وقَدِمَ أبو العباس الكوفةَ فيمن ذكرنا من أهل بيته سِرّاً ، والمسوِّدة مع أبي سلمة بالكوفة ، فأنزلهم جميعاً دارَ الوليدِ بنِ سعد في بني أوْدٍ ،حيٍّ من اليمن ، وقد ذكرنا مناقبَ أَوْدٍ وفضائلَها فيما سلف من هذا الكتاب في أخبار الحجاج ، وبراءتَهم من عليّ والطاهرين من ذُريته ، ولم أرَ إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة — فيما دُرْتُ من الأرض وتَغرَّبت من الممالك رجلاً من أَوْدٍ إلا وجدته — إذا استبطنت ماعنده — ناصبيّاً متولِّياً لآل مروان وحزبهم(٢).

وأخفى أبوسَلَمةَ أمرَ أبي العباس ومَنْ مَعَه ، وَوَكَّل بهم وكيلاً ، وكان قدومُ أبي العباس الكوفة

---

(١) أبوسلمة الخلال : هو حفص بن سليمان : داعية وقائد عباسي عمل وزيراً للسفاح . اغتيل بسبب ميله إلى العلويين وذلك سنة ١٣٢ هـ .

(٢) الناصبي : المتدين ببغضة علي بن أبي طالب . ونصب له : أي عاداه .

في صفر من سنة اثنتين و ثلاثين ومائة ، وفيها جرى البريد بالكتب لـوَلَـدِ العباس ، وقد كان أبو سلمة لما قُتِلَ إبراهيم الإمام خاف انتقاضَ الأمر وفسادَه عليه ، فبعث بمحمد بن عبد الرحمن بن أسلم ، وكان أسلمُ مولىً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب معه كتابين على نسخة واحدة إلى أبي عبد الله جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (١) والى أبي محمد عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي ابن أبي طالب(٢) رضي الله عنهم أجمعين ! يدعو كلَّ واحد منهما إلى الشخوص إليه ليصرفَ الدعوةَ إليه ، ويَجْتَهِدَ في بَيْعَةِ أَهْلِ خُراسان له ، وقال للرسول :

---

(١) هو جعفر الصادق : سادس الأئمة الا ثني عشر عند الإمامية ، من أجلاء التابعين ، وله منزلة رفيعة في العلم . أخذ عنه الإمام أبوحنيفة والإمام مالك . مولده ووفاته بالمدينة . (٨٠ — ١٤٨ هـ) .

(٢) أبومحمد عبدالله بن الحسن بن الحسن — وليس الحسين كما ورد — تابعي من أهل المدينة . كان ذا عارضة وهيبة وشرف . وكانت له منزلة رفيعة عند عمر بن عبد العزيز . قدم على السفاح وهو بالأنبار فأكرمه . مات سجيناً (٧٠ — ١٤٥ هـ) .

العَجَلَ العَجَلَ ، فلا تَكونَنَّ كوافدِ عاد ، فَقَدِمَ محمدُ بنُ عبد الرحمن المدينةَ على أبي عبد الله جعفر بن محمد فلقيَهُ ليلاً ، فلما وصل إليه أعلمه أنه رسولُ أبي سَلَمةَ ، ودفع إليه كتابَهُ ، فقال له أبو عبد الله : وما أنا وأبو سَلَمَة ؟ ؟ وأبو سلمة شيعةٌ لغيري ، قال : إني رسولٌ ، فتقرأ كتابَه وتُجيبهُ بما رأيت ، فدعا أبو عبدالله بسراج ثم أخذَ كتابَ أبي سَلَمة فوضعه على السراج حتى احترق ، وقال للرسول : عرِّف صاحبك بما رأيت ، ثم أنشأ يقول متمثلاً بقول الكُميت بن زيد (١) :

أيا مُوقِداً ناراً لغيرِك ضَوْؤُهـا
ويا حاطبـاً في غيرِ حَبْلِكَ تَحْطِبُ

كيف آلت الإِمامةُ للسَّفّاح : فخرج الرسول من عنده وأتى عبدَ الله بنَ الحسن فدفع إليه الكتابَ فقبله وقرأه وابتهج به ، فلما كان من غد ذلك اليوم الذي وصل

---

(١) هو الكميت الأسدي : شاعر فارس من أهل الكوفة ، اشتهر في العصر الأموي . كان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها . عرف بشاعر الهاشميين . أشهر شعره « ديوان الهاشميات » . (٦٠ - ١٢٦ هـ).

إليه فيه الكتاب ركب عبدُ الله حماراً حتى أتى منزل أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق، فلما رآه أبو عبد الله أكبَرَ مجيئَه، وكان أبو عبد الله أسَنَّ من عبد الله، فقال له: ياأبا محمد أَمْرٌ ما أتى بك، قال: نعم وهو أَجَلُّ من أن يوصَفَ، فقال: وماهو ياأبا محمد؟ قال: هذا كتابُ أبي سلمة يدعوني إلى ما أَقْبَلَهُ، وقد قَدِمتْ عليه شيعتُنا من أهْلِ خراسان، فقال له أبوعبد الله: ياأبا محمد، ومتى كان أهْلُ خراسان شيعةً لك؟ أنتَ بعثتَ أبامسلم إلى خراسان؟ وأنت أمرتَهُ بِلُبْسِ السَّواد؟ وهؤلاء الذين قَدِموا العراقَ أنت كنتَ سببَ قدومهم أو وَجَّهت فيهم؟ وهل تعرفُ منهم أحداً؟ فنازعَهُ عبدُ الله بن الحسن الكلامَ، إلى أن قال: إنما يُريدُ القومُ ابني محمداً لأنه مهديُّ هذه الأمة، فقال أبوعبدالله جعفر: والله ماهو مهديُّ هذه الأمة، ولئن شَهَرَ سيفَه لَيُقْتَلَنَّ، فنازعَهُ عبد الله القول، حتى قال له: والله مايمنعُكَ من ذلك إلا الحسد، فقال أبوعبدالله: والله ماهذا إلا نُصْحٌ منّي لك، ولقد كتب إليَّ أبوسلمة بمثلِ ماكتب به إليك، فلم يَجِدْ رسولُه عندي ماوَجَدَ عندك،

ولقد أحرقت كتابَهُ من قبل أن أقرأه ، فانصرف عبدُ الله من عند جعفر مُغْضَباً ، ولم ينصرفْ رسولُ أبي سلمة إليه إلى أن بويع السَّفَّاحُ بالخلافة . وذلك أن أبا حُمَيد الطُّوسي (١) دخل ذات يوم من العسكر إلى الكوفة فلقيَ سابقاً الخوارزمي في سوق الكُنَاسة فقال له : سابق ؟ قال : سابق ، فسأله عن إبراهيم الإمام ، فقال : قتَلَهُ مروانُ في الحبس ، وكان مروان يومئذ بحرّان ، فقال أبو حُمَيد : فإلى مَنِ الوصيةُ ؟ قال : إلى أخيه أبي العباس ، قال : وأين هو ؟ قال : معك بالكوفة هوَ وأخوه وجماعة من عُمُومته وأهل بيته ، قال : مُنْذُ متى هم هنا ؟ قال : من شهرين ، قال : فتمضي بنا إليهم ، قال : غداً بيني وبينك الموعد في هذا الموضع . وأراد سابق أن يستأذن أبا العباس في ذلك ، فانصرف إلى أبي العباس فأخبرَه ، فلامه إذ لم يأتِ به معه إليهم ، ومضى أبو حُمَيد فأخبرَ جماعة من قوّاد خراسان في عساكر أبي سَلَمة بذلك ، منهم

(١) أبو حميد : هو قحطبة بن شبيب وقد سبقت ترجمته .

أبو الجهم (١) وموسى بن كعب (٢) ، وكان زعيمتهم ، وغدا سابقٌ إلى الموضع ، فلقيَ أبا حميد ، فمضيا حتى دخلا على أبي العباس ومن معه فقال : أيُّكم الإمام ؟ فأشار داودُ بنُ علي إلى أبي العباس ، وقال : هذا خليفتكم ، فأكبَّ على أطرافه يُقبِّلُها ، وسلَّم عليه بالخلافة ، وأبوسلمة لا يعلمُ بذلك ، وأتاهُ وجوهُ القوّاد فبايعوه ، وعلمَ أبوسلمةَ بذلك فبايعه ، ودخلوا إلى الكوفة في أحسنِ زيٍ ، وضربوا له مصافّاً (٣) ، وقُدِّمت الخيولُ ، فركبَ أبو العباس ومن معه حتى أتوا قصرَ الإمارة ، وذلك في يوم الجمعة لاثنتي عشرةَ ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب تنازع الناس في أي شهرٍ بُويع له من هذه السنة .

---

(١) أبو الجهم : لم أعرفه .

(٢) موسى بن كعب التميمي : أبو عيينة : والٍ من كبار القواد ، أحد نقباء الدعوة العباسية ، تولى شرطة المنصور ثم ولاه الهند ومصر . توفي ببغداد سنة ١٤١ هـ .

(٣) المصاف : ج مصف : الموقف في الحرب . وهي هنا بمعنى : صفوا الجنود أمامه صفوفاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم دخل المسجدَ الجامعَ من دار الإمارة فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر تعظيمَ الربِّ ومِنَّتَه ، وفضلَ النبي صلى الله عليه وسلم ، وقادَ الولايةَ والوراثةَ حتى انتهت إليه ، ووَعَدَ الناسَ خيراً ، ثم سكت ، فتكلم عَمُّه داودُ ابنُ علي وهو على المنبر دونَ أبي العباس ، فقال : إنه والله ما كان بينكم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفةٌ إلا عليٌّ عليه السلام ، وأميرُ المؤمنين هذا الذي خلفي ، ثم نزلا .

ثم خرج أبوالعباس إلى عسكر أبي سلمة فنَزَلَ في حُجْرَتِه ، واستخلفَ على الكوفةِ وأرضِها عَمَّه داودَ بنَ علي ، وبعث بعمِّه عبدِ الله بن علي إلى أبي عون عبد الملك بن يزيد ، فسارا معاً إلى مروانَ ، فكان من أمْرِهم ماقدَّمنا ذِكْرَه من التقائهم على الزّاب ، وهزيمة مروان بن محمد .

عامر بن إسماعيل قاتل مروان : واتصل بأبي العباس السفاح ما كان من عامرِ بنِ إسماعيل وقَتْلِه لمروانَ ببُوْصير وقيل : إن ابنَ عمٍ لعامر يقال له نافِع بنُ عبد الملك كان قَتَلَهُ في تلك الليلة في المعركة

وهو لايعرفه ، وإن عامراً لما احتز رأس مروان واحتوى على عسكره دخل إلى الكنيسة التي كان فيها مروان ، فتقعد على فرشه وأكل من طعامه ، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى ، وتعرف بأم مروان ، وكانت أسنهن ، فقالت : ياعامر إن دهراً أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره ، وحكمت في مملكته ؛ لقادر أن يغير مابك من نعمة .

بين السفاح وعامر بن إسماعيل : وبلغ السفاح فعله وكلامها ، فاغتاظ من ذلك ، وكتب إليه : « ويلك ! أما كان لك في أدب الله عز وجل مايزجرك عن أن تأكل من طعام مروان ، وتقعد على مهاده ، وتتمكن من وساده ؟ أما والله لولا أن أمير المؤمنين تأول مافعلت على غير اعتقاد منك للملك ولاشهوة لمسك من غضبه وأليم أدبه مايكون لك زاجراً ، ولغيرك واعظاً ، فإذا أتاك كتاب أمير المؤمنين فتقرب إلى الله تعالى بصدقة تطفىء بها غضبه ، وصلاة تظهر بها الاستكانة ، وصم ثلاثة أيام ، ومر جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك » .

رأسُ مروان بين يدي السفاح : ولما أُتيَ أبو العباس برأس مروان ووُضعَ بين يديه سجدَ فأطال السجودَ ثم رَفعَ رأسَه فقال : الحمدُ لله الذي لم يُبقِ ثأري قِبَلَكَ وقِبَلَ رَهْطِك ، والحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك ، ثم قال : ماأبالي متى طرقني الموت . قد قَتَلْتُ بالحسين وبني أبيه من بني أُمَيَّةَ مائتين ، وأحرقتُ شِلْوَ (١) هشامٍ بابن عمي زيد بن علي ، وقتلتُ مروانَ بأخي إبراهيم ، وتمثل :

لو يشربون دمي لم يُرْوَ شاربُهُمْ
ولا دماؤهمْ للغيظ تُرويني

ثم حَوَّل وجهه إلى القبلة فأطال السجودَ ، ثم جلس وقد أسفر وَجْهُهُ ، وتمثل بقول العباس بن عبد المطلب (٢) من أبيات له :

---

(١) الشلو : ج أشلاء : وهي أعضاؤه بعد البلى والتفرق .

(٢) العباس بن عبد المطلب : هو أبوالفضل عم النبي (ص) من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام وإليه ينسب العباسيون كان سخياً جواداً . توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ .

أبى قومُنا أنْ يُنصفونا ، فأنصفَتْ
قواطعُ في أيمانِنا تقطرُ الدَّما

تُورِّثْنَ من أشياخِ صدقٍ تقرَّبوا
بهنّ إلى يومِ الوغى فتقدَّما

إذا خالطَتْ هامَ الرجالِ تركْنَها
كبَيْضِ نعامٍ في الوغى مُتَحَطِّما

وقالت الشعراء في أمر مروان فأكثرت .

زواجُ السَّفَّاح بأمِ سَلَمَة بنتِ يعقوب : وذكر مُصْعَبُ الزبيري (١) عن أبيه قال : كانت أمُّ سَلَمَة بنتُ يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي عندَ عبدِ العزيز بنِ الوليد بن عبد الملك ، فهلك عنها ، ثم كانت عند هشام فهلك عنها ، فبينا هي

(١) مصعب الزبيري : هو مصعب بن عبدالله بن مصعب بن ثابت ابن عبد الله بن الزبير : أبوعبدالله ، علامة بالأنساب ، غزير المعرفة بالتاريخ ، من أوجه قريش مروءة وعلماً . وكان شاعراً . ولد بالمدينة ومات ببغداد . له كتاب « نسب قريش » (١٥٦ - ٢٣٦ هـ) .

ذاتَ يومٍ جالسة إذ مر بها أبو العباس السفاح ، وكان جميلاً وسيماً ، فسألت عنه ، فنُسب لها ، فأرسلت له مَوْلاةً لها تَعرضُ عليه أن يتزوجها ، وقالت لها : قولي له هذه سبعمائة دينار أُوَجِّهُ بها إليك ، وكان معها مالٌ عظيم وجَوْهرٌ وحَشَم ، فأتته المولاةُ فعرضت عليه ذلك ، فقال : أنا مُمْلِقٌ لامالَ عندي ، فدفعتْ إليه المالَ ، فأنْعمَ لها (١) ، وأقبل إلى أخيها فسأله التزويجَ فزوَّجه إيَّاها ، فأصْدَقها خمسمائة دينارٍ ، وأهدى مائتي دينار ، ودَخَلَ عليها من ليلته ، وإذا هيَ على مِنَصَّةٍ ، فصَعِدَ عليها ، فإذا كلُّ عُضْوٍ منها مُكَلَّلٌ بالجوهر فلم يَصِلْ إليها ، فدعت بعضَ جواريها فنزلت وغيَّرت لُبْسَها ولَبِسَتْ ثياباً مُصَبَّغَةً وفَرَشَتْ له فِراشاً على الأرض دونَ ذلك فلم يقدِرْ يَصِل إليها ، فقالت : لا يَضُرَّك هذا ، كذلك الرجال كان يُصيبهم مثل ما أصابك ، فلم تزل به حتى وَصَل إليها من لَيْلَته ، وحَظِيت عندَه ، وحلف أن لا يتزوجَ عليها ولا يتسرَّى ، فولدتْ منه محمداً

---

(١) أنعم لها : قال لها : نعم .

ورَيْطة، وغلبت عليه غلبةً شديدة ، حتى ما كان يقطع أمراً إلا بمشورتها وبتأميرها حتى أفضَت الخلافةُ إليه ، فلم يكن يدنو إلى النساء غيرها لا إلى حُرَّة ولا إلى أمَة ، ووَفَى لها بما حلَف أن لا يُغَيِّرَها ؛ فلما كان ذاتَ يوم في خلافته خلا به خالدُ بنُ صفوان (١) فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إني فكّرتُ في أمرك ، وسعةَ مُلْكك ، وقد مَلَّكتَ نفسَك امرأةً واحدة واقتصرْتَ عليها فإن مَرِضَتْ مَرِضْتَ ، وإن غابتْ غِبْتَ، وحرَمْتَ نفسَك التلذُّذَ باستطرافِ الجواري ومعرفةِ أخبار حالاتهن والتمتُّعِ بما تشتهي منهنّ فإنَّ منهنّ ياأميرَ المؤمنين الطويلةَ الغَيْداء (٢) ، وإنَّ منهن البَضَّةَ البيضاءَ ، والعتيقةَ الأدْماءَ (٣) ، والدقيقةَ السَمْراءَ ، والبربريةَ العَجْزاءَ .

---

(١) خالد بن صفوان : من بني تميم : أحد فصحاء العرب المشهورين . ولد ونشأ بالبصرة . جالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، وأدرك خلافة السفاح وحظي عنده ، كان يرمى بالبخل . توفي نحو ١٣٣ هـ .

(٢) الغيداء : الناعمة .

(٣) العتق : الجمال ورقة الجلد . والأدماء : السمراء .

من مُوَلَّدات المدينة ، تَفْتِنُ بمحادثتها ، وتَلَذُّ بمحاورتها ، وأينَ أميرُ المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ماعندَهن وحسنِ الحديث منهن ؟ ولو رأيتَ ياأميرَ المؤمنين الطويلةَ البيضاء ، والسمراءَ اللعساءَ (١) ، والصفراءَ العجزاء ، والمولَّدات من البصريَّات والكوفيات ، ذات الألسن العذبة ، والقدود المهفهَفة (٢) ، والأوْساط المخصرة ، والأصداغ المزرْفنة (٣) ، والعيون المكَحَّلة ، والثُّدي المحقَّقة ، وحسن زيهن وزينتهن وشكلهن ، لرأيت شيئاً حسناً ، وجعل خالد يجيد في الوصف ، ويكثر في الإطناب بحلاوة لفظه وجُوْدة وصفه ، فلما فرغ كلامه قال له أبوالعباس : ويحك ياخالد ! ماصَكَّ مسامعي والله قطُّ كلامٌ أحسنُ مما سمعتهُ منك ، فأعدْ علي كلامك فقد وقع مني موقعاً ، فأعاد عليه كلامَهُ خالدٌ أحسنَ مما ابتدأه ، ثم انصرف ، وبقي أبوالعباس مفكّراً فيما

---

(١) اللعساء : التي في شفتيها سمرة خفيفة .

(٢) امرأة مهفهفة : ضامرة البطن .

(٣) يقال للشعر المتدلي مابين العين والأذن : صدغ . والصدغ المزرفن : المستدير . والزرفين : حلقة الباب .

سمع منه ، فدخلت عليه أمُّ سلَمة امرأته ، فلما رأته مفكّراً مغموماً قالت : إني لأُنكرُك ياأميرَ المؤمنين ، فهل حدّث أمرٌ تكرهُهُ . أو أتاك خبرٌ فارتعتَ له ؟ قال: لم يكن من ذلك شيءٌ . قالت : فما قصّتُك ؟ فجعل ينزوي عنها . فلم تزل به حتى أخبرها بمقالةِ خالد له ، فقالت : فما قلتَ لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحانَ الله ينصحُني وتشتمينه ؟ فخرجت من عنده مُغْضَبةً ، وأرسلت إلى خالد جماعةً من النجارية (١) ومعهم الكامر كوبات (٢) ، وأمَرتْهم أن لايتركوا منه عُضْواً صحيحاً ، قال خالد : فانصرفتُ إلى منزلي ، وأنا على السرور بما رأَيتُ من أمير المؤمنين ؛ وإعجابه بما ألقيتهُ إليه ، ولم أشكّ أن صلتَه ستأتيني ، فلم ألبث حتى صار إليّ أولئك النجارية وأنا قاعدٌ على باب داري ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة والصلة ،

---

(١) نجر الرجل نجراً : دفعه ضرباً . والنجارية : الذين يتولون معاقبة المذنبين .

(٢) الكامر كوبات : لم أجد لها تفسيراً فيما بين يدي من مراجع . وأحسبها من أدوات القمع .

حتّى وقفوا علي ، فسألوا عني ، فقلت : ها أنا ذا خالد ؛ فسبق إلي أحدُهم بهِراوة كانت معه فلما أهوى بها إلي وثبتُ فدخلت منزلي ، وأغلقتُ البابَ عليّ ، واستترتُ ، ومكثتُ أياماً على تلك الحال لاأخرجُ من منزلي ، ووقع في خَلَدي أني أُوتيت من قبل أم سلمة ، وطلبني أبوالعباس طلباً شديداً ، فلم أَشْعُرْ ذاتَ يوم إلا بقومٍ قد هجموا علي ، وقالوا : أَجِبْ أميرَ المؤمنين ، فأيقنتُ بالموت فركبتُ وليس علي لحمٌ ولا دم ، فلم أَصِلْ إلى الدار حتى استقبلني عِدةُ رُسُل ، فدخلتُ عليه فألفيته خالياً ، فسكنتُ بعضَ السكون ، فسلّمتُ فأومأ إلي بالجلوس ، ونظرت فإذا خلفَ ظهري بابٌ عليه ستورٌ قد أُرخيت ، وحركةٌ خلفَها ، فقال لي : ياخالد ، لم أَرَكَ منذ ثلاث ، قلت : كنت عليلاً ياأميرَ المؤمنين ، قال : ويحك ! إنك كنت وصفتَ لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري مالم يَخرُقْ مسامعي قطُّ كلامٌ أحسنُ منه ، فأعِدْه علي ، قلت : نعم ياأميرَ المؤمنين ، أعلمتك أن العربَ اشتقت اسمَ الضَّرةِ من الضَّرِ ، وأن أحدَهم ماتزوج من النساء أكثرَ من واحدة إلا كان في جَهْد ،

فقال : ويحك ! لم يكن هذا في الحديث ، قلت : بلى والله يا أميرَ المؤمنين وأخبرتُك أن الثلاثَ من النساء كأثافيّ القِدْر يَغلي عليهن ، قال أبو العباس : بَرِئتُ من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنتُ سمعتُ هذا منكَ في حديثك ، قال : وأخبرتك أن الأربعةَ من النساء شرٌّ مجموعٌ لصاحبهن يُشَيِّبْنَه ويُهرِمْنَه ويُسقِمْنَه ، قال : وَيلَكَ ! والله ماسمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبلَ هذا الوقت ، قال خالد : بلى والله ، قال : ويلك ! وتكذِّبُني ؟ قال : وتريد أنْ تَقتلَني ياأميرَ المؤمنين ؟ قال : مُرَّ في حديثك ، قال : وأخبرتُك أنّ أبكارَ الجواري رجالٌ ، ولكن لاخُصَى لهنّ .، قال خالد : فسمعتُ الضحك من وراء السِتْر ، قلت : نعم وأخبرتك أيضاً أنّ بني مخزوم رَيحانةُ قريشٍ ، وأنّ عندك رَيْحانةً من الرياحين ، وأنت تطمحُ بعينك إلى حرائرِ النساء وغيرِهنّ من الإماء ، قال خالد : فقيل من وراء الستار : صدقتَ والله ياعماه وبَرِرْتَ ، بهذا حدَّثْتَ أميرَ المؤمنين ، ولكنه بدَّلَ وغَيَّرَ ونطق عن لسانك ، فقال لي أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزاك وفعل

باك وفعل ! ؟ قال : فبركته وخرجتُ وقد أيقنتُ بالحياة ، قال خالد : فما شعرت إلا برسلِ أم سلمة قد صاروا إليّ ومعهم عشرةُ آلاف درهم وتخت (١) وبرذونٌ وغلام .

كان السفاح يحبُّ مسامرة الرجال : ولم يكن أحدٌ من الخلفاء يُحِبُّ مسامرةَ الرجال مثلَ أبي العباس السفاح ، وكان كثيراً مايقول : إنما العَجَبُ ممن يترك أن يزدادَ علماً ، ويختارَ أن يزدادَ جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلي : ماتأويلُ هذا الكلام ياأمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسةَ مثلِك وأمثال أصحابك ، ويدخلُ إلى امرأةٍ أوْ جاريةٍ ، فلا يزال يَسمعُ سخفاً ، ويروي نقصاً ، فقال له الهُذَلي : لذلك فضّلكم اللهُ على العالمين ، وجَعَلَ منكم خاتَمَ النبيين .

وحضرهُ أبوبكر الهذلي ذات يوم ، والسَّفّاحُ مُقبِلٌ عليه يحادثهُ بحديث لأنوشروان في بعضِ حروبه بالمشرق مع بعضِ ملوك الأممِ ، فعصفَتِ الريحُ فأذْرتْ تراباً

---

(١) التخت : وعاء تصان فيه الثياب .

وقطعاً من الآجر من أعلى السطح إلى المجلس ، فجزع من حضر المجلس لوقوع ذلك ، وارتاع له ، والهذلي شاخص نحو أبي العباس لم يتغير كما تغير غيره ، فقال له أبو العباس : لله أنت يا أبا بكر ، لم أر كاليوم ، أما راعك ماراعنا؟ ولا أحسست بما ورد علينا ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وإنما جعل للرجل قلب واحد ، فلما غمره السرور بفائدة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال ، والله عز وجل إذا أفرد بكرامته أحداً ،وأحب أن يبقي له ذكرها جعل تلك الكرامة على لسان نبي أو خليفة ، وهذه كرامة خصصت بها فمال إليها ذهني ، وشغل بها فكري ، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء (١) ماأحسست بها ، ولا وجمت لها ، إلا بما يلزمني من نفسي لأمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، فقال له السفاح : لئن بقيت لك لأرفعن منك وضيعاً لاتطيف به السباع ، ولا يتنحط عليه العقاب .

---

(١) الخضراء : السماء . والغبراء . : الأرض

أول وزير في الدولة العباسية : وكان أوَّلَ من وَقَعَ عليه اسمُ الوزارة في دولة بني العباس أبو سَلَمة حَفْصُ بنُ سليمان الخلاَّل الهمداني ، مولى لسُبَيْع ؛ وكان في نَفْسِ أبي العباس منه شيء ؛ لأنه كان حاول في رد الأمر عنهم إلى غيرهم ، فكتب أبو مسلم إلى السفاح يشير عليه بقتله ؛ ويقول له : قد أحل الله لك دمَه ؛ لأنه قد نَكَثَ وغَيَّرَ وبَدَّل ، فقال السفاح : ماكنت لأفتتح دولتي بقتل رجلٍ من شيعتي ، لاسيما مِثْلُ أبي سَلَمة ، وهو صاحبُ هذه الدعوة ، وقد عَرَّضَ نفسه (١) ، وبَذَلَ مهجتَه ، وأنفق مالَه ، وناصحَ إمامَه ، وجاهدَ عدوَّه ، وكلمه أبو جعفر أخوه وداودُ ابنُ علي عمُّه في ذلك ، وقد كان أبو مسلم كتب إليهما يسألهما أن يُشيرا على السفاح بقتله . فقال أبو العباس : ماكنت لأُفسِدَ كثيرَ إحسانه ، وعظيمَ بلائه وصالحَ أيامه بزلَّةٍ كانت منه ، وهي خَطْرَةٌ من خَطَرات الشيطان ، وغَفْلَةٌ من غَفَلات الإنسان ، فقالا له : فينبغي ياأمير المؤمنين أن تَحْتَرِسَ منه ، فإنَّا لانأمنهُ

---

(١) عرض نفسه : قدمها .

عليك . فقال : كلا إني لآمنهُ في ليلي ونهاري ،وسرِّي وجهْري .ووَحْدَتي وجماعتي ، فلما اتّصل هذا القولُ من أبي العباس بأبي مسلم أكْبَره وأعْظمه ، وخافَ من ناحية أبي سلمة أن يقصدَه بمكروه ، فوجَّه جماعةً من ثِقاتِ أصحابه في إعمال الحيلة في قَتْلِ أبي سلَمة ، وقد كان أبوالعباس يأنسُ بأبي سلمة ويَسْمُرُ عندَه ، وكان أبوسلمة فَكِهاً ممتعاً أديباً عالماً بالسياسة والتدبير ؛ فيقال : إنّ أبا سلَمة انصرف ليلةً من عند السفاح من مدينته بالأنبار ، وليس معه أحد ، فوثبَ عليه أصحاب أبي مسلم فقتلوه ، فلما اتّصلَ خَبَرهُ بالسفّاح أنشأ يقول :

إلى النار فليذهبْ ، ومن كان مِثْلَـه
على أيِّ شيءٍ فاتنا منه نأسَـفُ

وكان أبومسلم يقال له : أمينُ آل محمد ، وأبوسلَمة حفصُ بنُ سليمان يدعى وزيرَ آل محمد ، فلما قُتِلَ غِيلَةً على ماذكرنا قال في ذلك الشاعر من أبيات :

إن المساءَة قد تَسُرُّ ، وربمـا
كان السرورُ بما كرهتَ جديرا

إنَّ الوزيرَ وزيرَ آلِ محمــــدٍ
أودْى ؛ فمن يَشْنَاكَ كان وزيرا(١)

وقد أتينا على خبر مقتله وكيفية أمره في الكتاب الأوسط .

قال المسعودي : وللسفّاح أخبارٌ غيرُ هذه وأسمارٌ حِسانٌ قد أَتَيْنا على مبسوطها في كتابَيْنا « أخبارِ الزمان » و « الأوسط » .

ذكر خلافة أبي جعفر المنصـــور

موجز : وبويع أبوجعفرٍ المنصورُ عبدُ الله بن محمد ابن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب وهو بطَريق مكة ، أخذَ له البَيْعةَ عمُّه عيسى بنُ علي ، ثم لعيسى ابن موسى من بعده ، يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومئة ، والمنصور يومئذ ابن إحدى وأربعين سنة ، وكان مولدُه في ذي الحجة سنة خمس وتسعين ، وكانت أُمهُّ أُمَّ وَلَدٍ يقال لها سلامة ،بربرية ، وكانت وفاتُه يومَ السبت لستٍ خَلَوْنَ

(١) يشناك : يبغضك .

من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ؛ فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنةً إلا تسعة أيام ؛ وهو حاجٌّ عندَ وصوله إلى مكة في الموضع المعروف ببستان بني عامر من جادّة العراق ؛ ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ؛ ودُفِنَ بمكّةَ مكشوف الوجه لأنه كان مُحرِماً ؛ وقيلَ : إنه ماتَ بالبطحاء عند بئر ميمون ، ودُفِنَ بالحجون (١) ؛ وهو ابنُ خمس وستين سنة ؛ والله أعلم .

ذكر جمل من أخباره ، وسيره ولمع مما كان في أيامه

رؤيا أم المنصور : ذُكِرَ عن سلامة أم المنصور أنها قالت : رأيتُ لما حملتُ بأبي جعفر المنصور كأنَّ أسداً خرجَ من قُبُلي فأقعى وزأر وضربَ بذنبه ، فأقبلت إليه الأُسْدُ من كلِّ ناحية ، فكلما انتهى إليه أسدٌ منها سجدَ له .

المنصور ورفيق سفر ضرير شاعر : وحدَّث علي ابن محمد المدائني أن المنصور قال : صحبتُ رَجُلاً ضريراً

---

(١) قال ياقوت : بئر ميمون بمكة . والحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها .

إلى الشام وكان يُريدُ مروانَ بنَ محمد بشعرٍ قاله فيه ، قال : فسألته أن يُنْشِدَني فأنشدني :

ليت شعري أفاح رائحةُ المسـ
اكِ وما إنْ إخالُ بالخَيفِ إنسي
حين غابت بنو أمية عنه
والبهاليلُ من بني عبد شمس
خطباءٌ على المنابر فرسا
نٌ عليها ، وقالةٌ غير خُرْسِ
لايُعابون قائلين ، وإن قا
لوا أصابوا ، ولم يقولوا بِلَبْسِ
وحلومٌ إذا الحلومُ استُخِفَّت
ووجوهٌ مِثْلُ الدنانيرِ مُلْسِ

قال المنصور : فوالله مافرَغَ من شعره حتى ظننتُ أن العمى قد أدركني ، وكان والله ممتعَ الحديث ،حسَنَ الصُّحْبةِ .

قال: وحججتُ سنةَ إحدى وأربعين ومئة ، فنزلت على الحمارةَ في جبَلي زَرُود (١) في الرمل أمشي لِنَذْرٍ كان عليّ ، فإذا أنا بالضرير ، فأومأتُ إلى من كان معي أنْ يتأخَّروا ، فتأخَّروا ، ودَنوتُ منه ، فأخذتُ بيده فسلَّمتُ عليه ، فقال : من أنتَ جعلني اللهُ فداك فما أُثْبِتُكَ معرفةً ، قلت : رَفيقُكَ إلى الشام في أيامِ بني أمية وأنتَ متوجِّهٌ إلى مروان ، فسلَّم عليّ وتنفس وأنشأ يقول :

آمتْ نساءُ بني أميةَ منهم
وبناتُهم بمَضيعَةٍ أيتامُ (١)

نامتْ جُدودُهم وأُسقِطَ نَجمُهم
والنجمُ يَسقُطُ والجدودُ نيامُ

خلَتِ المنابرُ والأسرَّةُ منهم
فعليهم حتى المماتِ سَلامُ

---

(١) جبلا زرود : بطريق الحاج من الكوفة إلى مكة .

(٢) آمت المرأة : فقدت زوجها فهي أيم .

فقلت له : كم كان مروانُ أعطاك ؟ فقال : أغناني فلا أسألُ أحَداً بعده ، فقلت : كم ؟ فقال : أربعةَ آلافِ دينارٍ وخلَع وحِمْلان ، قلت : وأين ذاك ؟ قال : بالبصرة ، قلت : أتُثْبِتُني معرفة ؟ فقال : أمّا معرفةُ الصُّحْبةِ فقد لَعَمْري ، وأما معرفةُ النَسَب فلا ، فقلت : أنا أبوجعفر المنصور أميرُ المؤمنين ، فَوقعَ عليه الأَفْكَلُ (١) . وقال : ياأميرَ المؤمنين اعذُرْ ، فإنَّ ابنَ عَمِّكَ محمداً صلى الله عليه وسلم قال : « جُبِلَتِ النُّفوسُ على حُبِّ من أحسنَ إليها ، وبُغْضِ من أساء إليها » ، قال أبوجَعْفر : فَهَمَمْتُ واللهِ به ، ثم تَذَكَّرْتُ الحُرْمةَ والصُّحْبَةَ ، فقلتُ للمُسَيِّب (٢) : أطلِقْهُ فأُطْلِقَ ثُمَّ بدا لي في مسامرته رأيٌ ؛ فأمرتُ بطَلَبِهِ فكأنَّ البيداءَ أبادتْهُ .

---

(١) الأفكل : الرعدة من الخوف .

(٢) المسيب : لعله المسيب بن زهير بن عمرو الضبي ، أبومسلم كان على شرطة المنصور ، وهو من القادة الشجعان مات في « منى » . (١٠٠ – ١٧٥) هـ .

المنصور يسأل عن تدبيرات هشام بن عبد الملك :

وذُكِرَ لأَبي جعفر تَدْبيرُ هشامٍ في حربٍ كانتْ له فبعثَ إلى رَجُلٍ كانَ يَنْزِلُ برُصافَةِ هِشام يسألُه عن تلك الحرب ، فَقَدِمَ عليه الرجلُ ، فقال له : أنتَ صاحبُ هشام ؟ فقال : نعم ياأمير المؤمنين ، قال : فأخبرني كيفَ فَعَلَ في حربٍ دَبَّرها في سنة كذا وكذا ، قال : فعلَ — رضيَ الله عنه — فيها كذا وكذا ، وفعلَ — رَحِمه الله — كذا وكذا . فأغاظَ ذلك المنصورَ ، فقال له : قُمْ عليك غَضَبُ الله ، تطأُ بساطي وتَتَرَحَّمُ على عدوِّي؟ فقام الشيخ وهو يقول : إن لعدوِّكَ قلادةً في عُنُقي ، ومِنَّةً في رقبتي لاينزعُها إلاَّ غاسلي ، فأمرَ المنصورُ بردِّهِ ، وقال : كيف قلت ؟ قال : إنه كفاني الطلبَ ، وصانَ وَجْهي عن السؤال ، فلم أَقِفْ على باب عربيٍّ ولا عَجَميٍّ مُنْذُ رأيتهُ ، أفلا يجبُ لي أن أذكرَه إلا بخير وأُتبِعهُ بثنائي ؟ فقال : بلى ، لله أمٌّ نهضَتْ عنك ! أشهدُ أنَّكَ نَهيضُ حُرَّةٍ ، وغِراسُ كريمٍ . ثم استمع منه ، وأمرَ له بجائزة ، فقال : ياأمير المؤمنين ، ماآخذُها

لحاجة ، وما هو إلا أن أتبجّح بحبائك (١) وأتشرّف بصلتك ، فأخذ الصلة ، فقال له المنصور : مُتْ إذا شئتَ ، لله أنت ! لولم يكن لقومك غيرُك كنتَ قد أبقيتَ لهم مجداً ، وقال لجلسائه بعد خروجه عنه : في مثلِ هذا تحسُنُ الصنيعةُ ، ويُوضَعُ المعروفُ ، ويجاد بالمصُونِ ، وأنّى في عسكرنا مثلُه ؟

خروجُ عبد الله بن علي: وقد كان عبدُ الله بنُ علي خالفَ على المنصور ، ودعا إلى نفسهِ مَنْ كان معه من أهلِ الشّام وغيرهم ، فبايعوه وزعم أن السفاحَ جعَلَ الخلافةَ مِنْ بعده لمن انتدبَ لقتلِ مروانَ ، فلما بلغَ المنصورَ ذلكَ من فعلِ عبدِ الله كتبَ إليه :

سأجعلُ نفسي منك حيثُ جعلْتَها
وللدّهرِ أيامٌ لهن عواقبُ

ثم بعثَ إليه بأبي مسلم ، فكانت له معه حروبٌ كثيرةٌ ببلاد نصيبين (٢) في الموضع المعروف بدْير

---

(١) الحباء : العطاء .

(٢) نصيبين : مدينة على الحدود السورية التركية قرب القامشلي . وقال ياقوت : إنه كان « فيها وفي قراها أربعون ألف بستان » . ج ٥/٢٨٨ .

الأعور . وصبر الفريقان جميعاً شهوراً على حربها ، واحتفروا الخنادق . ثم انهزم عبدالله بن علي فيمن كان معه ، وسار في نفر من خواصه إلى البصرة ، وعليها أخوه سليمان بن علي عم المنصور . فظفر أبومسلم بما كان في عسكر عبد الله، فبعث إليه المنصور بيقطين بن موسى(١) لقبض الخزائن . فلما دخل يقطين على أبي مسلم قال : السلام عليك أيها الأمير ، قال: لاسلّم الله عليك يابن اللخناء ! أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال ؟ فقال : له ماأبدى هذا منك أيها الأمير ؟ قال : أرسلك صاحبك لقبض ما في يديّ من الخزائن. فقال له : امرأته طالق ثلاثاً إن كان أمير المؤمنين وجّهني إليك لغير تهنئتك بالظفر . فاعتنقه أبومسلم . وأجلسه إلى جانبه ، فلما انصرف قال لأصحابه : والله إني لأعلم أنه قد طلق زوجته ثلاثاً . ولكنه وفّى لصاحبه .

خلاف أبي مسلم للمنصور وقتله : وسار أبومسلم

---

(١) هو داعية عباسي من الدهاة الشجعان العارفين بالوقائع والحروب ، له دور في توطيد سلطة العباسيين في الممالك والأمصار . توفي سنة ١٨٦ هـ.

من الجزيرة وقد أجمع على خلاف المنصور . واجتاز على طريق خراسان متنكباً (١) للعراق يريد خراسان ، وسار المنصور من الأنبار يريد المدائن (٢) ، فنزل برومية المدائن (٣) التي بناها كسرى ، وقد قدمنا ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب ، وكتب إلى أبي مسلم : إني قد أردت مذاكرتك بأشياء لم يحتملها الكتاب ، فأقبل فإن مقامك عندنا قليل . فقرأ الكتاب ومضى على حاله ، فسرح إليه المنصور جرير بن يزيد بن جرير ابن عبدالله البجلي (٤) ، وكان واحد أهل زمانه ، وداهية عصره ، وكانت المعرفة بينه وبين أبي مسلم قديمة بخراسان ، فأتاه فقال : أيها الأمير ، ضربت الناس عن عرض (٥) لأهل هذا البيت ، ثم تنصرف

---

(١) تنكبه : تجنبه .

(٢) الأنبار والمدائن : مدينتان بالعراق .

(٣) رومية المدائن : مدينة بالعراق قرب المدائن .

(٤) لم أعثر له على ترجمة .

(٥) عرض الشيء : من أي وجه جئته . وضربت الناس عن عرض : أي ضربت خصوم العباسيين من كل الوجوه .

على هذه الحالة ؟ ماآمَنُ أن يَعيبَك مَنْ هنالك ومَنْ هَهنا ، وأن يقالَ : طلب بثأرِ قومٍ ثم نقض بيعتَهم . فيخالفك مَنْ تأمنُ مخالفتَه إياك ، وأنَّ الأمرَ لم يبلغ عند خليفتك ماتكرَه . ولاأرى أن تنصرفَ على هذه الحال ، فأرادَ أنْ يُجيبَ إلى الرجوع ، فقال له مالكُ ابنُ الهيثم (١) : لاتفعلْ . فقال لمالك : ويْلَكَ ! لقد بُليتُ بإبليس وما بُليتُ بمثلِ هذا قطُّ . يعني الجريري ، فلم يزَلْ به حتى أقبلَ به على المنصور . وكان أبومسلم يَجِدُ خبَرَهُ في الكتب السالفة ونَعْتَهُ وأنه يُقتَلُ بالروم ، وكان يُكثِرُ من قول ذلك ، وأنَّه يُقتَلُ بالروم على حسب ماوُجِدَ في الملاحم ، وأنه يُميتُ دَولةً ويُحيي أخرى ، فلمَّا دَخَلَ على المنصور وقد تلَقَّاه الناس رَحَّبَ به وعانَقَه وقال له : كدْتَ أن تمضيَ قبلَ أن أقضيَ عليك بما أُريد ، قال : فقد أتيتُ ياأميرَ المؤمنين فَأمرْ بأَمْرِك ، فأمره بالانصراف إلى

---

(١) مالك بن الهيثم : من نقباء بني العباس خرج على بني أمية سنة ١١٧ هـ ودعا لبيعة بني العباس . صحب أبامسلم ، وتوفي بعد مقتله . ووفاته بعد سنة ١٣٧ هـ .

منزله ، وانتظر فيه الفرصَ والغوائل . فركبَ أبومسلم
إلى المنصور مراراً وهو لايُظهر له شيئاً ، ثم ركبَ وقد
أظهرَ له التجنّي ، فسار أبومسلم إلى عيسى بن موسى ،
وكان له فيه رأيٌ جميل ، فسأله الركوبَ معه إلى المنصور
ليعذُلَه بحضرته ، فأمَرَهُ أن يتقدَّمَه إلى المنصور فإنه
بالأثَر ، فتقدَّمَ أبومسلم إلى مَضْرِبِ المنصور ، وهو
على دِجْلَةَ برُومِيَةِ المدائن ، فدخل وجلَسَ تحتَ
الشراعِ ، وقيلَ الرِّواق ، فأُخبِرَ أنَّ المنصورَ يتوضأُ
للصلاة ، وكان المنصور قد تقدَّم إلى صاحبِ حرَسه عثمانَ
ابنِ نَهيك ، في عِدَّة فيهم شبيبُ بن رواح المرْوَرَوْذي
وأبوحنيفةَ حَرْبُ بنُ قيس ، وأمرهم أن يقوموا خلفَ
السرير الذي كان وراء أبي مسلم ،وأمرهم أنه إذا عاتبه
وظَهرَ صوتَه لايظهروا ، فإذا صَفَقَ بيدٍ على يد فليظهروا ،
وليضربوا عُنُقه وما أدركوا منه بسيوفهم ،وجلس المنصور ،
فقام أبومسلم من موضعه ودخل فسلَّم عليه ، فردَّ عليه ،
وأذِنَ له بالجلوس ، وحادثَه ساعةً ، ثم أقبلَ يعاتبهُ
ويقول : فعلتَ وفعلتَ ، فقال أبومسلم : ليس يُقالُ
هذا لي بعد بلائي وما كان مني ، فقال له : يابنَ الخبيثةِ

وإنما فعلتَ ذلك بجدِّنا وحُظوظنا ولو كان مكانَك أَمَةٌ سوداءُ لأجزَتْ (١)، ألستَ الكاتبَ إليَّ تبدأ بنفسك ؟ والكاتبَ إليَّ تخطُبُ آسيةَ بنتَ عليٍّ وتزعُمُ أنك ابنُ سليطِ بنِ عبد الله بن العباس ؟ لقد ارتقيتَ ، لاأمَّ لكَ ، مُرتقىً صعباً . فأخذَ أبومسلم بيده يَعركُها ويُقبِّلُها ويعتذرُ إليه . فقال المنصور وهو آخر ماكلمه به : قتلَني اللهُ إن لم أقتُلْكَ . وذكرَ له قتْلَهُ لسليمانَ ابنِ كثير . ثم صفّقَ بإحدى يديه على الأخرى ، فخرج إليه القومُ . فبَدَرَه عثمانُ بن نَهيك ضَرْبَةً خفيفة بالسيف قطعت نِجادَ سيفِ أبي مسلم . وضربَه شَبيبُ ابنُ رواح فقطعَ رِجلَه . واعتورَتْه السيوفُ . فخالطَتْ أجزاؤه . وأتَوا عليه . والمنصور يَصيح : اضربوا قطَعَ اللهُ أيديَكم . وقد كان أبو مسلم عندَ أولِ ضَرْبَةٍ قال : استبقني ياأميرَ المؤمنين لعدوِّكَ ، قال : لاأبقانيَ الله أبداً إن أبقَيْتُكَ ! وأيُّ عدوٍّ أعدى لي منك ؟ وكان قتْلُه في شعبانَ من سنة ست وثلاثين ومائة ، وفيها كانت بَيْعَةُ المنصور ، وهزيمةُ عبدِ الله بن علي ، وأُدرِجَ أبومسلمٍ في بساط .

---

(١) أي لقامت مقامك .

خطبة المنصور بعد قتل أبي مسلم : وخطب المنصورُ الناسَ بعد قتله أبامسلم فقال : أيُّها الناس . لاتخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية . ولا تُسِرُّوا غِشَّ الأئمة ، فإنَّ من أسرَّ غِشَّ إمامه أظهرَ اللهُ سريرتَه في فلتات لسانه، وسقطات أفعاله . وأبداها اللهُ لإمامه الذي بادرَ بإعزاز دينه به ، وإعلاء حقه بفلجه (١) ، إنا لم نبخسكم حقوقكم . ولم نبخس الدِّينَ حقَّه عليكم ، إنَّ من نازعنا عُروةَ هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد ، وإنَّ أبا مسلم بايعنا وبايعَ لنا على أنه من نكثَ بيعتنا فقد أباحَ لنا دمَه ، ثم نكثَ بيعتَه هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمَه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعايةُ الحقِّ له من إقامة الحقِّ عليه .

قال المسعودي : ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن(٢) وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته صعدَ المنبر

---

(١) الفلج : الفوز والظفر .

(٢) عبدالله بن الحسن : سبقت ترجمته .

بالهاشمية (١) . فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، وصلّى على محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قال : ياأهلَ خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارُنا ، وأهلُ دعوتنا ، ولو بايعتم غيرَنا ، لم تبايعوا خيراً منا ، إن وَلَدَ ابنِ أبي طالب تركناهم ، والذي لاإله إلا هو ـ والخلافةَ فلم نعرضْ لهم لابقليل ولابكثير . فقام فيها عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه فما أفلَحَ ، وحَكَّم الحكمين ، فاختلفت عليه الأمّةُ ، وافترقت الكلمةُ ، ثم وثَب عليه شيعتُهُ وأنصارُه وثقاتُه فقتلوه ، ثم قامَ بعدَهُ الحسنُ بن علي رضي الله عنه فوالله ماكانَ برجل ، عُرِضت عليه الأموالُ فقبلَها ، ودسَّ إليه معاويةُ إني أجعلُك وليَّ عهدي ، فخلَعه وانسلخَ له مما كان فيه ، وسلَّمه إليه ، وأقبلَ على النساء يتزوجُ اليومَ واحدةً ويُطلِّقُ غداً أخرى ، فلم يزلْ كذلك حتى ماتَ على فراشه ، ثم قام من بعدِه الحسينُ ابن علي رضي الله عنه ، فخدَعَه أهلُ العراق وأهلُ الكوفة أهلُ الشِّقاق والنِّفاق والإغراق في الفتن ،

---

(١) الهاشمية : بلدة بالعراق قرب الأنبار على شاطىء الفرات الأيسر ، جعلها السفاح أول عاصمة له .

أهلُ هذه المَدَرَةِ السوءِ(١) ، وأشار إلى الكوفة .
فوالله ماهي لي بحربٍ فأحاربها ، ولا هي لي بسلمٍ فأسالمها ،
فرّق اللهُ بيني وبينها ! فخذلوه وأبرؤوا أنفسهم منه ،
فأسلموه حتى قُتِل ، ثم قام من بعده زيدُ بنُ علي فخدعه
أهلُ الكوفةِ وغرّوه ، فلما أظهروه وأخرجوه أسلموه ،
وقد كان أبي محمدُ بنُ علي ناشده اللهَ في الخروج ،
وقال له : لاتقبل أقاويلَ أهلِ كوفة فإنا نجدُ في
علمنا أن بعضَ أهلِ بيتنا يُصابُ بالكُناسة ، وأخشى
أن تكونَ ذلك المصلوبَ ، وناشدَهُ الله بذلك عمي داودُ
وحذّره — رحمه اللهُ — غدْرَ أهلِ الكوفة ، فلم يقبلْ ،
وتم على خروجه ، فقُتِلَ وصُلِبَ بالكُناسة ، ثم وَثب
بنو أمية علينا فابتزّونا شرَفَنا ، وأذهبوا عزّنا . واللهِ
ماكان لهم عندنا تِرَةٌ (٢) يَطلبونها ، وما كان ذلك
كلُّه إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفَوْنا عن البلاد ،
فصرنا مرةً بالطائف ، ومرةً بالشام ، ومرة بالسَراة(٣) ،

---

(١) المدرة : القرية .
(٢) الترة : الثأر .
(٣) السراة : الجبال الفاصلة بين نجد وتهامة الحجاز .

حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً . فأحيا الله شرفَنا وعزَّنا بكم . ياأهلَ خراسان . ودَفع بحقِّكم أهلَ الباطل وأظهر لنا حقَّنا . وأصار إلينا أمرَنا وميراثَنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقرّ الحقُّ في قراره . وأظهر اللهُ منارَه . وأعزَّ أنصارَه . وقَطَعَ دابرَ القوم الذين ظلموا والحمدُ لله رب العالمين . فلما استقرت الأمورُ فينا على قرارها من فضل الله وحُكْمِه العدل وثَبوا عَلَيْنَا . حسداً منهم لنا وبَغْياً علينا . بما فَضَّلنا اللهُ به عليهم . وأكْرَمَنا من خلافته ميراثَنا من نبيه ، وجُبْناً من بني أمية . وجراءَة علينا ، إني والله ياأهلَ خراسان ماأتيتُ من هذا الأمر من جَهالة ولا عن ظِنَّة (١) ولقد كنتُ يبَلغني عنهم بعضُ السَّقَم . ولقد كنت سَمّيتُ لهم رجالاً فقلت : قم أنت يافلان ، فخذْ معك من المال كذا وكذا . وقم أنت يافلان فخذ معكَ من المال كذا وكذا . وحذوتُ لهم مثالاً يَعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوا المدينة فلقوهم فدَسُّوا ذلك المالَ . فوالله مابقي منهم شيخٌ ولاشابٌ ولا صغيرٌ ولاكبيرٌ

---

(١) الظنة : التهمة .

إلا بايعهم لي ، فاستحللتُ به دماءَهم ، وحلّتْ عند ذلك بنقضهم بَيْعَتي وطلبهم الفتنةَ والتماسهم الخروجَ عليّ ، ثم قرأ في دَرْجِ المنبر «(وَحِيلَ بينَهم وبينَ مايَشْتَهون ، كما فُعِلَ بأشياعِهِم مِنْ قبلُ ، إنّهم كانوا في شكٍّ مُرِيبٍ)» .

وفاةُ المنصور : وكان مولدُ المنصور في السنة التي ماتَ فيها الحجّاجُ بنُ يُوسف ، وهي سنة خمسٍ وتسعين ، وكان يقول : وُلِدتُ في ذي الحجّة ، وأُعذِرت (١) في ذي الحجّة ، ووَليتُ الخلافةَ في ذي الحِجّة ، وأَحسَبُ المنيّةَ تكون في ذي الحجّة . فكان كما ذَكَر .

* * *

صفات المنصور : وكان المنصورُ من الجزم وصوابِ الرأيِ وحُسْنِ السياسة على ماتجاوزَ كُلَّ وصف : وكان يُعطي الجزيلَ والخطيرَ ماكان عَطاؤه حَزْماً . ويَمنعُ الحقيرَ اليسيرَ ماكان إعطاؤه تَضْييعاً ، وكان كما

---

(١) أعذر الصبي : ختنه .

قال زياد (١) : لو أنَّ عندي ألفُ بعير وعندي بعيرٌ أجربُ لقمتُ عليه قيامَ من لا يملكُ غيرَه ، وخلَّفَ أبو جعفر ستَّمائة ألفِ ألفِ درهم وأربعةَ عشرَ ألف ألف دينار ، وكان مع هذا يضنُّ بماله ، وينظرُ فيما لا ينظُرُ فيه العوامُّ ، ووافقَ صاحبَ مطبخِه على أنَّ له الرؤوسَ والأكارعَ والجلودَ . وعليه الحطبُ والتوابلُ ، ومن كرمِه أن وصَلَ عمومتَه وهم عشَرةٌ في يومٍ واحد بعشَرةِ آلاف درهم ، وأسماؤهم : عبدُ الله بن علي ، وعبدُ الصمد بنُ علي ، وإسماعيلُ بنُ علي ، وعيسى بنُ علي ، وداودُ بن علي ، وصالح بنُ علي ، وسليمانُ بنُ علي ، وإسحاقُ بنُ علي ، ومحمدُ بنُ علي ، ويحيى بنُ علي ، وكانَ يعملُ في بناء مدينة بغدادَ التي بناها وعُرِفتْ به في كلِّ يوم خمسونَ ألفِ رجلٍ .

أولاده : وكان له من الولَدِ : المهديُّ وجعفَرُ ، وأمُّهما أمُّ موسى الحميَريَّة ، وتوفي جعفرُ في حياة أبيه المنصور ، وسليمان وعيسى ويعقوب وجعفر الأصغر ، من كرديَّة ، وصالحُ الملقَّبُ بالمسكين ، وبنتٌ تسمى عالية .

(١) لعله زياد بن أبيه .

قال المسعودي : وللمنصور أخبارٌ حِسانٌ مع الرَّبيع وعبدِ الله بن عيَّاش و جعفرِ بنِ محمد وعمرو بن عبيد وغيرِهم ، وله خُطَبٌ ومواعظُ وسيرٌ وسياساتٌ في الملك ، قد أتينا على أكثرِها في كتابينا أخبار الزمان والأوسط ، وإنما نذكرُ في هذا الكتاب لُمَعاً تدلُّك على ماسَبَقَ في كتبنا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر خلافة المهدي محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ين العباس

موجز : ويكنى أبا عبد الله ، وأمه أم موسى بنت منصور بن عبدالله بن ذي سهم بن أبي سَرْح ، من ولد ذي رُعَينٍ من ملوك حِمْيَر .

أخذ له البَيْعةَ بمكة الرَّبيعُ مولاه (١) يوم السبت لستٍ خَلَوْنَ من ذي الحجة سنة ثمانٍ وخمسين ومائة ، وأتاه بنعيِّ أبيه وبَيْعته منارةُ مولاه ، فأقام يومين بعد ذلك ، ثم خطبَ الناسَ فنعى أباه ودعا إلى بَيْعته وبُويعَ بَيْعةَ

---

(١) هو الربيع بن يونس بن أبي فروة ، من موالي بني العباس. تولى حجابة المنصور ثم الوزارة ، كان حازماً مدبراً ، توفي سنة ١٦٩ هـ.

العامة . وكان مَوْلِدهُ سنة سبع وعشرين ومائة ؛ وخرج من مدينة السلام في سنة تسع وستين ومائة يريد بلاد قَرْماسين من بلاد الدِّينَوَر (١) ؛ وقد وُصِفَ له طِيبُ ماسَبَذان من بلاد السِيرَوان وجُرجان (٢) ؛ فعدل إلى الموضع المعروف بأَرْزَنَ والران (٣) . فمات بقرية يقال لها ردين (٤) ليلة الخميس لسبع بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة . فكانت خلافته عشر سنين وشهراً وخمسة عشر يوماً . وقبض وله ثلاث وأربعون سنة . وصلّى عليه هرونُ الرشيد ؛ وكان موسى الهادي غائباً بجُرجان . وقيل : إنه مات مسموماً في قطائفَ أكَلَها ؛ ولبست حُسنةُ جاريتهُ وغيرُها من حَشَمِه المسوحَ

---

(١) قرماسين وقرميسين : وهو تعريب كرمان شاه : بلد بإقليم الجبال في إيران .

(٢) ماسبذان : بلد بايران . وكذلك السيروان وجرجان .

(٣) أرزن : مدينة بأرمينية . والران : مدينة قريبة منها .

(٤) ردين : لم أجد لها ذكراً . وقال ياقوت : « ومن هذه المدينة إلى الرذ ، بالراء ، عدة فراسخ ؛ وبها قبر المهدي » .

والسواد جزعاً عليه ، فقال في ذلك أبو العتاهية (١) :

رُحْنَ في الوَشْيِ وأصبحـن عليهنَّ المسُوحُ
كلُّ نَطَّاحٍ وإن عـا ش ، له يوماً نَطوحُ
لستَ بالباقي ولو عُمِّـرْتَ ماعُمِّرَ نوحُ
فَعَلى نفسكَ نُحْ إن كنتَ لابُدَّ تنوحُ

خصال المهدي وأعماله : وكان المهديُّ مُحَبَّباً إلى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمرَه بالنظر في المظالم ، والكفِّ عن القتل ، وأَمْنِ الخائف ، وإنصاف المظلوم ، وبَسَطَ يدَه في الإعطاء فأذهب جميعَ ماخلَّفه المنصور ، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار ، سوى ماجباه في أيامه ، فلما فرغت بيوتُ الأموال أتى أبوحارثة النهري خازنُ بيوت أمواله ، فرمى بالمفاتيح بين يديه ، وقال : مامعنى مفاتيح لبيوت فُرِّغ ؟ ففرق

(١) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد ، عنزي بالولاء ، أبوإسحاق : شاعر مكثر ، سريع الخاطر ، كان يجيد القول في الزهد والمدح . اتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم . سجنه المهدي ثم أطلقه . مات ببغداد سنة ٢١١ هـ .

المهدي عشرين خادماً في جباية الأموال ، فوردت الأموالُ بعدَ أيامٍ قلائل فتشاغَلَ أبو حارثة النهري بقَبْضِها وتصحيحها عن الدخول على المهدي ثلاثةَ أيام فلما دخل عليه قال : ماأخَّرك ؟ فقال : الشُّغْلُ بتصحيح الأموال، فقال : أنتَ أعرابي أحمق كنتَ تَظنُّ أن الأموال لاتأتينا إذا احتجنا إليها . قال ابو حارثة : إن الحادثة إذا حَدَثت لم تنتظرْك حتى تُوجِّهَ في استخراج الأموال وحملها ، وقيل : إنه رُزِق في عشرةِ أيامٍ من صُلْبِ ماله عَشَرةَ آلاف ألف درهم ، فعند ذلك قام شَبَّةُ بنُ عُقَال (١) على رأسه خطيباً فقال : وللمهديِّ أشباهٌ ، فمنها القمرُ الزاهرُ . والربيعُ الباكر ، والأسد الخادر ، والبحرُ الزاخر . فأما القمرُ الزاهرُ فأشبه منه حُسْنُهُ وبهاه ، وأما الربيعُ الباكرُ فأشبهُ منه طيبهُ وهواه، وأما الأسدُ الخادِرُ فأشبه منه عُرَّتهُ ومَضَاه . وأما البحر الزاخر فأشبه منه جُودُه وسخَاه .

---

(١) هو شبة بن عقال المجاشعي من مجاشع رهط الفرزدق : خطيب مفوه ، كان مفرط الطول ، ويلقب بسلح النعامة وأنشدوا :

فضح المنابر يوم يخطب قائماً   سلح النعامة شبة بن عقال

والبيت لجرير في هجاء شبة .

بين المهدي وسفيان الثوري : وقال القعقاع بن حكيم: كنتُ عندَ المهدي وأتى سفيانُ الثوري (١) فلما دخل عليه سلّم تسليم العامة ، ولم يُسلّم تسليم الخلافة ، والربيعُ قائم على رأسه متكيءٌ على سيفه يرقب أمره ، فأقبلَ المهدي بوجه طلقٍ وقال له : ياسفيانُ ، تفر منا ههنا وههنا وتظنُّ أنا لوأردناك بسوء لم نَقدِرْ عليك . فقدْ قَدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نَحكمَ فيك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحكمْ فيَّ يَحكُمْ فيك مالكٌ قادر يُفرّقُ بين الحقّ والباطل ، فقال له الربيعُ : ياأميرَ المؤمنين ، ألهذا الجاهلِ أنْ يستقبلك بمثل هذا ؟ ائذن لي أن أضرب عُنُقَه ، فقال له : اسكتْ ويلك ، مايُريدُ هذا وأمثالهُ إلا أن نَقتلهم فنشقى بسعادتهم ، اكتبوا بعهده على قضاءِ الكوفة ، على أن لايُعترَض عليه في حُكم ، فكتب عهدَه ودفَعه إليه ، فأخذهُ وخرج ورمى به في الدّجلة وهربَ ، فطُلب في كلّ بلد ، فلم يُوجد .

---

(١) سفيان الثوري : أبوعبدالله : محدث من الأئمة المجتهدين ، أثار اجتهاده جدلا في عصره . له : « الجامع الكبير » و « الجامع الصغير » و « الفرائض » . توفي نحو ١٦١ هـ .

رؤيا المهدي قُبَيْل وفاته: وقال علي بن يقطين : كنا مع المهدي بماسَبَذَانَ . فقال لي يوماً : أصبحتُ جائعاً فأتِني بأرغفةٍ ولحمٍ بارد ففعلتُ . فأكل ثم دخل البهوَ ونام ، وكنا نحنُ في الرِّواق ، فانتبهنا لبكائه ، فبادرنا إليه مسرعين ، فقال : أما رأيتُم ما رأيت ؟ قلنا : ما رأينا شيئاً . قال : وقف عليَّ رَجُلٌ لو كانَ في ألْفِ رَجُلٍ ما خفيَ عليَّ صوتُه ولا صورتُه فقال :

كأني بهذا القصرِ قد باد أهلُهُ
وأوحشَ منه رَبعهُ ومنازلُه
وصار عميدُ القومِ مِن بعد بَهْجَةٍ
ومُلْكٍ إلى قبرٍ عليه جَنادِلُه
فلم يبقَ إلا ذِكْرُهُ وحديثُهُ
تُنادِي عليه مُعْوِلاتٍ حلائلُه

قال علي : فما أتت على المهديِّ بعد رؤياه إلا عشرةُ أيام حتى تُوفي .

قال المسعودي : وللمهديّ أخبارٌ حِسَانٌ ، ولما كان

في أيامه من الكوائن والحروب وغيرها . قد أتينا على مبسوطه في الكتاب الأوسط ، وكذلك مَنْ ماتَ في سلطانه من الفقهاء وأصحاب الحديث وغيرهم ، وبالله التوفيق .

ذكر خلافة موسى الهادي

موجز : وبُويع موسى بنُ محمد الهادي يوم الخميس لسبع بقينَ من المحرم ، وهو ابنُ أربع وعشرين سنةً وثلاثة أشهر ، صبيحةَ الليلة التي كانت فيها وفاةُ والده المهدي ، وذلك في سنة تسعٍ وستين ومائة ، وتوفي بعيساباذَ (١) نحو مدينة السلام سنةَ سبعين ومائة ، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وكانت خلافتُهُ سنةً وثلاثة أشهر ، وكان يُكنّى أبا جعفر . وأمهُ الخَيْزُران بنتُ عطاء ، أمُّ ولَد

(١) عيساباذ : محلة كانت بشرقي بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدي وكانت إقطاعاً له .

جُرَشِيَة (١) . وهي أُمُّ الرشيد . وأتته البَيْعة وهو ببلاد طَبَرِستان وجُرْجان في حَرْبٍ كان هناك ، فركب البريد وقد أخذ له أخوه هارونُ البَيْعَةَ وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

لما أتتْ خيرَ بني هاشم ... خلافةُ الله بجُرْجانِ
شمَّرَ للحرب سرابيلَهُ ... برأي لا غُمرٍ ولا وانِ

ذكر جمل من أخباره وسيره، وأُمَعٍ مما كان في أيامه

أوصاف الهادي : كان موسى قاسيَ القلب ، شرسَ الأخلاق ، صَعْب المَرام (٢) ، كثيرَ الأدب ، مُحِباً له ، وكان شديداً شجاعاً ، بطلاً ، جواداً سخياً .

مثل من شجاعته : حدَّث يوسفُ بن إبراهيم

---

(١) جرشية : منسوبة إلى جرش ، وجرش من مخاليف اليمن . وقيل : جرش مدينة عظيمة باليمن وولاية واسعة .

(٢) المرام : المطلب .

الكاتب (١) . وكان صاحبَ إبراهيم بن المهدى (٢) ، عن إبراهيم ، أنّه كان واقفاً بين يديه وهو على حمار له ببستانه المعروف به ببغداد إذ قيل له : قد ظُفِرَ برجل من الخوارج ، فأمَرَ بإدخاله ، فلما قَرُبَ منه الخارجي أخذ سَيْفاً من بعض الحرس ، فأقبل يُريدُ موسى ، فتنحَّيت وكلُّ مَنْ معي عنه ، وإنه لواقفٌ على حماره ما يتحلحلُ . فلما أن قَرُبَ منه الخارجي صاح موسى : اضربا عُنُقَه ، وليس وراءه أحدٌ ، فأوهمه ، فالتفتَ الخارجيُّ لينظر ، وجمعَ موسى نفسَه ثم ظهر عليه فصرعَه ، فأخذ السيفَ من يده ، فضربَ عنُقَه ، قال : فكان خوفُنا منه أكثرَ من الخارجي ، فوالله ما أنكرَ

---

(١) هو أبوالحسن ابن الداية : من الحساب الكتاب . بغدادي . من موالي إبراهيم بن المهدي ، ونشأ في خدمته . رحل إلى الشام بعد موت إبراهيم ثم إلى مصر فكان من جلة كتابها . توفي بمصر نحو ٢٦٥ هـ . له تصانيف . منها : « أخبار الأطباء » .

(٢) هو أخو الرشيد : أديب وشاعر ولد ونشأ ببغداد : بويع بالخلافة في غياب المأمون بخراسان . وعفا عنه المأمون . تعاطى الغناء والملاهي . توفي سنة ٢٢٤ هـ .

علينا تنحينا ولا عدلنا على ذلك . ولم يركب حماراً بعد ذلك اليوم ، ولافارقه سيفه .

بين الهادي والرشيد : وحدثَ عدةٌ من الأخباريين من ذوي المعرفة بأخبار الدولة . أن موسى قال لهارون أخيه : كأني بك تُحدثُ نفسك بتمام الرؤيا ، وتؤمل ماأنتَ عنه بعيد . ومن دون ذلك خرْطُ القَتَاد(١) . فقال له هارونُ : ياأميرَ المؤمنين من تَكَبَّرَ وُضِعَ ، ومن تَواضَعَ رُفِعَ ، ومن ظَلَم خُذِل . وإن وصل الأمرُ إليَّ وصَلْتُ مَنْ قَطعتَ ، وبَرَرْتُ من حَرَمْتَ ، وصَيّرتُ أوْلادَك أعلى من أولادي ، وزَوَّجتُهم بناتي ، وقضيتُ بذلك حقَّ الإمام المَهديّ ، فانجلى عن موسى الغضبُ ، وبانَ السرورُ في وجهه ، وقال : ذلكَ الظنُّ بك ياأبا جعفر ، ادْنُ منّي . فقام هارون فقبّلَ يَدَه ، ثم ذهب ليعودَ إلى مجلسه ، فقال موسى : والشيخِ الجليل ، والملكِ النبيل ، لا جلستَ إلا معي في صدرِ المجلس ،

(١) مثل يضرب للأمر دونه موانع . والخرط : قشر الورق عن الشجر . والقتاد : شجر له شوك كالإبر .

ثم قال : ياخزّاني (١) ! احملْ إلى أخي الساعة ألف ألف دينار ، فإذا فتح الخَراجُ فاحمل إليه نصفَه ؛ فلما أراد هارون الانصراف قُدّمت دابتهُ إلى البساط .

وللهادي أخبارٌ حسان وإن كانت أيامه قَصُرت ، وقد أتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وبالله التأييد .

ذكر خلافة هارون الرشيد

موجز : وبويع هـارونُ الرشيدُ بنُ المهـدي يومَ الجمعة صبيحةَ الليلة التي مات فيها الهادي ، بمدينة السلام ، وذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، ومات بِطُوسَ (٢) بقرية يقال لها سناباذ(٣) ؛ يوم السبت لأربع ليال خلَونَ من جُمادى الآخرة سنة

---

(١) الخزان : صاحب الخزانة .

(٢) طوس : مدينة بخراسان قريبة من نيسابور ، فتحت في أيام عثمان بن عفان .

(٣) سناباذ : قرية بينها وبين طوس نحو ميل .

ثلاث وتسعين ومائة . فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر . وقيل : ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً . ووليَ الخلافة وهو إبن احدى وعشرين سنة وشهرين . ومات وهو ابنُ اربعٍ وأربعين سنة وأربعة أشهر .

ذكر جمل من أخباره،وسِيَره ولُمَعٍ مما كان في أيامه

الرشيد يستوزر يحيى بن خالد البرمكي : ولما أفْضَتِ الخلافة إلى الرشيد دعا بيحيى بن خالد (١) فقال له : ياأبتِ . أنت أجلستني في هذا المجاس ببركتك ويُمنك وحُسْنِ تدبيرك . وقد قلّدتُك الأمرَ ، ودفَعَ خاتمه إليه ؛ ففي ذلك يقول المَوْصلي (٢) :

---

(١) هو مؤدب الرشيد ووزيره . ذكرالمسعودي:أن وفاته كانت سنة ١٨٩ هـ وذكر آخرون أنه توفي سنة ١٩٠ هـ .

(٢) لعله إبراهيم بن ماهان الموصلي التميمي بالولاء . أوحد أهل زمانه في الغناء واختراع الألحان،وشاعر من ندماء الخلفاء . فارسي الأصل. عاصر المهدي والهادي والرشيد . مات ببغداد سنة ١٨٨ هـ .

ألم ترَ أنَّ الشمسَ كانت سقيمـةً
فلما وَلي هارونُ أشْرَقَ نورُها

بيُمْنِ أمينِ الله هارونَ ذي الندى
فهرونُ واليها ، ويحيى وزيرُها

وماتت رَيطة بنت أبي العباس السفاح لشهور خلت من أيام الرشيد ، وقيل : في آخرِ أيام الهادي ، وماتت الخيزُرانَ أمُ الهادي والرشيد في سنة ثلاث وسبعين ومائة ، ومشى الرشيد أمامَ جنازتها ، وكانت غلَّةُ الخيزُران مائةَ ألف ألف وستين ألف ألف درهم ، وفيها مات مُحمَّدُ بنُ سُليمان (١) ، وقبضَ الرشيدُ أموالَه بالبصرةِ وغيرِها ، فكان مبلغُها نيِّفاً وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياعِ والدورِ والمستغَلاَّت ، وكان محمدُ ابنُ سايمان يُغِلُّ كلَّ يومٍ مائةَ ألفِ درهم .

سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح : وفي سنة

---

(١) هو محمد بن سليمان بن علي العباسي : أمير البصرة في أيام المهدي . وزوج العباسة أخت الرشيد . ولد بالحميمة من أرض البلقاء ومات بالبصرة سنة ١٧٣ هـ .

ثمان وثمانين ومائة كان سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح (١) بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب ، فحدّث يَموتُ بنُ المزرّع عن الرياشي قال : سمعت الأصمعي يقول : كنتُ عند الرشيد . وأُتيَ بعبدِ الملك ابنِ صالح يرفُل في قيوده ؛ فلما نظر إليه قال : ديه ياعبدَ الملك . كأني والله أنظرُ إليك وشُؤبوبُها قد هَمَعَ (٢) ، وإلى عارضِها (٣) قد لَمَعَ . وكأني بالوعيد قد أقلع عن براجمَ (٤) بلا معاصم ، ورؤس بلا غلاصم (٥) .

---

(١) من أمراء بني العباس ولاه المهدي إمرة الموصل ، وعزله الرشيد ثم ولاه المدينة والصوائف ومصر . طلب الخلافة ، فحبسه الرشيد . كان خطيباً فصيحاً مهيباً توفي سنة ١٩٦ هـ .

(٢) الشؤبوب : الدفعة من المطر . وهمع : سال . وهو يشير بذلك إلى بوادر الفتنة . ويتوعد عبد الملك .

(٣) العارض : السحاب يعترض الأفق .

(٤) البراجم : ج برجمة : رؤوس السلاميات من ظهر الكف ، إذ قبض القابض كفه نشزت وارتفعت .

(٥) الغلاصم : ج غلصمة : رأس الحلقوم .

مهلاً مهلاً بني هاشم ، والله سهل لكم الوعر ، وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أزمتها . فخذوا حذركم مني قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل ، فقال له عبد الملك : أفذاً (١) أتكلم أم توأماً ؟ فقال : توأماً ، قال : فاتق الله ياأمير المؤمنين فيما ولاك ، وراقبه في رعاياك التي استرعاك ، قد سهلت لك والله الوعور ، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور ؛ وكنت كما قال أخو جعفر بن كلاب :

ومقام ضيق فرجته
بلسان أو بيان أو جدل
لو يقوم الفيل أو فياله
زل عن مثل مقامي أو زحل

قال : فأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد فقال له : ياعبد الملك ، بلغني أنك حقود . فقال : أصلح الله الوزير ! إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي إنهما لباقيان

(١) الفذ : الفرد .

في قلبي . فالتفتَ الرشيد إلى الأصمعي ، فقال : ياأصمعي حرّرها . فوالله مااحتجّ أحدٌ للحقد بمثل مااحتجّ به عبدُ الملك . ثم أمرَ به فَرُدَّ إلى مَحبسه . ثم التفت إلى الأصمعي فقال : والله والله ياأصمعي لقد نظرتُ إلى موضعِ السيف من عُنُقه مراراً . يمنعُني من ذلك إبقائي على قومي في مثله .

بين الرشيد ومعن بن زائدة : ودخل معنُ بنُ زائدة (١) على الرشيد وقد كان وَجَدَ عليه . فمشى فقارَبَ الخطوَ . فقال له هارونُ : كَبِرتَ والله يامعنُ . قال : في طاعتك ياأمير المؤمنين . قال : وإن فيك على ذلك لبقيّةً . قال : هي لكَ ياأميرَ المؤمنين ، قال : وإنك لَجَلْدٌ . قال : على أعدائك ياأميرَ المؤمنين . فرضي عنه وولاّه .

قال : وعُرِضَ كلامهُ هذا على عبدِ الرحمنِ

---

(١) هو معن بن زائدة الشيباني : أمير وقائد أموي من أشهر أجواد العرب ، كان شجاعاً فصيحاً ، أكرمه المنصور العباسي وولاه سجستان . قتل غيلة سنة ١٥١ هـ . هذا ماأجمعت عليه معظم كتب التراجم . وفي تاريخ وفاته مايشير إلى أنه لم يدرك خلافة الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) ! .

ابنِ زيد زاهدِ أهلِ البصرة فقال : ويحَ هذا ! ماترك لربه شيئاً .

وقال الرشيدُ يوماً لمعن بن زائدة : إني قد أعددتُك لأمرٍ كبير ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إن الله قد أعدّ لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطةً بطاعتك ، وسيفاً مشحوذاً على عدوِّك ، فإن شئت فقل . وقيل : إن هذا الجواب من كلام يزيد بن مزيد (١) .

وصية الرشيد لمؤدب الأمين الأحمر النحوي :

قال الأحمر النحْوي (٢) : بعثَ إليَّ الرشيدُ لتأديب ولده محمد الأمين ، فلما دخلت قال : يا أحمر ، إن أميرَ المؤمنين قد دفع إليك مهجةَ نفسه ، وثمرةَ قلبه ، فصيِّر يدَكَ عليه مبسوطةً ، وطاعتَك عليه واجبةً ، فكن له بحيثُ وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآنَ ، وعرِّفه

(١) يزيد بن مزيد الشيباني : هو ابن أخي معن بن زائدة . شجاع من الأجواد . هزم الخوارج في عهد الرشيد ، وولي أرمينية ثم أذربيجان وتوفي بها سنة ١٨٥ هـ .

(٢) هو علي بن المبارك الأحمر النحوي ، غلام الكسائي . وجاء في معجم الشعراء : أنه كان قليل الشعر ضعيفه .

الآثارَ ، ورَوِّه الأشعارَ ، وعلِّمه السُّنَن ، وبصِّره مواقعَ الكلام وبدأه ، وامنعْه الضحكَ إلا في أوقاته ، وخُذْه بتعظيم مشايخِ بني هاشم إذا دخلوا اليه ، ورَفْعِ مجالس القواد إذا حضروا مجلسَه. ولا تَمُرَّنَّ بك ساعةٌ إلا وانت مغتنم فيهافائدةً تُفيدهُ إيَّاها ، من غير أن تَخْرُقَ(١) به فتميتَ ذهنه ، ولا تُمعنْ في مسامحته فيستحلي الفراغَ ويألفه ، وقوِّمه مااستطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلْظة .

حرصُ الرشيد على ولاية عهده : قال الأصمعي :

بينما أنا أسامر الرشيد ذاتَ ليلة إذ رأيته قد قَلِقَ قلقاً شديداً فكان يقعدُ مَرَّةً ويضطجعُ مرةً ويبكي أخرى ثم أنشأ يقول :

قَلِّد أمورَ عبادِ الله ذا ثقـــة
مُوَحِّدَ الرأي لانِكسٌ ولا بَرِمُ

واترك مقالةَ أقوامٍ ذوي خَطَلٍ
لايفهمون إذا مامعشرٌ فَهِمُوا

---

(١) الخرق : الدهش من خوف أو حياء .

فلما سمعتُ منه ذلك علمت أنه يريدُ أمراً عظيماً .

ثم قال لمسرور الخادم : عليَّ بيحيى (١) ، فما لبث أن أتاه ، فقال : ياأبا الفضل . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في غير وصيةٍ ،والإسلامُ جَذَعٌ (٢) ، والإيمان جديد ، وكلمةُ العرب مجتمعة ، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف ،وأعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتدَّ عامةُ العرب على أبي بكر ، وكان من خبره ماقد علمت ، وإن أبا بكر صيَّر الأمر إلى عمرَ ، فسلَّمت الأمة له ، ورضيت بخلافته ، ثم صيَّرها عمرُ شورى، فكان بعده ماقد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها ، وقد عُنيتُ بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى مَنْ أرضى سيرتَه ، وأحمدُ طريقتَه ، وأثقُ بحسنِ سياسته ، وآمن ضعفَه ووهنَه ، وهو عبدُ الله (٣) ، وبنو هاشم ماثلون إلى محمد (٤) بأهوائهم ،

---

(١) هو يحيى بن خالد البرمكي مؤدب الرشيد . وقد سبقت ترجمته .

(٢) المقصود : حديث ، أو فتي .

(٣) عبد الله المأمون .

(٤) محمد الأمين .

وفيه مافيه من الانقياد لهواه . والتصرفِ مع طويَّته .
والتبذير لما حوته يدُه ، ومشاركةِ النساء والإِماءِ في
رأيه ؛ وعبدُ الله المرْضيُّ الطريقة ، الأصيلُ الرأي ،
الموثوقُ به في الأمر العظيم ؛ فإن ملتُ إلى عبد الله أسخطتُ
بني هاشم ، وإن أفردتُ محمداً بالأمر لم آمن تخليطَهُ
على الرعية . فأشِرْ عليَّ في هذا الأمر برأيك مشورةً
يَعُمُّ فضلُها ونفعُها ، فإنك بحمد الله مباركُ الرأي ،
لطيفُ النظر . فقال : ياأمير المؤمنين إن كلَّ زلةٍ مستقالَةٌ
وكلَّ رأي يُتَلافى ، خلا هذا العهد . فإن الخطأَ فيه غير
مأمون ، والزَّلَّة فيه لاتُستَدرك . وللنظر فيه مجالسُ
غيرُ هذا ؛ فعلم الرشيدُ أنه يُريدُ الخَلْوَةَ فأمرني بالتنحي .
فقمتُ وقعدتُ ناحيةً بحيث أسمعُ كلامَهما . فما زالا
في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليلُ . وافترقا
على أنَّ عَقَدَ الأمرِ لعبد الله بعد محمد .

ودخلت أمُّ جعفر على الرشيد فقالت : ماأنصفتَ
ابنَك محمداً حيثُ وليّته العراقَ ، وأعريتَه عن العدد
والقوّاد ، وصيّرتَ ذلك إلى عبد الله دونَه ، فقال لها :
وما أنتِ وتميُّز الأعمال واختبار الرجال ؟ إني ولّيت

ابنك الأمين ، وعبدَ الله المأمون ؛ وصاحبُ الحرب أحوجُ إلى الرجال من المسالم؛ ومع هذا فإنا نتخوّفُ ابنكَ على عبدِ الله ، ولانتخوفُ عبدَ الله على ابنكَ إن بُويع .

وفي سنة ست وثمانين ومائة خرج الرشيد حاجّاً ومعه وليّا عهده : الأمين والمأمون ، وكتب الشرطين بينهما وعلّقهما في الكعبة .

العتّابي ينال من أبي نواس : حدث يَموتُ بن المُزَرَّع (١) قال : حدثني خالد عن عمرو بن بحر الجاحظ (٢) قال :

كان كُلْثومُ العتّابي(٣) يضعُ من قَدْر أبي نواسٍ (٤)

---

(١) يموت بن المزرع : من عبد القيس : شاعر أديب من مشايخ العلم ، وهو ابن أخت الجاحظ . مات بطبرية وقيل بدمشق سنة ٣٠٤ هـ .

(٢) خالد : لم أعرفه ، والجاحظ : سبقت ترجمته .

(٣) كلثوم العتابي : هو كلثوم بن عمرو التغلبي : كاتب مترسل، وشاعر مجيد ، من أهل الشام . مدح الرشيد ، ورمي بالزندقة . له تصانيف منها : « فنون الحكم » و « الآداب » . توفي سنة ٢٢٠ هـ .

(٤) أبونواس : هو الحسن بن هانىء : مولده بالأهواز . من كبار شعراء العصر العباسي . قربه الرشيد والأمين . اتصل بالبرامكة . (١٤٦ — ١٩٨ هـ) .

فقال له راويةُ أبي نواس يوماً : كيف تضعُ مِنْ قدْرِ أبي نواس وهو الذي يقول :

إذا نحنُ أثنينا عليكَ بصالحٍ
فأنتَ الذي نُثْني وفوقَ الذي نُثْني

وإن جرَتِ الألفاظُ مِنّا بِمدْحةٍ
لغيركَ إنساناً فأنت الذي نَعْني

قال العتابي : هذا سَرَقهُ . قال : ممن ؟ قال : من أبي الهُذَيْل الجُمَحيّ (١) قال: حيث يقول ماذا ؟ قال: حيث يقول :

وإذا يُقالُ لبعضهم نِعْمَ الفتى
فابنُ المُغيرةِ ذلك النِّعْمُ

عَقُمَ النساءُ فلا يَجِئْنَ بمثله
إن النساءَ بِمِثْلِهِ عُقْمُ

قال : فقد أحسن في قوله :

فتَمَشّتْ في مفَاصِلِهم كتَمَشّي البُرْءِ في السَّقَمِ

---

(١) لم أعرفه .

قال : سرقة أيضاً ؛ قال له : وممن ؟ قال : من شَوْسَة الفَقْعسي (١) . قال : حيث يقول ماذا ؟ قال حيث يقول :

إذا ماسَقِيمٌ حَلَّ عنها وِكاءَها (٢)
تصَعَّدَ فيه بُرْؤُها وتصوَّبا

وإنْ خالَطَتْ منه الحَشا خِلْتَ أنه
على سالِفِ الأيام لم يَبْقَ مُوصَبا(٣)

قال : فقد أحسن في قوله :

وما خُلِقَتْ إلاّ لِبَذْلٍ أكفُّهُمْ
وأقدامُهُمْ إلاّ لأعوادِ مِنبَر

قال : قد سرقه أيضاً ، قال : ممن ؟ قال : من مروان ابن أبي حفصة (٤) قال : حيث يقول ماذا ! قال حيث يقول :

---

(١) شوسة الفقعسي : لم أعرفه .

(٢) الوكاء : مايشد به رأس القربة .

(٣) الموصب : المريض .

(٤) مروان بن أبي حفصة : نشأ باليمامة في عصر بني أمية وأدرك زمناً من العهد العباسي . وهو شاعر عالي الطبقة . مدح الرشيد ومعن بن زائدة . (١٠٥ - ١٨٢ هـ) .

وما خُلِقَت إلا لبذلِ أكفُّهم
وألسُنُهم إلا لتحبير مَنطِقِ

فيوماً يُبارُونَ الرِّياحَ سَماحَةً
ويوماً لبذلِ الخاطبِ المتشدِّقِ

قال : فسكت الرَّاوية . ولو أتى بشعره كله لقال سرقه .

علَّة الرشيد : ولما اشتدَّت علَّةُ الرشيد وصار إلى طُوس سنة ثلاثٍ وتسعين ومائة هوَّن عليه الأطباءُ علَّته . فأرسل إلى متطبِّبٍ فارسي كان هناك فأراهُ ماءَه مع قواريرَ شتّى ،فلما انتهى إلى قارورته قال :عَرِّفوا صاحبَ هذا الماء أنه هالكٌ فلْيُوصِ ، فإنه لابُرْءَ له من هذه العلة ، فبكى الرشيد وجعل يردد هذين البيتين :

إن الطبيبَ بطبِّه ودوائه
لايستطيعُ دِفاعَ محذورِ القضا

ماللطبيبِ يموت بالداء الذي
قد كان يُبرىءُ مثله فيما مضى ؟

واشتد ضعفُه . وأرجفَ الناسُ بموته (١) فدعا بحمار ليركبَه ، فلما صار عليه سقطتْ فخذاه فلم يَثْبُتْ على السرج ، فقال : أنزلوني صدَقَ المرجفون ، ثم دعا بأكفانٍ فاختارَ منها ماأراد ، وأمرَ بحفر قبر ، فلما اطلع فيه قال : « (ماأغنَى عَنِّي مَالِيَه . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه) »(٢) ثم دعا بأخي رافع ، فقال : أزعجتموني حتى تجشَّمتُ هذه الأسفارَ مع علتي وضعفي ، وكان أخو رافع بن الليث (٣) ممن خَرَجَ عليه ، قال : لأقتلنَّك قتلة ما قُتِلَ مثلَها أحدٌ قبلَك ، ثم أمَرَ ففصِّل عُضواً عُضواً ، واستأمن رافعُ بعد ذلك على المأمون ؛ وقد ذكرنا خبرَه في غير هذا الكتاب ؛ ثم دعا من كان بعسكره من بني هاشم فقال : إن كلَّ مخلوقٍ ميتٌ ، وكلَّ جديدٍ بالٍ ، وقد نزل بي ماترَوْن .وأنا أوصيكم بثلاثٍ : الحفظِ لأمانتكم ، والنصيحةِ لأئمتكم ، واجتماع

---

(١) أي خاضوا فيه .

(٢) من سورة الحاقة الآية ٢٨ و ٢٩ .

(٣) هو رافع بن الليث بن نصر بن سيار : ثائر من بيت إمارة ورياسة . خلع طاعة الرشيد واستولى على سمرقند سنة ١٩٠ هـ . وتوجه إليه الرشيد فانهزم ، واختلف في مصيره . مات سنة ١٩٥ هـ .

كلمتكم ؛ وانظروا محمداً وعبد الله فمن بَغى منهما على صاحبه فردّوه عن بَغيه . وقبّحوا له بغيَه ونكّثه ، وأقطعَ في ذلك اليوم أموالاً كثيرة وضِياعاً ورِباعاً .

شعر لأبي العتاهية يبكي الرشيد: قال الرياشي (١) : قال الأصمعي : دخلتُ على الرشيد وهو ينظرُ في كتابٍ ودموعهُ تنحدر على خديه ؛ فظللت قائماً حتى سكنَ وحانَ منه التفاتةٌ فقال : اجلس يا أصمعي ، أرأيتَ ما كان ؟ قلت : نعم ياأمير المؤمنين ، قال : أما والله لو كان لأمرِ الدنيا مارأيت هذا ، ورمى بقرطاس فإذا فيه شعرٌ لأبي العتاهية بخطٍّ جليل ؛ وهو :

هل أنتَ مُعتبِرٌ بمن خَلِيَتْ
منه غداةَ مضى دساكرُهُ (٢)

---

(١) الرياشي : هو العباس بن الفرج بن علي الرياشي البصري ، من الموالي : لغوي، راوية، عارف بأيام العرب له تصانيف منها : كتاب : « الخيل » و « كتاب الإبل » روى عنه المبرد . قتل في أيام فتنة الزنج بالبصرة (١٧٧ - ٢٥٧ هـ) .

(٢) الدساكر : ج : دسكرة : القرية أو الصومعة .

وبمن أذل الموتُ مصرعَه
فتبرأت منه عشائرُهُ
وبمن خَلَتْ منه أسِرَّتُهُ
وبمن خلت منه منابِرُهُ
أين الملوكُ وأين غيرُهم ؟
صاروا مَصيراً أنتَ صائرُهُ
يامُؤثرَ الدنيا بلَذَّتِه
والمستعد لمن يفاخِرُهُ
نَلْ مابدا لك أن تنالَ من الد
نيا فإن الموتَ آخِرُهُ

ثم قال الرشيد : كأني والله أُخاطَبُ بذلك دونَ الناس ، فلم يلبثْ بعد ذلك إلا يسيراً حتى مات .

قال المسعودي : قد ذكرنا جملاً وجوامعَ من أخبار الرشيد فيما سلف من كتبنا ، وفي هذا الكتاب ، ولم نذكر فيما سلف من أخبار الرشيد في هذا الكتاب شيئاً من أخبار البرامكة ، فلنذكر الآن جملاً من أخبارهم في بابٍ نفرده

له ، نذكر فيه السعود من أيامهم والنحوس ، وإن كنا قد أتينا على سائر أخبارهم .والزُّهرِ من أيامهم فيما سلف من كتبنا ، والله ولي التوفيق .

ذكرُ جُمَلٍ من أخبار البرامكة ،وما كان منهم في أيامهم

أسماهم خالد بن بَرْمَك : لم يَبْلُغْ مَبْلَغَ خالد ابن برمك(١)أحدٌ منوَلَده فيجُودةِ رأيهِ وبأسهِ وجميعِ خلاله . لايحيى في رأيه ووفورِ عقله ،ولا الفضلُ في جُودِهِ وبراعته .ولا جعفرُ بنُ يحيىفي كتابتِهِ وفصاحته ، ولامحمدُ بن يحيى في سروره وبُعْدِ همته ، ولاموسى ابنُ يحيى في شجاعته وبأسهِ ، وفيمن ذكرنا يقول أبوالغول الشاعر (٢) :

أولادُ يحيى بنِ خالدٍ وَهُمُ
أربعةٌ سيدٌ ومتبوعُ

---

(١) خالد بن برمك : أبوالبرامكة ، وأول من تمكن منهم في دولة بني العباس . عمل في خدمة السفاح والمنصور والمهدي . وكان سخياً سرياً عاقلا . (٩٠ – ١٦٣ ﻫ) .

(٢) أبوالغول : لم أعرفه .

الخيرُ فيهم إذا سـألتَ بهــم
مُفَرَّقٌ فيهــم ومجمــوعُ

سبب نكبتهم : ولما أفضت الخلافةُ إلى الرشيد استوزرَ البرامكةَ ، فاحتازوا الأموالَ دونَه حتى كان يحتاجُ إلى اليسير من المالِ فلا يقدرُ عليه ، وكان إيقاعهُ بهم في سنة سبع وثمانين ومائة ، واختُلِفَ في سبب ذلك ، فقيل : احتيازُ الأموال ، وأنهم أطلقوا رجلاً من آل أبي طالب كان في أيديهم ، وقيل غيرُ ذلك ، والله أعلم .

الفضل بن يحيى يتشاغل بالصيد فيزجره أبوه بأمر الرشيد : ويحكى أنه وردَ على الرشيد يوماً كتابُ صاحب البريد بخراسان ، ويحيى بن خالد بين يديه ، يذكرُ فيه أن الفضلَ بنَ يحيى (١) يتشاغل بالصيد وإدمانِ اللذّات عن النّظَرِ في أمورِ الرعيّة ، فلما قرأه الرشيد رمى به

---

(١) الفضل بن يحيى : وزير الرشيد ، وأخوه في الرضاع ، ولاه خراسان إلى أن فتك الرشيد بالبرامكة . قال ابن الأثير : « كان الفضل من محاسن الدنيا لم ير في العالم مثله » . مات الفضل سجيناً بالرقة سنة ١٩٣ هـ .

ليحيى . وقال له : يا أبتِ اقرأ هذا الكتابَ . واكتب إليه كتاباً يردَعُه عن مثلِ هذا . فمدَّ يدَه إلى دواةِ الرشيد وكتب إلى الفضل على ظهْرِ كتابِ صاحبِ البريد : حفظَك الله يابني . وأمتعَ بك . قد انتهى إلى أمير المؤمنين ماأنتَ عليه من التشاغل بالصيد ومداومةِ اللذات عن النظر في أمورِ الرَّعية ماأنكره ؛ فعاودْ ماهو أزينُ بك . فإنه من عاد إلى مايَزينه ويَشينه لم يعرفْه أهلُ دهره إلا به . والسلام . وكتب في أسفله هذه الأبيات :

انصَبْ نهاراً في طِلاب العــلا
واصبر على فَقْدِ لقاءِ الحبيب

حتى إذا الليلُ بدا مقبلاً
واستترت فيه وجوهُ العيوب

فبادِرِ الليلَ بما تشتهي
فإنما الليلُ نهارُ الأريب

كم من فتىً تحسَبُهُ ناسكاً
يستقبل الليلَ بأمْرٍ عجيب

ألقى عليه الليلُ أستارَه
فباتَ في لهو وعيشٍ خصيب
ولذَّةُ الأحمقِ مكشوفةٌ
يسعى بها كلُّ عدوٍ رقيب

والرشيد ينظر إلى مايكتب يحيى فلما فرَغَ قال له : أبلغت ياأبتِ ، فلما ورد الكتابُ على الفضل لم يفارق المسجدَ نهاراً إلى أن انصرفَ عن عمله .

حديث لهم عن العشق : فقال علي بن هيثم وكان إماميَّ المذهب من المشهورين من متكلّمي الشيعة : أيها الوزير (١) : العشقُ ثمرةُ المشاكلة ، وهو دليلُ تمازج الروحين ، وهو من بحر اللّطافة ، ورِقّة الصَّنيعة ، وصفاءِ الجوهر ،وليس يُحَدُّ لِسَعَتِه ، والزِّيادةُ فيه نقصانٌ من الجسد .

وقال أبومالك الحَضْرَمي ، وهو خارجِيُّ المذْهَبِ وهم الشُّراة : أيها الوزيرُ ، العِشْقُ نَفْثُ السِّحر ،

(١) هو يحيى بن خالد البرمكي .

وهو أخفى وأحرّ من الجمر . ولايكون إلا بازدواج الطبعين وامتزاج الشّكلين ، وله نفوذٌ في القلب كنفوذ صَيِّب المُزْنِ في خَلَلِ الرمل . وهو مَلِكٌ على الخصال تَنْقادُ له العقول ، وتستكين له الآراء .

وقال الثالث : وهو محمد بن الهذيل العلاّف (١) : وكان معتزليّ المذهب،وشيخَ البصريين : أيها الوزيرُ ، العشقُ يختمُ على النواظر . ويطبعُ على الأفئدة ، مرتعه في الأجساد . ومسرعة في الأكباد . وصاحبُه متصرّفُ الظنون ، متغيِّرُ الأَوهام . لايصفو له موجود ، ولايسلم له موعود ، تُسرعُ إليه النوائب . وهو جُرْعةٌ من نقيع الموت ، وبقيّة من حياض الثُكل . غيرَ أنه من أريحية تكونُ في الطّبع . وطلاوةٍ تُوجَدُ في الشمائل . وصاحبه جَوَادٌ لايُصْغي إلى داعيةِ المنع ، ولا يَسْتَنِحُ به نازعُ العَذْل .

---

(١) أبوالهذيل : هو محمد بن الهذيل بن عبدالله : مولى عبد القيس من أئمة المعتزلة ، ولد في البصرة، واشتهر بعلم الكلام . له مقالات في الاعتزال ومجالس ومناظرات . توفي بسامراه .(١٣٥ - ٢٣٥ ه) .

وقال الرابع — وهو هشامُ بنَ الحَكَم (١) الكوفي شيخُ الإمامية في وقته وكبيرُ الصنعة في عصره — : أيها الوزير ، العشق حِبَالةٌ نصبها الدهرُ فلا يَصيدُ بها إلا أهلَ التخالص في النوائب ، فإذا عَلِقَ المحبُّ في شبكتها ونَشِبَ في أثنائها فأبعدْ به أن يقومَ سليماً ، أو يتخلَّصَ وَشيكاً ، ولا يكون إلا من اعتدالِ الصورة ، وتكافؤٍ في الطريقة ، وملاءمةٍ في الهمَّة ، له مَقْتَل في صميم الكبد ومهجة القلب ، يَعْقِدُ اللسان الفصيحَ ، ويترك المالكَ مملوكاً ، والسيِّدَ خَوَلاً حتى يخضعَ لعبدعبده .

وقال النظَّام إبراهيم بن سيَّار (٢) المعتزلي وكان من نُظَّار البصريين في عصره : أيها الوزيرُ العشقُ أرقُّ من السَّرابِ ، وأدبُّ من الشَّرابِ ، وهو من طينة

---

(١) هشام بن الحكم : كوفي من كبار أصحاب الإمام جعفر الصادق . برع في المناظرة والجدل . وهو من أوائل المؤلفين في الإسلام له عدة تصانيف منها : « الإمامة » و « القدر » . توفي بالكوفة سنة ١٩٠ هـ .

(٢) هو إبراهيم بن سيار : تلميذ أبي الهذيل . من متكلمي المعتزلة : شاعر ، منطقي ، ترك أثراً كبيراً في تاريخ الفكر الإسلامي . وهو معلم الجاحظ ، وإليه تنسب الفرقة النظامية . توفي سنة ٢٣١ هـ .

عَطِرة عُجِنت في إناء الجلالة ، حُلوُ المجتنَى ماقتصد . فإذا أفرط عاد خَبَلاً قاتلاً ، وفساداً مُعضِلاً ، ولايُطمَعُ في إصلاحه ، له سَحَابةٌ غزيرة تَهمي على القلوب ، فتُعْشِب شَعَفاً (١) ، وتُثمر كَلَفاً ؛ وصريعهُ دائمُ اللوعة ، ضَيِّقُ المتنفَّس ، مُشارفُ الزمن ، طويلُ الفِكْر ، إذا أجنحَه الليلُ أَرِقَ ، وإذا أوضَحَه النهارُ قَلِقَ ، صَوْمُه الباوى ، وإفطارُه الشكوى .

ثم قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومَنْ يليهم ، حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعانٍ تتقارب وتتناسب ، وفيما مرَّ دليلٌ عليه .

العشق وعلة وقوعه : قال المسعودي : تنازع الناس ممن تقدم وتأخر في ابتداء وقوع الهوى وكيفيته ، وهل ذلك من نظر وسماع ، واختيار واضطرار ، وما علة وقوعه بعد أن لم يكن ، وزواله بعد كونه ؟ وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه ؟

---

(١) شعفه الحب شعفاً : أحرق قلبه .

فقال بقراط (١) هو امتزاج النفسين ، كما لوامتزج الماء بماء مثله عسر تخليصه بحيلة من الاحتيال ، والنفس ألطف من الماء ، وأرقّ مساكاً ، فمن أجل ذلك لاتزيله الليالي ، ولا تُخالِقُه الدهور ،ولايدفعه دافع دق عن الأوهام مساكه ، وخفي عن الأبصارموضعه، وحارت العقول عن كيفية تمكنه غير أن ابتداء حركته من القلب ، ثم يسير إلى سائر الأعضاء ، فتظهر الرِّعْدة في الأطراف ، والصفرة في الألوان ، واللجلجة في الكلام ، والضعف في الرأي والويل والعثار حتى ينسب صاحبه إلى النقص .

وذهب بعض الأطباء إلى أن العشق طمعٌ يتولد في القلب وينمى وتجتمع إليه مواد من الحرص فإذا قوي زاد بصاحبه الاهتياج واللجاج والتمادي في التفكر والأماني والهَيمان والأحزان وضيق الصدر وكثرة الفكر وقلة الطُّعم وفساد العقل ويبس الدماغ ، وذلك أن التمادي في الطمع للدّم ِ محرق ، فإذا احترق استحال إلى السوداء ، فإذا قويت جابت الفكر فتستعلي الحرارة ، وتلتهب الصفراء ،

---

(١) بقراط : سبقت ترجمته .

ثم تستحيل الصفراء إلى الفساد فتلحق حينئذ بالسوداء ، وتصير مادة لها ، فتقوى ، ومن طبائع السوداء الفكر ، فإذا فسد الفكر اختلطت الكيموسات (١) بالفساد ، ومع الاختلاط تكون الفدامة ونقصان العقل ورجاء مالايكون ولايتم فحينئذ يشتد مابه ، فيموت أو يقتل نفسه ، وربما شهق فتخفى روحه أربعاً وعشرين ساعة فيظن أنه مات فيقبرونه حياً . وربما تنفس الصعداء فتخفى روحه في تامور قلبه (٢) ، وينضم القلب ولاينفرج حتى يموت ، وربما ارتاح وتشوق بالنظر ويرى من يحب فجأة ، وأنت ترى العاشق إذا سمع ذِكْر من يحب كيف يهرب دمه ويحول لونه .

وقال بعضهم : إن الله خلق كل روح مدورة على هيئة الكرة ، وجزّأها أنصافاً ، وجعل في كل جسد نصفاً ، فكلُّ جسدٍ لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه كان بينهما عِشْقٌ ضرورة للمناسبة القديمة ، وتفاوت أحوال الناس في ذلك من القوة والضعف على قدر طباعهم .

---

(١) الكيموسات : ج كيموس : وهي الأخلاط . (سريانية) .
(٢) تامور القلب : حبته ودمه . أو وعاؤه .

ولأهل هذه المقالة خَطْب طويل فيما ذكرنا ، وأن النفوس نُورِيَّةٌ جوهر بسيط نزل من عُلُوٍّ إلى هذه الأجساد فسكنها ، وأنّ النفوس تلي بعضاً على حَسَب مجاورتها في عالم النفس في القرب والبعد ، وذهب إلى هذا المذهب جماعة ممن يظهر الإسلام ، واعتلّوا بدلائل من القرآن والسنن ودلائل القياس عند أنفسهم . من ذلك قوله عزوجل : ((يأيتُّها النفسُ المطمئنَّةُ ارجعي إلى رَبِّكِ راضيةً مَرْضِيَّةً ، فادخُلِي في عِبادي وادخُلِي جنَّتي)) قالوا : فالرجوع إلى الحال لايكون إلا بعد كون متقدم ، ثم قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه سعيدُ بن أبي مريم قال : أخبرنا يَحيى بنْ سَعيدٍ عن عَمْرَةَ عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الأرواحُ جنودٌ مجنَّدَةٌ ، فما تَعارَفَ منها ائْتَلَفَ ، وما تناكَرَ منها اخْتَلَفَ » .

وذهب إلى هذا القول جماعة من الأعراب ، ففي ذلك يقول جميل بن عبد الله بن مَعْمَر العذري(1) في بُثَيْنَة :

---

(1) هو شاعر من عشاق العرب ، افتتن ببثينة فتناقل الناس أخبارهما . شعره رقيق ، وأكثره في النسيب والغزل والفخر . مات بمصر سنة ٨٢ هـ .

تعلّقَ روحي رُوحَهَا قبل خلــــقنا
ومن قبل ماكُنّا نِطَافاً ، وفي المهدِ

فزاد كما زدنا ، فأصبح ناميــــا
وليس وإن مُتْنَا بمنتقضِ العهدِ

ولكنه باقٍ على كل حــــــالةٍ
وزائرُنا في ظُلمةِ القَــبرِ واللّحْدِ

وقال جالينوس (١) : المحبة تقع بين العاقلين لتشاكلهما في العقل ، ولاتقع بين الأحمقين وإن كانا شكلين في الحمق ، لأن العقل يجري على ترتيبٍ فيجوز أن يتفق فيه اثنان على طريق واحدة ، والحمق لايجري على ترتيبٍ : ولايجوز أن يتفق فيه اثنان .

وقَسَّم بعض العرب الهوى فقال :

ثلاثة أحبَــابٍ فحبٌ علاقَــــةٌ
وحُبٌ تَمِلاّقٌ ، وحبٌ هو القتلُ

---

(١) جالينوس : سبقت ترجمته .

وقال الصوفية من البغداديين : إن الله عز وجل إنما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يَهْوَوْنَه ، ليشق عليهم سخطه ، ويسرُّهم رضاه ، فيستدلوا بذلك على قدر طاعة الله ؛ إذ كان لامثل له، ولا نظير وهو خالقهم غير محتاج إليهم، ورازقهم مبتدئاً بالمن عليهم، فإذا أوجبوا على أنفسهم طاعة سواه كان تعالى أحرى أن يتبع رضاه .

وللباطنية المتصوفة في هذا كلام كثير وخطب طويل .

وقال أفلاطون (١) : ماأدري ماالهوى ، غير أنه جنون إلهي ، والهوى لامحمود ولامذموم .

وكتب بعض ظرفاء الكُتَّاب إلى أخ له : إني صادفتُ منك جوهرَ نفسي ، فأنا غيرُ محمودٍ على الانقيادِ إليك بغير زمام ؛ لأن النفسَ يتبعُ بعضُها بعضاً .

وللناس ممن خلف وسلف من الفلاسفة والفلكيين والإسلاميين وغيرهم كلام كثير في العشق ، وقد أتينا على ذلك في كتابنا « أخبار الزمان ، ومن أباده الحدثان ،

---

(١) سبقت ترجمته .

من الأمم الماضية والأجيال الخالية . والممالك الداثرة »
وإنما خرجنا مما كنا فيه آنفاً من أخبار البرامكة عند ذكرنا
العشق ، فتغلغل بنا الكلام إلى إيراد لمع مما قيل في ذلك .

فنرجع الآن إلى ماكنا فيه من أخبارهم . واتِّساق
أيامهم . وانتظامها لهم بالسعود . ثم انعكاسها إلى النحوس .

وقُتِلَ جعفرُ بنُ يحيى وهو ابنُ خمسٍ وأربعين
سنة . وقيل : أقلّ من ذلك ، ومات يحيى بن خالد
بالرقة في سنة تسع وثمانين ومئة على ماقدمنا .

قال المسعودي : وللرشيد أخبارٌ حسان وسِيَر .
وقد قدمنا ذكرَها فيما سلف من كتبنا في ذكر أخبار
ملوك الروم بعد ظهور الإسلام ، وما كان بينه وبين
نقفور (١) فيما تقدم من هذا الكتاب ، وللبرامكة أخبار
حسان . وما كان منهم من الإفضال بالمعروف واصطناع
المكارم ، وغير ذلك من عجائب أخبارهم وسيرَهم
وما مدحتْهم الشعراءُ به ، ومراثيهم . وقد أتينا على جميع

---

(١) نقفور : أو نقفورس : أحد أباطرة بيزنطة . انتصر عليه الرشيد (٨٠٢ م – ٨١١ م) (١٨٤ – ١٩٥ هـ) .

ذلك في كتابينا « أخبار الزمان » والكتابِ الأوسط ، وإنما نورد في هذا الكتاب لُمعاً من الأخبارِ لم يتقدم لها إيرادٌ فيما تقدم من كتبنا ، وكذلك ذكرنا بدء أخبارهم قبل ظهور الإسلام وكونهم على بيت النوبهار ، وهو بيت النار ببَـلْخ المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب ، وعلة تسميته بَـرْمَـك ، وخبر برمك الأكبر مع ملوك الترك ، وخبرهم بعد ظهور الإسلام ، وما كان منهم في أيام بني أمية كهشام بن عبد الملك وغيره وما كان منهم في أيام المنصور ، واكتفينا بما ذكرناه في هذا الكتاب من هذه التلويحات من أخبارهم واللمع من آثارهم .

ذكر خلافة محمد الأمين

موجز : وبويع محمدُ بنُ هارونَ في اليوم الذي مات فيه هارونُ الرشيد ، وهو يوم السبت لأربع ليالٍ خلَـوْنَ من جُمادى الأُولى ، بِطوُس ، سنةَ ثلاث وتسعين ومئة ، وتقَـدَّمَ ببَـيْعتِـهِ رجاءُ الخادم ، وكانَ القيم ببَـيْعته الفضلُ بنُ الربيع (١) ، وكان محمد يُكَـنَّـى

(١) الفضل بن الربيع : هو صاحب المنصور العباسي ، ووزير الرشيد بعد نكبة البرامكة . أقره الأمين في الوزارة . ولما انتصر المأمون أهمله ، فمات بطوس سنة ٢٠٨ هـ .

بأبي موسى . وأمُّهُ زُبيدةُ بنةُ جعفر بن أبي جعفر بالرصافة ، وكان مولده بالرُّصافة . وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وستة أشهر وثلاثة عشر يوماً . ودُفنت جُثّتهُ ببغداد . وحُمِل رأسهُ إلى خراسان . وكانت خلافتهُ أربعَ سنين وستة أشهر ، وقيل تسعة أشهر . وقيل : ثمانية أشهُر وستة أيام ، على حسب ماوجدناه من اختلاف التواريخ وتباينها . وقيل : إن محمداً أفْضَت الخلافة إليه وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وسبعة أشهر وأحد وعشرين يوماً، وكان أصْغَرَ من المأمون بستة أشهر ، وكانت أيَّامُهُ في الحصار من خَلْعه إلى مَقْتَلِهِ سنةً ونِصْفاً وثلاثةَ عَشَرَ يوماً ، حُبِسَ فيها يومين .

ذكر جُمَلٍ من أخباره وسِيَره ولُمَعٍ مما كان في أيامه

كيف جاءه خبر الولاية : قُبِضَ الرشيدُ والمأمونُ بمرو (١) وبعثَ صالح بن الرشيد رجاء الخادم مولى محمد الأمين ، إلى محمد ، فأتاه بالخبر في اثني عشر

(١) هي مرو الشاهجان ، وتسمى مرو العظمى : أشهر مدن خراسان ، وهي قصبتها ، والنسبة إليها مروزي على غير قياس .

يوماً إلى مدينة السلام يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة .

عزم الأمين على خلع أخيه : ولما هَمَّ محمد بخلع المأمون شاور عبدَ الله بن حازم ، فقال له : أنشدك الله ياأمير المؤمنين ألا تكون أول الخلفاء نكث عهدَه ، ونقضَ ميثاقَه ، واستخفَّ بيمينه ، فقال : اسكتْ أسكتَ الله فاك ؛ فعبدُ الملك بن صالح كان أفضلَ منك رأياً حيثُ يقول : لايجتمعُ فحلان في هجمة ، وجمع القوَّادَ وشاورهم فاتَّبَعوه في مُراده إلى أن بلغَ إلى هرثمةَ ابنِ حازم فقال : ياأميرَ المؤمنين ، لن ينصحَكَ من كَذَبَكَ : ولن يَغُشَّك من صَدَقَك ، لاتُجرِّىء القُوّادَ على الخلعِ فيخلعوك ، ولاتَحمِلْهم على نَكْثِ العهد فينكثوا عهدَك وبَيْعَتَك ، فإن الغادرَ مخذولٌ ، والناكثَ مَغْلول ، ودَخَلَ عليٌّ بن عيسى بن ماهان (١) ، فتبَسَّمَ محمدٌ وقال : لكن شيخَ هذه الدعوة ،

(١) ابن ماهان : من كبار قادة الرشيد والمأمون . سيره الأمين لقتال المأمون فتلقاه طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون بالري ، فقتل ابن ماهان وهزم أصحابه . وذلك سنة ١٩٥ هـ .

وبابَ هذه الدولة ، لايخالف إمامتَه ، ولا يُوهنُ طاعتَه ، ثم رفعه إلى موضعٍ مارفعه إليه فيما مضى . فكان عليُّ ابنُ عيسى أوّلَ من أجاب إلى خلْعِ المأمون .

صفات الأمين : وكان محمد في نهاية الشدّة والقوّة والبطْشِ والبهاءِ والجمال ، إلاّ أنّه كانَ عاجزَ الرأي ، ضعيفَ التدبير ، غيرَ مفكر في أمره .

وحُكي أنه اصطبح (١) يوماً ، وقد كان قد خرج أصحاب اللبابيد والدراب على البغال — وهم الذين كانوا يصطادون السباع — إلى سَبُعٍ كان بلغهم خبرهُ بناحية كُوثَى والقصر (٢) ، فاحتالوا في السبع إلى أن أتوا به في قفص من خشب على جمل بُخْتِي (٣) ، فحُط بباب القصر وأُدخِل ، فمَثَل في صحن القصر والأمين مصطبحٌ ، فقال : خلّوا عنه وشيلوا بابَ القفصِ ، فقيل له : ياأميرَ المؤمنين إنه سبعٌ هائلٌ أسودُ وحش ، فقال : خلّوا

(١) اصطبح : شرب صبوحاً .

(٢) كوثى والقصر : بسواد العراق .

(٣) جمل بختي : من الجمال الخرسانية .

عنه ، فشالوا بابَ القفص ، فخرج سبعٌ أسودُ له شعر عظيم مثل الثور ، فزأر وضربَ بذنبه إلى الأرض فتهاربَ الناسُ ، وغُلِّقتِ الأبوابُ في وجهه ، وبقي الأمين وحدَهُ جالساً في موضعه غيرَ مكترث بالأسد ، فقصدَه الأسدُ حتى دنا منه ، فضرب الأمين بيده إلى مِرفقة (١) أرمنية ، فامتنع منه بها ، ومدَّ السبعُ يدَهُ إليه ، فجذبها الأمين وقبض على أَصْل أذُنيه ، وغمزه ثم هزَّه أو دفعَ به إلى خَلْف فوقع السبعُ مَيْتاً على مؤخَّره ، وتبادرَ الناسُ الأمينَ فإذا أصابعهُ ومفاصلُ يديه قد زالت عن مواضعها ، فأُتيَ بمُجَبِّرٍ فردَّ عظامَ أصابعه إلى مواضعها ، وجلس كأنه لم يعملْ شيئاً ، فشقوا بطن الأسد فإذا مَرارتُه قد انشقَّت عن كبده .

نبوءة بخلع الأمين : وحُكِيَ أنَّ المنصورَ جلس ذاتَ يوم ودخل إليه بنو هاشم من أهله ؛ فقال لهم وهو مستبشر : أما علمتم أن محمداً المهدي وُلِدَ البارحة له ولدٌ ذكرٌ وقد سميناه موسى ؟ فلما سمع القوم ذلك وجموا

---

(١) المرفقة : المخدة .

وكنا حثيّا في وجوههم الرّماد . وسكتوا ولم يُحيروا جَواباً . فنظر إليهم المنصورُ فقال لهم : هذا موضعُ دعاءٍ وتهنئة ، وأراكم قد سكتّم ثم استرجع . فقال لهم كأني بكم لما أخبرتُكم بتسميتي إياه موسى اغتممتم به ، لأن المولودَ المسمى بموسى بن محمد هو الذي على رأسه تختلف الكلمةُ وتُسفَكُ الدماء وتُنتَهَبُ الخزائنُ ، ويضطربُ المُلْكُ ، ويُقتل أبوه . وهو المخلوع من الخلافة ؛ ليس هوَ ذا . لا . ولا هذا زمانهُ ؛ والله إن جَدّ هذا المولود — يعني هرون الرشيد — لم يولد بعد قال : فدَعوا له وهنّوه وهنّوا المهدي ، وكان هذا موسى الهادي أخا الرشيد .

وكان العهدُ الذي كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون وأودعه الكعبة أن الغادرَ منهما خارجٌ من الأمر ، أيهما غدَرَ بصاحبه ، والخلافةُ للمغدور به .

وذكر ياسرٌ خادمُ أم جعفر ، وكان من خوَاصّها ، أنه لما أحيط بمحمد دخلت عليه أم جعفر باكية ، فقال لها :

مه ، إنه ليس بجزع النساء وهاعهن عُقِدَتْ التيجان :
وللخلافة سياسة لاتَسَعُها صدورُ المراضع ، وراءك
وراءك .

ويقال : إن محمداً قَصَفَ (١) عند طاهر (٢) :
فبينا طاهر في بستانه إذ ورد كتابٌ من محمد بخطه ، فإذا
فيه « بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرّحيم ، اعلَمْ أنّهُ ماقامَ
لنا مُذْ قمنا قائمٌ بحقنا وكان جزاؤه منا إلا السّيف ،
فانظر لنفسك أو دع » قال : فلم يزل والله يتبين موقعَ
الكتاب من طاهر ؛ فلما رجع إلى خراسان أخرجه إلى
خاصته ، وقال لهم : والله ماهذا كتابُ مَضْعوفٍ ،
ولكنه كتابُ مَخْذول .

ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء إلى وقتنا هذا — وهو
سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة — مَنْ أبوه وأمه من بني

---

(١) قصف : من القصف : وهو اللهو .

(٢) هو طاهر بن الحسين : من كبار قادة المأمون . قضى على ثورة الخوارج بخراسان ، واستقل بأمره بعد ذلك . قاد الحملة ضد الأمين وقضى عليه . توفي سنة ٢٠٧ هـ .

هاشم ، إلا عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ومحمد ابن زُبَيْدَة .

وفي محمد بن زُبَيْدَة يقول أبو الغول :

مالك أبوه وأمُّهُ من نَبْعَةٍ
منها سِرَاجُ الأمة الوهّاجْ

شَرِبَتْ بمكة من ذُرى بطحائها
ماءَ النبوة ليس فيه مِزاجُ

وفي سنة أربع وتسعين ومئة كان ابتداؤه بالغدر بالمأمون .

فلما ضاقَ الأمرُ بالأمين في أرزاق الجند ضَربَ آنيةَ الذهب والفضة سراً (١)، وأعطى رجالَه ، وتحيز إلى طاهر الحربية (٢) وغيرها من الأرباض(٣) مما يلي

---

(١) ضرب آنية الذهب والفضة : سكبها .

(٢) الحربية : محلة كبيرة ببغداد .

(٣) أرباض المدينة : ج ربض : ماحولها .

بابَ الأنبار ، وبابَ حَرْب ، وباب قُطْرَبُّل (١) ، فصارت الحرب في وسط الجانب الغربي ، وعُملت المنجنيقات بين الفريقين .وكَثُرَ الحريقُ والهَدْمُ ببغداد والكرخ وغيره من الجانبين ، حتى دَرَسَتْ محاسنُها ، واشتد الأمْرُ ، وتنقّلَ الناسُ من موضع إلى موضع ، وعمّ الخوفُ ، فقال الشاعر :

من ذا أصابك يــــابغدادُ بالعــين
ألم تكوني زماناً قُرَّةَ العــــين ؟
ألم يكنْ فيكِ قومٌ كان قُربهـــمُ
وكان مسكنُهم زيناً من الــزين ؟
صاح الزمان بهم بالبَــيْنِ فانقرضوا
ماذا لقيتِ بهم من لَوْعةِ البَين ؟
أستودعُ الله قوماً ماذ كرتهــــــم
إلا تحدَّر ماءُ الدمعِ من عيني

---

(١) باب حرب : ينسب إلى حرب بن عبدالله البلخي أحد قادة المنصور . وباب قطربل : ينسب إلى قرية قريبة من بغداد . وقيل : قطربل : اسم كورة من كور بغداد ينسب إليها الخمر .

كانوا ففرَّقهم دَهْرٌ وصدَّعهم
والدهرُ يصدَعُ مابين الفريقين

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين أربعة عشر شهراً ، وضاقت بغداد بأهلها ، وتعطلت المساجد ، وتُرِكت الصلاة ، ونزل بها مالم يَنزِلْ بها قَطُّ مثلهُ ، مذ بناها أبوجعفر المنصور .

من الوقائع الحاسمة : وثارت العُراة ذاتَ يومٍ في نحو مائة ألف بالرِّماح والقصب والطرَّادات من القراطيس على رؤوسها ، ونفخوا في بوقات القصب وقرونِ البقر ، ونهضوا مع غيرهم من المحمدية (١) ، وزحفوا من مواضع كثيرة نحو المأمونية (٢) ، فبعث إليهم طاهر بعدة قواد وأمراء من وجوه كثيرة ، فاشتد الجلاد ، وكثر القتل ، وكان للعُراة على المأمونية إلى الظهر ، وكان يوم الاثنين ، ثم ثارت المأمونية على العُراة من أصحاب

(١) المحمدية : أتباع محمد الأمين .
(٢) المأمونية : أتباع عبدالله المأمون .

محمد ؛ فغرقَ منهم وقُتِلَ وأُحرِقَ نحوُ عشرة آلاف ، وفي ذلك يقول الشاعر الأعمى (١) :

بالأمــير الطاهرِ بن الحســين
صبّحــونا صبيحــةَ الإِثنين
جمعوا جَمعَهم فثــار إليهم
كلُّ صُلْب القناةِ والســاعدين
ياقتيــل العُراة مُلْــقىً على الشــ
طِّ تطــاه الخيولُ في الجــانبين
ماالذي كان في يديك إذا ما اصـ
طلح الناسُ أية الحَلْــقتينْ
أوزيرٌ أم قائدٌ ، بل بعــيدٌ
أنتَ من ذين موضعُ الفرْقــدين
كم بَصــيرٍ غــدا بعينين كي ينـ
ظرَ مــاحالُهم فــراحَ بعــين

---

(١) الشاعر الأعمى : لم أعرفه .

ليس يُخطئون مَايريدون مـــاإنْ
يقصدوا منهمُ ســوى الناظرَين

واشتد الأمر بمحمد المخلوع ، فباع مافي خزائنه سراً ، وفَرّق ذلك أرزاقاً فيمن معه ، ولم يبقَ معه مايُعطيهم ، وكثُرت مطالبتُهم إياه ، وضَيّق عليه طاهرٌ ، وكان نازلاً بباب الأنبار في بستانٍ هنالك ، فقال محمد : وَددْتُ أن الله قَتَلَ الفريقين جميعاً ؛ فما منهم إلا عدوٌ : مَنْ معي ومَن عليّ ؛ أما هؤلاء فيريدون آمالي ، وأما أولئك فيريدون نفسي ، وقال :

تفرّقـــوا ودَعوني يـامعشرَ الأَعـوان
فكلُّكـم ذو وجـوهٍ كثـــيرةِ الألـوان
وما أرى غيرَ إفْــاك وتُرّهــات الأمـاني
ولســت أملك شـيئاً فســـائلوا إخواني
فالويلُ فيمـا دهـاني من نـازلِ البسـتان

يعني طاهرَ بنَ الحسين .

ولما اشتد الأمرُ عليه وجدّ به، ونزل هَرثَمةُ بنُ

أعين (١) بالجانب الشرقي ، وطاهر بالجانب الغربي ، وبقي محمد في مدينة أبي جعفر ، شاور من حضره من خواصه في النجاة بنفسه ؛ فكل أدلى برأي ، وأشار بوجه ؛ فقال قائل منهم : تكاتب ابن الحسين ، وتحالف له بما يثق به أنك مفوض أمرك إليه ، لعله أن يجيبك إلى ماتريد منه ، فقال : ثكلتك أمك ! لقد أخطأت الرأي في طلبي المشورة منك ، أما رأيت ثأر رجل لايؤول إلى عذر ؟ وهل كان المأمون لو اجتهد لنفسه وتولى الأمر برأيه بالغاً عشر مابلغه له طاهر ؟ ولقد دسست وفحصت عن رأيه ؛ فما رأيته يطلب إلا تأثيل المكارم ، وبعد الصيت ، والوفاء ، فكيف أطمع في استذلاله بالأموال ، وفي غدره والاعتماد في عقاه ؟ ولو قد أجاب إلى طاعتي وانصرف إلي ، ثم ناصبني جميع الترك والديلم مااهتممت

---

(١) هرثمة بن أعين : أمير من القادة الكبار في زمن الرشيد . ولاه مصر ثم وجهه إلى إفريقية لإخضاع عصاتها . كما ولاه خراسان فيما بعد . انحاز في الفتنة إلى جانب المأمون . وقتل في حبسه بمرو نحو ٢٠٠هـ.

بمناصبتهم ، ولكنتُ كما قال أبوالأسود الدؤلي (١) في الأزد عند إجارتها زيادَ بنَ أبيه :

فلما رآهم يطلبون وزيرَه
وساروا إليه بعدَ طولِ تمادِ
أتى الأزْدَ إذ خاف التي لابقَا لها
عليه ، وكان الرأيُ رأيَ زيادِ
فقالوا له : أهلاً وسهلاً ومرْحبا
أصبْتَ فكاشِفْ من أردتَ وعادِ
فأصبح لايخشى من الناس كلَّهم
عدواً ولو مالوا بقوة عادِ

والله لَوددْتُ أنه أجابني إلى ذلك فأبحته خزائني . وفوضْتُ إليه مُلكي ، ورضيتُ بالمعاش تحتَ يديه ، ولا أظنني مُفْلِتَهُ ، ولو كانت لي ألفُ نَفْس . فقال السندي : صدقتَ والله ياأميرَ المؤمنين ،

---

(١) أبوالأسود الدؤلي : شاعر من أنصار علي بن أبي طالب . شهد معه صفين ، وإليه تنسب أصول النحو العربي . توفي نحو ٦٧ ﻫ .

ولو أتاك أبوه الحسينُ بنُ مُصعبٍ ماااستبقاك . فقال محمد : وكيف لنا بالخلاص إلى هَرْثَمة ولاتَ حين مناص ! وراسل هرثمة ، ومال إلى جَنْبَتِه (١) ، فوعده هرثمة بكل ماأحب ، وأنه يمنعه ممن يريد قتاله ؛ وبلغ ذلك طاهراً ، فاشتد عليه وزاد غيظُه وحنقُه ، ووعده هرثمة أن يأتيه في حَرَّاقة (٢) إلى مَشْرَعة بابِ خُراسان فيصير به إلى عسكره هو ومن أحبَّ ، فلما همَّ محمد بالخروج في تلك الليلة — وهي ليلةُ الخميس ، لخمس ليال بَقِينَ من المحرم سنةَ ثمانٍ وتسعين ومائة — دخل إليه الصعاليكُ من أصحابه ، وهم فتيانُ الأَبْناءِ (٣) والجُنْدِ ، فقالوا له : ياأميرَ المؤمنين ، ليس معك من ينصحُك ، ونحن سبعةُ آلافِ رجلٍ مقاتلة ، وفي إصطبلك سبعةُ آلافِ فَرَسٍ يُحمَلُ كلٌّ منا على فرس ونفتح بعضَ أبواب المدينة ، ونخرجُ في هذه الليلة ، فما يُقْدِمُ علينا أحدٌ إلى أن نصيرَ إلى بلادِ الجزيرة وديارِ ربيعة ، فنَجبي

---

(١) أي مال إلى ناحيته .

(٢) الحراقة : سفينة فيها مرامي نيران تستخدم في قتال البحر .

(٣) الأبناء : قوم من العجم سكنوا اليمن .

الأموالَ . ونجمعُ الرجالَ . ونتوسّطُ الشامَ وندخل مصرَ ، ويَكثُرُ الجيوشُ والمالُ . وتعودُ الدولةُ مقبلةً جديدةً ، فقال هذا : والله الرأيُ ، فعزم على ذلك وهَمَّ به وجَنَحَ إليه . وكان لطاهر في جَوْفِ دار الأمين غِلمانٌ وَخَدَمٌ من خاصّة الأمين يبعثون إليه بالأخبار ساعةً فساعةً ، فخرج الخبرُ إلى طاهرٍ من وقته ، فخاف طاهرُ،وعَلِم أنه الرأيُ إن فَعَلَهُ ، فبعث إلى سليمانَ ابنِ أبي جعفر وإلى ابن نَهيك والسندي بن شاهك (١) — وكانوا مع الأمين — إن لم تُزيلوه عن هذا الرأي لأخربَنَّ ديارَكم وضياعَكم ولأُزيلَنَّ نِعَمَكم ولأُتلفَنَّ نفوسَكم ، فدخلوا على الأمين في ليلتهم ، فأزالوه عن ذلك الرأي ، وأتاه هَرثَمةُ في الحرّاقة إلى باب خراسانَ ، ودعا الأمينُ بفرسٍ يقال له الزهَيْريّ ، أغرَّ محجَلٍ أدهَمَ محذوفٍ (٢) ، ودعا الأمين بابنيه موسى وعبدِ الله فعانقَهما وشَمَّهما وبكى ، وقال : اللهُ خليفتي عليكما فاستُ

---

(١) سليمان بن أبي جعفر ، وابن نهيك ، والسندي : من قادة الأمين ومستشاريه .

(٢) فرس محذوف : أي مقوص الذنب .

أدري أألتقي مَعَكما بعدَها أو لا ؛ وعليه ثيابٌ بيضٌ وطَيْلَسانٌ أسودُ ، وقُدّامَه شمعةٌ ، حتى أتى باب خُراسان إلى المشرعة والحرّاقة نائمة فنزلَ ودخل الحرّاقة ، فقبّل هَرْثمةَ بين عينيه ؛ وقد كان طاهر نُمِيَ إليه خروجه فبعثَ بالرجال من الهروية (١) وغيرهم والملاّحين في الزوارق على الشطّ ، فدُفِعت الحرّاقةُ ، ولم يكن مع هرثمة عدةٌ من رجاله ، فأتى أصحابُ طاهر عُرَاةً فغاصوا تحتَ الحراقة فانقلبت بمن فيها ، فلم يكن لهرثمة شاغلٌ إلا أنْ نجا بحُشاشةِ نَفْسِهِ ، فتعلّقَ بزورقٍ وصَعِدَ إليه من الماء ومضى إلى عسكره من الجانب الشرقي ، وشقّ محمدٌ ثيابَه عن نفسه ، وسبَحَ فوقع نحو السراة إلى عسكر قريبٍ الديراني غلامِ طاهرٍ فأخذَه بعضُ السُّواسِ حينَ شمَّ منه رائحةَ المسكِ والطيب ، فأتى به قريناً فاستأذن فيه طاهراً ، فأتاه الإذن في الطريق وقد حُمِلَ إلى طاهر فقُتِل في الطريق وهو يصيحُ : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الهروية : نسبة إلى هراة من أمهات مدن خراسان . وهراة أيضاً : مدينة بفارس قرب إصطخر (ياقوت) ٥ : ٣٩٦ .

وسلم ، وأخو المأمون ، والسيوفُ تأخذه حتى بَرَد ، وأخذوا رأسه ، وكانت ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

ولما وُضِعَ رأسُ الأمين بين يدَيْ طاهر قال : اللهم مالك الملك ، تؤتي المُلْكَ من تشاء ، وتنزِع الملك ممن تشاء ، وتعزُّ من تشاء ، وتُذِلُّ من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير . وحُمِل الرأسُ إلى خراسان إلى المأمون في منديل والقطنُ عليه والأطليةُ ، فاسترجَعَ المأمونُ وبكى واشتدَّ تأسُّفهُ عليه ؛ فقال له الفضلُ بنُ سهل (١) : الحمدُ لله ياأمير المؤمنين على هذه النعمة الجليلة ، فإنَّ محمداً كان يتمنى أن يراك بحيثُ رأيتَه ، فأمر المأمون بنصبِ الرأس في صَحْن الدار على خشبة ، وأعطى الجندَ ، وأمرَ كلَّ من قبض رِزْقَه أنْ يلعنَه ، فكان الرجلُ يقبضُ ويلعنُ الرأسَ ، فقَبَضَ بعضُ

(١) الفضل بن سهل السرخسي : وزير المأمون وصاحب تدبيره . كان مجوسياً فأسلم على يد المأمون . ولما ولي الخلافة أسند إليه الوزارة وقيادة الجيش ، فكان يلقب بذي الرياستين . وقيل : إن المأمون دس له من قتله في الحمام . (١٥٤ - ٢٠٢) .

العجم عطاءَه فقيل له : العنْ هذا الرأسَ ، فقال : لعن الله هذا ولعن والدَيْه ، وما وَلَدا وأَدْخَلَهم في كذا وكذا من أمهاتهم ، فقيلَ له : لعنتَ أميرَ المؤمنين ، وذلك بحيثُ يَسْمَعُهُ المأمونُ منه فتبسَّم وتغافلَ ، وأمرَ بحطِّ الرأسِ ، وتَرْكِ ذلك المخاوع ، وطَيَّب الرأسَ وجَعَلَه في سَفَط ، وردَّه إلى العراق فَدُفِنَ مع جُثَّتِهِ ، ورَحِمَ الله أهلَ بغدادَ وخلَّصهم مما كانوا فيه من الحصار والجزع والقَتْل .

قال المسعودي : وللمخلوع أخْبارٌ وسِيَرٌ غيرُ ماذكرنا قد أتينا عليها في كتابينا في « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن ذكرها في هذا الكتاب ، والله — سبحانه — ولي التوفيق .

ذكر خلافة المأمون

موجز : وبُويع المأمونُ عبدُ الله بن هارون ، وكُنْيَتهُ أبوجعفر ، وأُمُّه باذَغيسيَّة(١) ، واسمُها

---

(١) باذغيسية : نسبة إلى باذغيس : ناحية من أعمال هراة .

مراحل . وقيل : إنَّ كنيتَه أبوالعباس . وهو ابنُ ثمانٍ وعشرين سنة وشهرين ، وتوفي بالبديدون على عين القشيرة (١) ، وهي عينٌ يخرج منها النهر المعروف بالبديدون ، وقيل : إن اسمها بالرومية أيضاً رَقّة ، وحُمِل إلى طَرَسُوسَ (٢) ، فدُفِنَ بها على يَسارِ المسجد ، سنة ثماني عشرة ومائتين ، وهو ابن تسعٍ وأربعين سنة ، فكانت خلافته إحدى وعشرين سنةً ، منها أربعةَ عَشَرَ شهراً كان يحارِبُ أخاه محمداً بنَ زُبيدَةَ على ماذكرنا ، وقيل : سنتان وخمسةُ أشهرٍ . وكان أهلُ خُراسان في تلك الحروب يسلِّمون عليه بالخلافة ، ويُدْعَى له على المنابر في الأمصار والحرمين والكُوَرِ والسَّهْلِ والجبل مما حواه طاهرٌ وغَابَ عليه ، ويُسلِّم على محمدٍ بالخلافة مَنْ كان ببغدادَ خاصَّةً لاغيرها .

---

(١) كذا وردت وسترد ص ١١٩ و ١٢٠ و ١٢٣ و ١٢٥ كذلك ولكن صوابها : البذندون . قال ياقوت : بذندون : قرية بينها وبين طرسوس يوم ، من بلاد الثغر مات بها المأمون ودفن بها . معجم البلدان ج ١ (٣٦١ – ٣٦٢). وهي اليوم (بذنتي) في تركيا - منطقة كيليكيا.

(٢) طرسوس : مدينة بثغور الشام . بينها وبين أذنة ستة فراسخ . وهي في الأراضي التركية .

ذكر جمل من أخباره وسيره ، ولمع مما كان في أيامه

المأمون والفضل بن سهل: وغاضب على المأمون الفضلُ ابنُ سهل : حتى ضايقَهُ في جاريةٍ أرادَ شراءَها ، فقتلَها ، وادعى قومٌ أن المأمون دسَّ عليه من قتلَه ، ثم سلم عليه الوزراء بعد ذلك : منهم أحمدُ بن خالد الأحول ، وعمرو بن مسعدة (١) ، وأبوعبادة ، وكلُّ هؤلاء سُلِّم عليهم برسم الوزارة .

المأمون وأبو دُلَف : ودخل أبو دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلي (٢) على المأمون ، فقال له : ياقاسم ، ماأحسنُ أبياتك في صِفَةِ الحرب ، ولذاذاتك بها ، وزُهدِك في المغنيّات ؟ قال : ياأمير المؤمنين أيُّ أبيات هي ؟ قال : قولك :

---

(١) عمرو بن مسعدة : من أبرز كتاب الإيجاز . في كتب الأدب كثير من رسائله وتوقيعاته . توفي سنة ٢١٧ هـ .

(٢) قائد شجاع ، أديب وشاعر ، من رجال الدولة العباسية . تولى إمرة الكرج وكان سيداً جواداً ممدحاً يجيد فن الغناء . توفي سنة ٢٢٦ هـ .

لسَل السيوفِ وشَقّ الصفوف
ونفضُ الترابِ وضربُ القُلَل

قال : ثم ماذا ياقاسم ؟ قال :

ولُبْسُ العَجاجةِ والخافقاتُ
تُريكَ المنايا بروسِ الأَسَل
وقد كشفَتْ عن شَبا نابِها
عروسُ المنيّةِ بينَ الشعَل
وجاءت تَهادى وأبناؤها
كأنّ عليهم شروقُ الطَّفَلْ (١)
خَروسٌ نَطوقٌ إذا استُنطِقت
جهولٌ يطيش على من جهل
إذا خُطِبَتْ أخَذت مَهْرَها
رؤوساً تساقَطُ بينَ القلل (٢)

---

(١) شروق الطفل : بعيد شروق الشمس .
(٢) القلل : ج قلة : الرأس .

ألـذُّ وأشهى من المُسْمِعـات
وشُرْبِ المُدامةِ في يومِ طَلّ (١)

أنا ابن الحسام ، وتِرْبُ الصِّفـاح ،
ورَيْبُ المنون ، وقربُ الأَجـل

ثم قال : ياأميرَ المؤمنين ، هذه لذّتي مع أعدائك ، وقوّتي مع أوليائك ، ويدي معك ، ولئن استلذّ مُسْتَلِذٌ شيئاً من المعاقرة مِلتُ إلى المصادَمَةِ والمحاربة ، قال : ياقاسم ، إذا كان هذا النمطُ من الأشعار شأنَك واللذةُ لذّتَك ، فماذا تركتَ للوسْنَانِ مما خلّفْتَ ، وأظهرتَ لهُ من قليلِ ماسترت ؟ قال : ياأميرَ المؤمنين ، وأيُّ أشعاري ؟ قال : حيثُ تقول :

أيها الرّاقدُ المؤرِّقُ عيني
نَمْ ، هنيئاً لك الرقـادُ اللذيذُ

علِمَ اللهُ أن قلبيَ ممـا
قد جَنَيْتَ مُقْلتـاك فيه وقيذُ (٢)

---

(١) الطل : أضعف المطر .
(٢) الوقيذ : المقتول .

قال : ياأميرَ المؤمنين ، سَهْوةٌ بعد سَهْرةٍ غابتْ ، وذلك قسمٌ متقدّم وهذا ظنٌ متأخّر ، قال : ياقاسم ، ماأحسنَ ماقال صاحبُ هذين البيتين :

أذمُّ لك الأيامَ في ذاتِ بيننـــا
وما لليـالي في الذي بيننا عُذْرُ
إذا لم يكنْ بينَ المحبينَ زَوْرَةٌ
سوى ذكرِ شيءٍ قد مضى دَرَسَ الفِكْرُ

فقال أبودلف : ماأحْسَنَ ماقال ياأمير المؤمنين ! ! هذا السيّدُ الهاشمي والملكُ العباسي ، قال : وكيف أدرَكَتك الفطْنَةُ ، ولم تداخلْك الظِنّة ، حتى تحقّقت أني صاحبهما ، ولم يُداخلْك الشكُّ فيهما ، قال : ياأميرَ المؤمنين ، إنما الشعرُ بساطُ صوف ، فمن خالَط الشَعْرَ بنقيِّ الصنوف ظهر رونقهُ عندَ التصنيف ، ونارُ ضوئه عندَ التأليف .

من كلمات المأمون : وكان المأمونُ يقولُ ، يُغتَفَرُ كلُّ شيءٍ إلا القَدْحَ في المُلْكِ ، وإفشاءَ السرِّ ، والتعرُّضَ للحُرَمِ .

وقال المأمون : أخِّرِ الحربَ ماستطعتَ ، فإن لم تَجِدْ منها بُدّاً فاجعلها في آخر النهار .

وذُكِرَ أنّه من كلامِ أنوشروان .

وكان المأمون يقول : أعيَتِ الحياةُ في الأمر إذا أقبلَ أنْ يُدْبِرَ ، وإذا أدْبَرَ أن يُقْبِلَ .

ولما تأتّى المُلْكُ للمأمونِ وخَلَصَ قال : هذا جَسيمٌ لولا أنه عَديم ، وهذا مُلْكٌ لولا أنه بعدَهُ هُلْك ، وهذا سُرورٌ لولا أنه غرورٌ ، وهذا يومٌ لو كان يوثق بها بعدَه .

وكان المأمون يقول : البِشْرُ مَنظرٌ مُونِق ، وخُلُقٌ مُشْرِق ، وزارعٌ للقلوب ، ومَحلٌّ مألوف ، وفَضْلٌ مُنتَشِر ، وثناءٌ بَسيط ، وتُحَفٌ للأحرار ، وذَرْعٌ رحيب ، وأوّلُ الحسنات ، وذَريعةٌ إلى الجاه ، وأجْمَدُ للشّيم ، وبابٌ لرضى العامّةِ ، ومِفتاحٌ لمحبّةِ القلوب .

المأمون ورجل يدعي النبوة : وادّعَى رجلٌ النُّبُوّةَ بالبصرة أيامَ المأمون ، فحُمِلَ إليه مُوثَقاً بالحديد ، فَمَثَلَ بين يديه ، فقال له : أنت نبيٌّ مرسل ؟

قال : أما الساعةَ فأنا مُوثَقٌ ، قال : ويلَكَ ! ! مَنْ غَرَّك ؟ قال : أبهذا تُخاطَبُ الأنبياءُ ؟ أما والله لولا أنِّي مُوثَقٌ لأمرتُ جبريلَ أن يُدَمْدِمها (١) عليكم ؟ قال له المأمون : والموثَقُ لاتُجابُ له دَعْوة ؟ قال : الأنبياءُ خاصةً إذا قُيِّدَتْ لايرتفعُ دُعاؤها ، فضَحِكَ المأمون ، وقال : من قَيَّدك ؟ قال : هذا الذي بين يديك ، قال : فنحنُ نطلقُكَ وتأمرُ جبريلَ أن يدَمْدِمَها ، فإن أطاعَكَ آمنَّا بك وصدَّقناك ، فقال : صدق الله إذ يقول : «(فلا يؤمنوا حتى يَرَوْا العذابَ الأَليم)» إن شئتَ فافعلْ . فأمرَ باطلاقه فلمَّا وَجَدَ راحةَ العافية ، قال : ياجبريلُ . ومدَّ بها صوتَهُ ، ابعثوا من شِئْتُم فليس بيني وبينكم الآن عملٌ ، غيري يملكُ الأموالَ وأنا لاشيءَ معي ، مايَذْهَبُ لكم في حاجةٍ إلا كَشخان (٢) فأمر باطلاقِهِ والإحسان إليه .

موت أبي عبيدة مَعْمَر بنِ المثنى : وفي سنة إحدى

---

(١) دمدم الشيء : ألزقه بالأرض .

(٢) الكشخان : من لا غيرة له .

عشرةَ ومئتين مات أبو عبيدة مَعْمرُ بن المثنى بالبصرة ، وكان يرى رأيَ الخوارج؛ وبلغَ نحواً من مائةِ سنة ، ولم يَحضُرْ جنازتَه أحدٌ من الناس . حتى اكتريَ لها من يَحمِلُها ، ولم يكن يُسالِّم عليه شريفٌ ولا وضيعٌ إلا تكلَّم فيه . وله مصنفاتٌ حِسانٌ في أيام العرب وغيرها: منها كتابُ المثالب،ويَذكُرُ فيه أنْسابَ العربِ وفسادَها ، ويرميهم بما يُسيء الناسَ ذِكْرُهُ ، ولايَحْسُنُ وَصفُهُ .

* * *

موت أبي العتاهية وشيء من أخباره : وفي هذه السنة — وهي سنة إحدى عشرة ومئتين — مات أبو العتاهية إسماعيلُ بنُ القاسم ، الشاعرُ ، متنسِّكاً لابساً للصوف . وكان له مع الرشيد أخبارٌ حِسانٌ : من ذلك ماقدَّمنا ذِكرَهُ فيما سلف من هذا الكتاب .

* * *

ومن قوافيه الغريبة وأشعاره المستحسنَة قولهُ :

أَخِلاَّيَ بي شَجْوٌ ، وليس بكُمْ شَجْوُ
وكلُّ امرىءٍ من شَجْوِ صاحبِهِ خِلْوُ

رأيتُ الهوى جَمْرَ الغضا ، غيرَ أنّه
على حرّه في صدرِ صاحبه حلْوُ

أذابَ الهوى جسمي وعظمي وقوّتي
فلم يبقَ إلاّ الروحُ والبَدنُ النِّضْوُ

وما من حبيبٍ نالَ مِمّنْ يُحبـــه
هوىً صادقاً إلاّ يُداخلُهُ زَهْوُ

وإني لناثي الطرفِ من غير خُلَّتي
ومالي سواها من حديثٍ ولا لهوُ

لها دونَ إخواني وأهــلِ مودّتي
من الودّ مني فَضْلَةٌ . ولها العفْوُ

* * *

المأمون وعليٌّ بن موسى الرِّضا : ووصَلَ إلى المأمون أبو الحسن عليٌّ بنُ موسى الرِّضَا (١) ، وهو بمدينة

(١) هو علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق : ثامن الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ، ومن أجلاء آل البيت . ولد في المدينة . عهد إليه المأمون بالخلافة وزوجه ابنته . مات بطوس (١٥٣ — ٢٠٣ ﻫ) .

مَرْوَ . فأنزلَهُ المأمونُ أحسنَ إنزال . وأمرَ المأمونُ بجميع خواصّ الأولياءِ ، وأخبرَهم أنه نَظَرَ في وَلَدِ العبَّاس ووَلَدِ علي رضي الله عنهم ، فلم يجد في وقته أحداً أفضلَ ولا أحقَّ بالأمْرِ من عليِّ بنِ موسى الرِّضا ؛ فبايعَ له بولاية العهد ، وضربَ اسمَهُ على الدنانيرِ والدراهمِ ، وزوَّجَ محمدَ بنَ عليِّ بنِ موسى الرضا بابنته أمِّ الفضل ؛ وأمر بإزالة السَّوادِ من اللباسِ والأعلام ؛ وأظهرَ بدلاً من ذلك الخُضْرةَ في اللِّباس والأعلام وغير ذلك ؛ ونُمي ذلك إلى مَن بالعراق من وَلَدِ العباس ، فأعظموه إذ عَلِموا أنَّ في ذلك خروجَ الأمر عنهم ، وحَجَّ بالناس إبراهيمُ بنُ موسى بن جعفر أخو الرِّضا بأمْرِ المأمون ، واجتمع مَن بمدينة السلام من وَلَدِ العبَّاس ومواليهم وشيعتهم ، على خَلْعِ المأمون ومبايعةِ إبراهيمَ ابنِ المهدي المعروفِ بابن شِكلة ؛ فبُويع له يومَ الخميس لخمس ليالٍ خَلَوْنَ من المحرم سنة اثنتين ومئتين ، وقيل إن ذلك في سنة ثلاث ومئتين .

مقتل الفضل بن سهل : وفي سنة اثنتين ومئتين قُتِلَ الفضلُ بنُ سَهْل ذو الرياستين في حَمَّام

غِيلةً . وذلك بمدينةِ سَرْخَس من بلاد خراسان ، وذلك في دار المأمون ، في مسيره إلى العراق فاستعظمَ المأمونُ ذلك وقَتَلَ قتلَتَه ، وسارَ المأمون إلى العراق .

موت علي بن موسى الرضا : وقبِضَ عليُّ بنُ موسى الرّضا بطُوس لِعنَب أكلَه وأكثرَ منه ، وقيل : إنه كان مسموماً ، وذلك في صفر سنة ثلاث ومئتين . وصلّى عليه المأمونُ ، وهو ابنُ ثلاثٍ وخمسين سنة ، وقيل : سبع وأربعين سنة وستة أشهرٍ . وكان مولِدهُ بالمدينة سنةَ ثلاث وخمسين ومئة للهجرة ، وكان المأمون زوَّجَ ابنته أُمَّ حَبيبة لعلي بن موسى الرضا . فكانت إحدى الأختين تحتَ محمد بن علي بن موسى . والأخرى تحتَ أبيه عليِّ بن موسى .

زواج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل :

وانحدر المأمون إلى فم الصلح في شعبان سنة تسع ومئتين ، وأملاك (١) بخديجة بنة الحسن بن سهل (٢) التي تُسمى

---

(١) الإملاك : التزويج . وفم الصلح : نهر كبير بالعراق فوق واسط . وفيه كانت دار الحسن بن سهل .

(٢) هو أخو الفضل بن سهل ، ووزير المأمون ، كان مجوسياً فأسلم . قاد وتولى ورعى الشعراء والأدباء . توفي بسرخس سنة ٢٣٦ هـ.

بوران ، ونَثَر الحسنُ في ذلك الإملاك من الأموال ما لم ينثره ولم يَفعلْه مَلِكٌ قطٌّ في جاهلية ولا في إسلام ، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقوّاد والكتاب والوجوه بنادقَ مسكٍ فيها رِقاعٌ بأسماء ضِياعٍ وأسماءِ جَوارٍ وصفاتِ دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، فيمضي إلى الوكيل الذي نُصِبَ لذلك فيقول له : ضيعةٌ يقال لها فلانةُ الفلانية من طَسُّوج كذا من رُستاق كذا (١) ، وجاريةٌ يقال لها فلانة الفلانية ، ودابّةٌ صِفَتُها كذا ، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافِجَ المسك وبيض العنبر (٢) ، وأنفق على المأمونِ وقُوّاده وعلى جميع أصحابه ومَنْ كان معه من جنوده أيام مَقامه عندَه حتى المُكارين والحمّالين والملاحين وكل من ضَمّه العسكرُ من تابع ومتبوع مرتزق وغيره ، فلم يكن أحد من الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون مما يُطْعَمُ ولا مما تَعتَلِفُهُ البهائمُ ، فلما أراد

---

(١) الطسوج : الناحية . والرستاق : منطقة تحوي عدداً من القرى .

(٢) نوافج المسك : أوعيته . والعنبر : ضرب من الطيب .

المأمون أن يصعد في دجلة منصرفاً إلى مدينة السلام قال للحسن : حوائجك ياأبامحمد . قال : نعم ياأميرَ المؤمنين : أسألُك أن تحفظَ عليَّ مكاني من قلبك ، فإنه لايتهيأ لي حفظُه إلا بك ، فأمرَ المأمونُ بحمْل خَراجِ فارسَ وكُوَرِ الأهواز إليه سنةً : فقالت في ذلك الشعراءُ فأكثرت ، وأطنبتِ الخطباءُ في ذلك وتكاثمت : فمما استُظرِفَ مما قيلَ في ذلك من الشِّعرِ قولُ محمد بن حازم الباهلي (١) :

بارِكَ اللهُ للحسـنْ ولبُورانَ في الخَتَنْ (٢)
يابنَ هارونَ قد ظفرْ تَ ولكنْ ببنتِ مَنْ

فلما نُمِيَ الشعرُ إلى المأمون قال : والله ماندري خيْراً أرادَ أمْ شَرّاً .

غزو الروم : وفي سنة ثمان عشرة ومئتين غزا المأمونُ أرضَ الروم ، وقد كان شَرَعَ في بناءِ الطوانَةِ :

---

(١) هو شاعر مطبوع ، كثير الهجاء ، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون . ولد في البصرة ومات ببغداد سنة ٢١٥ هـ .

(٢) ختن الرجل : زوج ابنته .

مدينة من مدنهم على فم الدرب ، مما يلي طَرَسُوس ، وعَمَدَ إلى سائرِ حصونِ الرومِ ، ودعاهم إلى الإسلام . وخيرّهُمُ بين الإسلام والجزيةِ بالسيف ، وذَلّل النّصْرانية ، فأجابه خَلْقٌ من الروم إلى الجزية .

قال المسعودي : وأخبرنا القاضي أبو محمد عبد الله بن أحمد بن زيد الدمشقي بدمشق ، قال : لما توجّه المأمون غازياً ، ونزل البذندون ، جاءَهُ رسولُ ملك الروم فقال له : إن الملك يُخيّرك بين أن يرُدّ عليك نفقتكَ التي أنفقتها في طريقك من بلدك إلى هذا الموضع ، وبين أن يُخرِجَ كلّ أسير من المسلمين في بلد الروم بغيرِ فداء ولا دِرْهَمٍ ولا دينار ، وبين أن يُعمّر لك كلّ بلد للمسلمين مما خرّبتِ النّصْرانية ويرده كما كان ، وتَرجعَ عن غزَاتِكَ ، فقام المأمون ودخل خيمةً ، فصلى ركعتين ، واستخار الله عز وجل وخرجَ ، فقال للرسول : قل له ، أمّا قولُك تردُّ علي نفقتي ، فإني سمعت الله تعالى يقول في كتابنا ، حاكياً عن بلقيس :

«(وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ؛ فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون).

وأما قولك : إنك تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم . فما في يدك إلا أحد رجلين : إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة ؛ فقد صار إلى ما أراد ؛ وإما رجل يطلب الدنيا . فلا فك الله أسره ، وأما قولك : إنك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم . فلو أني قلعت أقصى حجر في بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة في حال أسرها . فقالت : وامحمداه وامحمداه . عد إلى صاحبك . فليس بيني وبينه إلا السيف . ياغلام اضرب الطبل ؛ فرحل . فلم ينثن عن غزاته . حتى فتح خمسة عشر حصناً ؛ وانصرف عن غزاته ؛ فنزل على عين البذندون ؛ المعروفة بالقشيرة على حسب ماقدمنا في هذا الكتاب ، فأقام هنالك حتى ترجع رسله من الحصون . فوقف على العين ومنبع الماء . فأعجبه برد مائها وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة ، فأمر بقطع خشب

طُوَال وأمر به فَبُسِطَ على العين كالجسر ، وجُعِلَ فوقَه كالأَزَجِ من الخشب وورق الشجر ، وجلسَ تحت الكنيسة التي عُقِدتْ له والماء تحته ، وطرح في الماء درهمَ صحيحٍ فقرأ كتابتَه وهو في قَرار الماء لصفاء الماء ، ولم يقدر أحد يدخل يده في الماء من شدة بَرْده .

علة المأمون وموته : فبينا هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكةُ فضّة ، فجعل لمن يُخرجها سَبْقاً ، فبدَرَ بعضُ الفرّاشين فأخذَها وصَعِدَ ، فلما صارت على حرفِ العين أو على الخشب الذي عليه المأمون اضطربتْ وأُفلِتَت من يدِ الفرّاش فوقعت في الماءِ كالحجرِ ، فنضحَ من الماءِ على صدرِ المأمون ونَحْرِه وتَرْقوَته فبات ثوبه ، ثم انحدر الفرّاشُ ثانية فأخذها ووضعها بين يَدَيّ المأمون في منديل تضطرب ، فقال المأمون : تُقلى الساعةَ ، ثم أخذتْه رِعْدَةٌ من ساعته ، فلم يقدرْ يتحرك من مكانـه ، فغُطّيَ باللُّحف والدّواويج (١) ، وهو يرتعدُ كالسَّعفة ، ويَصيحُ

---

(١) الدواويج : ج دواج : رداء سميك كاللحاف .

البردَ البردَ . ثم حُوِّلَ إلى المضْربِ ، ودُثِّرَ ، وأوقدت النيرانُ حولَه . وهو يصيح : البردَ البردَ ، ثم أُتِيَ بالسمكة وقد فُرِغَ من قَلْيِها فلم يقدرْ على الذّوق منها . وشغلَه ماهو فيه عن تَناولِ شيءٍ منها . ولما اشتدَّ به الأمرُ سأل المعتصمُ بختيشوعَ وابنَ ماسَوَيه (١) في ذلك الوقت عن المأمون وهو في سَكَراتِ الموت ، وماالذي يدل عَليه عِلمُ الطبِّ من أمْرِهِ ؟ وهل يمكن بُرؤُه وشِفاؤه ؟ فتقدم ابنُ ماسَوَيْه ، فأخذَ إحدى يديه وبختيشوعُ الأخرى . وأخذَ المجسَّةَ من كلتا يديه . فوجدا نبضَهُ خارجاً عن الاعتدال ، مُنذراً بالفَناء والانحلالِ . والتزقت أيديهما ببَشَرتهِ لِعَرَقٍ كان يظهرُ منه من سائرِ جسده ، كالزيت . أو كاللُعابِ

---

(١) بختيشوع بن جبرائيل : طبيب سرياني الأصل ، مستعرب قربه الخلفاء العباسيون ، صنف كتاباً في الحجامة . مات ببغداد سنة ٢٥٦ هـ .

أما ابن ماسويه : فهو يوحنا بن ماسويه : من علماء الأطباء . سرياني الأصل ، عربي المنشأ ، خدم الرشيد وترجم له بعض كتب الطب القديمة التي وجدت في بلاد الروم . كما خدم المأمون والمعتصم . له نحو أربعين كتاباً . منها « البرهان » و « النوادر الطبية » . توفي بسامراء سنة ٢٤٣ هـ .

بعضِ الأفاعي ، فأُخبرَ المعتصمُ بذلك . فسألهما عن ذلك ، فأنكرا معرفتَهُ ، وأنهما لم يجداه في شيء من الكتُبِ . وأنه دالٌّ على انحلالِ الجسدِ ، و أفاقَ المأمونُ من غَشْيَتِهِ ، وفتح عينيه من رَقْدتهِ ، فأمر بإحضار أناسٍ من الروم ، فسألهم عن اسم الموضع والعين ، فأُحضِرَ له عِدَّةٌ من الأَسارى والأَدِلَّةِ ، وقيل لهم : فَسِّروا هذا الاسمَ القشيرة ، فقيل له تفسيره مُدَّ رجلايك ، فلما سمعها اضطرب من هذا الفأل وتطيَّر به ، وقال : سَلوهم مااسم الوضع بالعربية ، فقالوا : الرَّقَةُ ، وكان فيما عُمِلَ من مَوْلِدِ المأمون أنه يموتُ بالموضع المعروف بالرقة ، وكان المأمونُ كثيراً مايَحيدُ عن المقام بمدينة الرقة فرَقاً من الموت فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذي وُعِدَ فيه فيما تقدم من مولده ، وأن فيه وفاتَهُ ، وقيل : إن اسمَ البذندون تفسيرُهُ مُدَّ رجليك ، والله أعلمُ بكيفية ذلك . فأحضرَ المأمونُ الأَطباءَ حـــولَه يؤَمِّلُ خلاصَه مما هو فيـــه ، فلما ثَقُلَ قال : أخرجوني أُشرفُ على عسكري ، وأنظرُ إلى رجالي ، وأتبيَّنُ ماكي ، وذلك في الليل ، فأخرجَ

فأشرف على الخيم والجيش وانتشاره وكثرته وما قد أوقد من النيران . فقال : يامن لايزول مُلْكُه ارحم مَنْ قد زال مُلْكُه . ثم رُدَّ إلى مَرقَده وأجْلَس المعتصمُ رَجلاً يُشهِّدُه لمَّا ثُقَل ، فرفع الرجل صوته ليقولَها ، فقال له ابنُ ماسويه : لاتَصِحْ فوالله مايُفَرِّقُ بين ربه وبين ماني (١) في هذا الوقت ، ففتح المأمونُ عينيه من ساعته ، وبهما من العِظم والكِبَر والاحمرار مالم يُرَ مثله قطّ . وأقبلَ يحاولُ البطشَ بيديه بابن ماسَوَيْه ، ورام مخاطبتَه ، فعجزَ عن ذلك ، فرمى بطَرْفِه نحو السماء ، وقد امتلأت عيناهُ دموعاً ، فانطَلق لسانهُ من ساعته ، وقال : يامن لايموتُ ارحم مَنْ يموتُ . وقضى من ساعته ، وذلك في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثماني عشرة ومئتين ، وحُمِلَ إلى طَرَسُوْسَ فدُفِنَ بها ، على حسبِ ماقدمنا في أول أخبارِه من هذا الكتاب .

---

(١) ماني : (٢١٥ – ٢٧٦) م مؤسس مذهب المانوية القائل بمبدأين : مبدأ الخير ومبدأ الشر . أو النور والظلمة .

قال المسعودي : وللمأمون أخبارٌ حسانٌ ومعَانٍ وسِيَرٌ ومجالساتٌ وأشعارٌ وأخلاقٌ جميلة ، قد أتينا على مبسوطها فيما سلف من كتبنا ، فأغنى ذلك عن ذكرها .

ذكر خلافة المعتصم

موجز : وبُويعَ المعتصم في اليوم الذي كانت فيه وفاةُ المأمون على عين البذندون ، وهــو يوم الخميس لثلاثَ عشرةَ ليلةً بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومئتين ، واسمُهُ محمــدُ بنُ هــارون ، ويُكَنَّى أبا إسحاق ، وكان بينه وبين العباس بن المأمون في ذلك الوقت تنازعٌ في المجانس ، ثم انقاد العباسُ إلى بَيْعَتِهِ ، والمعتصم يومئذ ابن ثمانٍ وثلاثين سنة وشهرين ، وأمه يقال لها ماردة بنت شبيب ، وقيل إنه بويع سنة تسع عشرة ومئتين ، وتوفي بسُرَّ مَنْ رأى سنةَ سبعٍ وعشرين ، وهو ابنُ ستٍّ وأربعين سنة وعَشَرةِ أشهر ، فكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ، وقبره بالجوْسَقِ بسُرَّ من رأى على ماذكرنا .

ذكر جُمَل من أخباره وسيره ، ولُمَعٍ مما كان في أيامه

ابن الزيات وزير المعتصم وأحمد بن أبي دؤاد :
واستوزر المعتصم محمدَ بن عبد الملك (١) إلى آخر أيامه ، وغلب عليه أحمد بن أبي دُؤاد (٢) ؛ ولم يزل محمد ابن عبد الملك في أيام المعتصم والواثق إلى أن ولي المتوكل . وكان في نفسه عليه شيء ، فقتله ، وسنذكر لمعاً من خبر مقتله فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار المتوكل ؛ وإن كنا قد أتينا على ذلك ملخصاً في الكتاب الأوسط .

حب المعتصم للعمارة : وكـان المعتصم يحب العمارة ، ويقول : إن فيها أموراً محمودة ؛ فأَوَّلُها عمرانُ الأرض التي يَحيا بها العالمُ ، وعليها يَزكو الخراجُ وتكثُرُ الأموالُ ، وتَعيشُ البهائمُ ، وتَرخصُ

---

(١) هو محمد بن عبد الملك الزيات : وزير المعتصم والواثق ، عالم باللغة والأدب، ومن بلغاء الكتاب والشعراء . نكبه المتوكل وعذبه حتى الموت . له ديوان . (١٧٣ - ٢٣٣ هـ) .

(٢) أحمد بن أبي دؤاد : قاض معتزلي ولد بالبصرة . قربه المأمون واستوزره المعتصم وجعله قاضي القضاة . أهداه الجاحظ كتاب البيان والتبيين. توفي سنة ٢٤٠ هـ .

الأسعارُ ، ويكثرُ الكسبُ ، ويَتَّسع المعاشُ ، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدتَ موضعاً متى أنفقتَ فيه عَشَرةَ دراهم جاءني بعد سنة أحدَ عشَر درهماً فلا تؤامرني فيه .

بأس المعتصم وقوته : وكان المعتصم ذا بأسٍ وشدّةٍ في جسمه ، وشجاعةٍ في قلبه ، فذكر أحمدُ ابنُ أبي دُؤاد — وكان به آنساً — قال : لما أنكر المعتصمُ نفسَه وقوّتَه دخلتُ عليه يوماً وعندَهُ ابنُ ماسَوَيْه ، فقام المعتصم فقال لي : لاتبرحْ حتى أخرجَ إليه ، فقلتُ ليحيى بنِ ماسويه (١) : ويحك ! ! إني أرى أميرَ المؤمنين قد حالَ لَوْنُهُ ، ونَقَصَتْ قُوَّتُهُ ، وذهبت سَوْرَته ، فكيف تراه أنت ؟ قال : هو والله زُبْرَةٌ (٢) من زُبَرِ الحديد ، إلا أن في يديه فأساً يضربُ بها تلك الزُبْرَةَ ، فقلت : وكيف ذاك ؟ قال : كان قبل ذلك إذا أكلَ السمك اتخذ له صِباغاً من الخلّ والكَراويا

---

(١) لعل المقصود يوحنا بن ماسويه فهو طبيب المعتصم . ولم أجد لـ « يحيى » بن ماسويه ذكراً فيما بين يدي من مراجع .

(٢) الزبرة : القطعة من الحديد .

والكَمُّون والسَذّاب (١) والكَرَفْس والخردل والجوز فأكَلْتُه بذلك الصباغ ، يدفعُ أذى السمك وأضراره بالعصب. وإذا أكلَ الرؤوسَ اتُخذت له أصباغٌ تدفع أذاها وتُلَطِّفها ؛ وكان في أكثرِ أموره يُلطِّفُ غذاءَه ويُكثِرُ مشورتي . فصار اليوم إذا أنكرتُ عليه شيئاً خالفني . وقال : آكلُ هذا على رغمِ أنفِ ابن ماسويه فما أقدِرُ أن أصنعَ . قال : وهو خلف الستر يسمع مانحن فيه ، فقلت : ويلَكَ ياأبا يحيى ! ! أدْخِلْ أصبعَكَ في عَينَيه (٢) ، قال : جعلت فداك ؛ ماأقدر أردُّه ولا أجترىء عليه في خلاف ؛ فلما فرغ من كلامه خرج علينا المعتصم ، فقال لي : ماالذي كنتَ فيه مع ابن ماسويه ؟ قلت : ناظرتُه ياأميرَ المؤمنين في لونك الذي أراه حائلاً ، وفي قِلَّة طُعْمك الذي قد هدّ جوارحي وأنْحَلَ جسمي ؛ قال : فما قال لك ؟ قلت :

---

(١) الكراويا : بذر نبات أثره كالأنيسون (اليانسون) والسذاب : نوع من البقول .

(٢) يلاحظ الاختلاف في ذكر اسم ابن ماسويه فهو تارة يحيى وتارة أبويحيى ! ! .

شكا أذاك كنت تتقبل منه مايشير به علياك، وكنت ترى في ذلك على مايجب ، وأذاك الآن تخالفه ، قال : فما قلت له أنت ؟ قال : فجعلت أصرف الكلام . قال: فضحك وقال : هذا بعد مادخل في عيني أو قبل ذلك ؟ قال : فارفضضت (١) عرقاً، وعلمت أنه قد سمع ماكنا فيه ، ورأى ماقد داخلني ، فقال : يغفر الله لك ياأحمد ، لقد فرحت بما ظننت أنه أحزنك إذ سمعته، وعلمت أنه نوع من الانبساط والأنس .

جمع المعتصم للأتراك : : وكان المعتصم يحب جمع الاتراك وشراءهم من أيدي مواليهم ، فاجتمع له منهم أربعة آلاف ، فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وأبانهم بالزي عن سائر جنوده ، وقد كان اصطنع قوماً من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس (٢) ، فسماهم المغاربة ، واستعد

(١) أي تبلل جسمي بالعرق .

(٢) الحوف : ج أحواف وهي مناطق تشتمل على قرى . قال ياقوت : والحوف بمصر حوفان : الشرقي والغربي أول الشرقي من جهة الشام وآخر الغربي قرب دمياط . وقال : « والحوف : بناحية عمان » . ولعله المقصود بـ « حوف اليمن » أما حوف قيس : فلم أعرفه .

رجالَ خراسانَ من الفَراغنة (١) وغيرهم من الأُشْروسنيَّة (٢) . فكَثُرَ جيشُه . وكانت الأتراكُ تؤذي العوامَّ بمدينة السلام بجريها الخيولَ في الأسواق وما ينال الضعفاءَ والصبيانَ من ذلك . فكان أهلُ بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير . فعزمَ المعتصمُ على النُقْلة (٣) منهم . وأن ينزلَ في فضاءٍ من الأرض . فنزلَ البراذان على أربعةِ فراسخ من بغداد . فلم يستطِبْ هَواءَها . ولا اتَّسعَ له هواؤها ، فلم يزل يتنقل ويتقرَّى المواضعَ والأماكنَ إلى دجلة وغيرها حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالقاطُول (٤) . فاستطاب الموضعَ . وكان هناك قريةٌ يسكنها خلق من الجرامقة (٥) وناس

---

(١) نسبة إلى فرغانة : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر .

(٢) نسبة إلى أشروسنة : بلدة كبيرة بما وراء النهر بينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخاً .

(٣) النقلة : الانتقال من مكان إلى اخر .

(٤) القاطول : نهر كان في موضع سامراء قبل أن تعمر .

(٥) الجرامقة : نسبة إلى جرمق وهي بلدة بفارس . وقال صاحب القاموس المحيط : الجرامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل في أوائل الإسلام .

من النَّبَط (١) على النهر المعروف بالقاطول آخذاً من دجلة . فبنى هناك قصراً ، وبنى الناس وانتقلوا من مدينة السلام ، وخلت من السُكَّان إلا اليسير ، وكان فيما قاله بعض العيَّارين (٢) في ذلك معيراً للمعتصم بانتقاله عنهم :

أيا ساكن القاطول بين الجرامقه
تركتَ ببغدادَ الكباشَ البطارقة

ونالت مَنْ معَ المعتصم شدَّةٌ عظيمةٌ لبرد الموضع وصَلابة أرضه ، وتأذَّوْا بالبناء ؛ ففي ذلك يقول بعض من كان في الجيش :

قالوا لنا إنّ بالقاطول مَشْتانا
فنحن نأملُ صنعَ الله مولانا
الناس يأتمرون الرأي بينهمُ
واللهُ في كلِّ يومٍ مُحْدِثٌ شانا

تخطيط سامرا : ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرّى المواضع ، فانتهى إلى موضع سامرا .

---

(١) النبط : جيل كان ينزل البطائح بين العراقين .

(٢) العيارون : من عامة بغداد .

وكان هناك النصارى دير عاديٌّ ، فسأل بعضَ أهل الدير عن اسم الموضع ، فقال : يعرف بسامُرّا ، قال له المعتصم : ومامعنى سامرا ؟ قال : نجدها في الكتب السالفة والأمم الماضية أنها مدينةُ سام بن نوح ، قال له المعتصم : ومن أي بلاد هي ؟ وإلام تضاف ؟ قال : من بلاد طيرهان ، وإليها تضاف . فنظر المعتصم إلى فضاء واسع تسافرُ فيه الأبصار . وهواءٍ طَيِّب ، وأرض صحيحة ،فاستمرأها واستطاب هواءها ، وأقام هنالك ثلاثاً يتصيَّدُ في كل يوم : فوجد نفسه تتوقُ إلى الغذاء ، وتطاب الزيادةَ على العادةَ الجارية ، فعلم أنَّ ذلك لتأثير الهواء والتّربة والماء ، فلمّا استطابَ الموضعَ دعا بأهل الدير فاشترى منهم أرضَهم بأربعة آلاف دينار ، وارتادَ لبناءِ قصره مَوْضِعاً فيها ، فأسس بُنْيانَه . وهو الموضع المعروف بالوزيرية بسُرَّ من رأى ، وإليها يُضاف التين الوزيري ، وهو أعْذَبُ الأتيان وأرقُّها قِشْراً ، وأصغَرُ حَبّاً ، لايبلغُهُ تين الشام ، ولا يلحقهُ تينُ أَرَّجان وحُلوان (١) ، فارتفع

(١) أرجان : مدينة بايران . وحلوان : مدينة بالعراق اشتهرت بجودة تينها .

البنيان ، وأحضرَ له الفعلةَ والصُّناعَ وأهلَ المهن من سائر الأمصار ، ونقل إليها من سائر البقاع أنواعَ الغروسِ والأشجار ، فجعل للأتراك قطائعَ متحيِّزة ، وجاورَهم بالفراغنة والأشروسية وغيرِهم من مدن خراسان على قدْرِ قُربهم منهم في بلادهم وأقطعَ أشناسَ التركي (١) وأصحابه من الأتراك الموضعَ المعروفَ بكرخ سامرَّا ، ومن الفراغنة مَنْ أنزلهم الموضعَ المعروف بالعُمَري والجسر واختُطَّتِ الخِطَطُ ، واقتُطِعتِ القطائع والشوارعُ والدروبُ ، وأُفرِدَ أهلُ كلِّ صنعةٍ بسوق ، وكذلك التجارُ ، فبنى الناسُ ، وارتفع البناءُ ، وشُيِّدتِ الدورُ والقصورُ ، وكثرت العمارةُ ، واستُنْبِطَتِ المياهُ ، وجَرَتْ من دِجْلَةَ وغيرِها ، وتسامعَ أنَّ دارَ مُلْكٍ قد اتُّخِذت ، فقصدُوها وأجهزوا إليها من أنواعِ الأمتعة وسائرِ ماينتفعُ به الناسُ وغيرُهم من الحيوان ، وكَثُرَ العيشُ ، واتَّسعَ الرزقُ ،

(١) أشناس : قائد تركي . خلف الأفشين في الجيش الفارسي . عهد إليه المعتصم ببناء سامراء ، واشترك في فتح عمورية . ت ٢٣٠ هـ .

وشمِلَتْهم الإحسانُ . وعمَّهم العدْلُ . فاتَّسعَ الخِصْبُ . وأقبلت الأرضُ . وكان بدء ما وصفنا فيما فعله المعتصم سنة إحدى وعشرين ومئتين .

خروج بابك الخُرَّمي : واشتد أمر بابك الخُرَّمي(١) ببلاد الران والبيلقان (٢) . وكثرت غَثَرَتُه (٣) في تلك البلاد. وسار عساكرُه نحو تلك الأمصار . ففرق الجيوشَ . وهزمَ العساكرَ . وقتَلَ الولاةَ . وأفنى الناسَ . فسيَّر إليه المعتصمُ الجيوشَ وعليها الأفشين . وكثرت حروبُهُ واتصلت . وضاق ببابك في بلاده حتى انفضَّ جمْعُهُ . وقُتِلَ رجالُهُ . وامتنع بالجبلِ المعروف بالبذين (٤) من أرض الرَّان . وهي بلادُ

---

(١) بابك الخرمي : مؤسس مذهب الخرمية . ثار في خلافة المأمون بأذربيجان وكثر أتباعه حتى أعيى المأمون أمره . وبعد عشرين عاماً ، استطاع الأفشين قائد المعتصم القبض على بابك وقتله بسامراء سنة ٢٢٤ هـ .

(٢) الران والبيلقان : من نواحي أرمينية .

(٣) الغثرة : الغوغاء .

(٤) البذين : بالذال المعجمة ، كذا وردت في شعر أبي تمام . والبذ : كورة بأذربيجان . بها معقل بابك . وقد حدد المستعرب بونيياتو ف قلعة البذ فقال: انها تقع على جبل قرداغ إلى الجنوب من نهر أراكس . « البابكية » ل : « حسين قاسم العزيز » ص ٢٢٠ .

بابَك ، وبه يُعرف هذا الموضع إلى هذا الوقت ، فلما استشعرَ بَابَك مانَزلَ به ، وأشرف عليه هربَ من موضعه ، وزال عن مكانه ، فتنكَّر هو وأخوه ووَالده وأهْله ومَنْ تَبِعَه من خواصّه ، وقد تزيا بزيِّ السفر وأهْلِ التِّجارة والقوافل ، فنَزَل موضعاً من بلاد أرْمِينيَةَ من أعمال سهلِ بن سنباط من بطارقةِ أرمينْية على بعضِ المياه ، وبالقُرْبِ منهم راعي غنم ، فابتاعوا منه شاةً ، وساموا شراءَ شيءٍ من الزاد لهم ، فمضى من فَوْرِهِ إلى سَهْلِ ابنِ سنباط الأرميني ، فأخبره الخبرَ ، وقال : هو بابَك لاشكَّ فيه ، وقد كان الأفشين لما هرب بَابَكُ من موضعه وزال عن جِبَالِهِ خَشِيَ أنْ يعتَصِمَ ببعض الجبال المنيعة ، أو يتحصنَ ببعضِ القلاع ، أو ينضافَ إلى بعض الأمم القاطنة ببعضِ تلك الديار فيَكْثُرَ جمعُهُ وينضافَ إليه فُلاّلُ عسكره ، فيرجعَ إلى ماكان من أمره ، فأخذ الطُّرُقَ ، وكاتب البطارقةَ في الحصون والمواضعِ من بلاد أرْمينيةَ وأذْرَبيْجانَ والرّانِ والبَيْلَقَانِ ، وضَمِنَ في ذلك الرغائبَ ، فلما سَمِعَ سهلُ بنُ سنباط من الراعي ماأخبره به سرَّ من فَوْرِهِ فيمن حضرَهُ

من عدده وأصحابه حتى أتى الموضعَ الذي فيه بَابَك ، فترجَّلَ له ، ودنا منه ، وسلَّم عليه بالمُلْك ، وقال له : أيها المَلِكُ ، قُمْ إلى قصرك الذي فيه وَلِيُّكَ وموضع يمنعُكَ اللهُ فيه من عدْوِّك . فسار معه ، إلى أن أتى قلعتَهُ ، وأجلَسَهُ على سريره ، ورفع منزلته ، ووطَّأَ له منزلَه ومَنْ معه ، وقُدِّمَتِ المائدةُ ، وقعد سهلٌ يأكلُ معه . فقال له بابَكُ — بجهالِهِ وقلَّةِ معرفتِهِ بما هو فيه وما دُفِعَ إليه — : أَمِثْلُكَ يأكُلُ معي ؟ فقام سهلٌ عن المائدة وقال: أخطأتُ أيها المَلِكُ ، وأنتَ أحقُّ من احتملَ عَبْدَهُ ؛ إذ كانت منزلتي ليست بمنزلة من يأكلُ مع الملوك ، وجاءه بحدَّاد ، وقال له : مُدَّ رجلَكَ أيها المَلِكُ ، وأوثقَهَ بالحديد ، فقال له بابَكُ : أَغدْراً ياسهلُ ؟ ! قال : يابنَ الخبيثة إنما أنتَ راعي غَنَمٍ وبَقَر ، ماأنت والتدبيرُ للمُلْك ونظم السياسات وتدبير الجيوش ؟ ! وقَيَّدَ مَنْ كان معه وأرسل إلى الأفشين يُخبِرُهُ الخبرَ ، وأن الرجلَ عنده ، فسَرَّح إليه الأفشينُ أربعةَ آلاف فارسٍ عليهم الحديدُ ، وعليهم خليفةٌ يقال له بوماده ، فتسلَّموا بابَكَ ومن معه ،

وأتِيَ به إلى الأفشين ومعه سهل بن سنباط ، فرفع الأفشين منزلةَ سهلٍ ، وخلعَ عليه ، وحمَلَه ، وتوَّجَه ، وقاد بين يديه ، وأسقط عنه الخراجَ ، فأطاقه ، وأطلقت الطيورُ إلى المعتصم ، وكُتِبَ إليه بالفتح ، فلما وصل إليه ذلك ضجَّ الناسُ بالتكبير ، وعمَّهم الفرحُ ، وأظهروا السرورَ ، وكُتِبَتِ الكتُب إلى الأمصار بالفتح ،وقد كان أفنى عساكرَ السلطان ، فسارَ الأفشينُ ببابَك ، وتنقل بالعساكر ، حتى أتى سُرَّ مَنْ رأى ، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وتلقَّى الأفشينَ هارونُ بن المعتصم وأهلُ بيتِ الخلافة ورجالُ الدولة ، ونَزَلَ بالموضع المعروف بالقاطول على خمسةِ فراسخَ من سامُرَّا ، وبَعثَ إليه بالفيل الأشهَب ، وكان قد حمله بعضُ ملوكِ الهند إلى المأمون ، وكان فيلاً عظيماً قد جُلِّل بالديباج الأحمرِ والأخضرِ وأنواعِ الحرير الملوَّن ، ومعه ناقةٌ عظيمة بُخْتية قد جُلِّلَت بما وصفنا ، وحُمِلَ إلى الأفشين دُرَّاعة من الديباج الأحمر منسوجة بالذهب قد رُصِّعَ صدرها بأنواع الياقوت والجوهر ، ودُرَّاعة دونها ، وقَلَنْسُوَة عظيمة كالبرنُس ذات سفاسك بألوان مختلفة ،

وقد نُظِمَ على القَلَنْسُوة كثيرٌ من اللؤلؤ والجوهر ، وألبس باباكُ الدُّراعة الجليلة ، وألبس أخوه الأخرى . وجعلت القلنسوة على رأس باباك . وعلى رأس أخيه نحوها . وقُدِّمَ إليه الفيل . وإلى أخيه الناقة . فلما رأى صورة الفيل استعظمه وقال : ماهذه الدابَّةُ العظيمة ؟ واستحسن الدُّرَّاعة . وقال : هذه كرامة ملك عظيم جليل . إلى أسيرٍ فقد العزَّ ذليلٍ . أخطأته الأقدارُ . وزالت عنه الجدود (١) . وتورَّطته المحن . إنها لفرحةٌ تقتضي تَرْحةً . وضُرِبَ له المصافُّ صفين في الخيل والرجال والسلاح والحديد والرايات والبنود . من القاطول إلى سامرا . مَدَدٌ واحد متَّصلٌ غيرُ منفصل ، وباباك على الفيل وأخوه وراءَه على الناقة . والفيلُ يخطُرُ بين الصفين به . وباباك ينظر إلى ذات اليمين وذات الشمال ، ويُمَيِّزُ الرجالَ والعُدَدَ . ويُظهِرُ الأسَفَ والحنين على مافاته من سفْكِ دمائهم ؛ غيرَ مستعظِمٍ لما يرى من كثرتهم . وذلك يومَ الخميس لليلتين خلَتَا من صفر سنة ثلاثٍ وعشرين ومئتين . ولم يرَ الناسُ مثلَ ذلك

(١) الجدود : الحظوظ .

اليوم ، ولامثلَ تلك الزينة ، ودخل الأفشينُ على المعتصم فرفعَ منزلتَه ، وأعلى مكانته . وأُتيَ ببابك فطوِّفَ به بين يديه ، فقال له المعتصم ، أنت بابك؟ فلم يُجب ، وكرّرها عليه مراراً ، وبابك ساكتٌ ، فمال إليه الأفشين وقال : الويلُ لك ! أميرُ المؤمنين يخاطبك وأنتَ ساكت ؟ فقال : نعم أنا بابك ، فسَجدَ المعتصم عند ذلك ، وأمر بقطع يديه ورجليه .

قال المسعودي : ورأيت في كتاب أخبار بغداد أنه لما وقفَ بابكُ بينَ يديه لم يُكلّمه مليّاً ، ثم قال له : أنت بابك ؟ قال : نعم ، أنا عبدُك وغلامُك ، وكان اسمُ بابك الحسنَ ، واسمُ أخيه عبدَ الله ، قال : جرِّدوه ، فسلبه الخدّام ماعليه من الزِّينة ، وقُطِعتْ يَمينُهُ ، وضُرِبَ بها وَجهُهُ ، وفعل مثل ذلك بيساره ، وثلّث برجليه ، وهو يتمرَّغ في النطْعِ في دمه ، وقد كان تكلّم بكلامٍ كثير يُرَغِّبُ في أموالٍ عظيمة قِبَلَهُ ، فلم يلتفت إلى قوله ، وأقبل يضربُ بما بقي من زَنْدَيه وجهَهُ ، وأمر المعتصمُ السيّافَ أن يُدخِلَ السيفَ بين ضلعين من أضلاعه أسفلَ من القلب ليكونَ

أطول لعذابه ، ففعل ، ثم أمر بجز لسانه وصَلْبِ أطرافه مع جسده فصُلِبَ ثم حُمِلَ الرأسُ إلى مدينة السلام . ونُصِبَ على الجسر . وحُمِلَ إلى خراسانَ بعد ذلك . يُطافُ به كل مدينة من مدنها وكُوَرِها ؛ لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره ، وعِظَمِ شأنه ، وكثرة جنوده ، وإشرافه على إزالة مُلْكٍ وقلب ملة وتبديلها . وحُمِلَ أخوه عبدالله مع الرأس إلى مدينة السلام ، ففعلَ به إسحاقُ بن إبراهيم (١) أميرُها ما فُعِلَ بأخيه بابَك بسامرا ، وصُلِبَتْ جثةُ بابك على خشبةٍ طويلة في أقاصي سامُرّا ، وموضعهُ مشهورٌ إلى هذه الغاية يُعرفُ بخشبة بابَك ، وإن كانت سامُرّا في هذا الوقت قد خلا منها ساكنُها وبان عنها قاطنُها ، إلاّ يسيراً من الناس في بعض المواضعِ منها .

* * *

(١) إسحاق بن إبراهيم المصعبي الخزاعي . صاحب الشرطة ببغداد . كان وجيهاً مقرباً من الخلفاء ، ذا رأي وشجاعة . عقد له المعتصم على الجبال وسيره في جيش كبير لقتال أصحاب بابك مات سنة ٢٣٥ هـ .

غزو الرومِ زِبَطْرَةَ : وفي هذه السنة — وهي سنةُ ثلاثٍ وعشرين ومئتين — خرج توفيل ملك الروم في عساكره ومعه ملوك بُرْجَان والبُرْغَر والصَّقالبة (١) وغيرهم ممن جاورهم من ملوك الأمم حتى نزل على مدينة زِبَطْرَةَ (٢) من الثغر الجزري ، فافتتحها بالسيف ، وقتل الصغيرَ والكبيرَ وسبى وأغار على بلاد مَلَطْيَةَ (٣) ، فضج الناس في الأمصار ، واستغاثوا في المساجد والديار ، فدخل إبراهيمُ بنُ المهدي على المعتصم ، فأنشده قائماً قصيدةً طويلةً يذكر فيها مانزل بمن وصفنا ويحضُّه على الانتصار ويحثه على الجهاد ، فمنها :

ياغارةَ الله قد عاينتِ فانتهكي
هتكَ النساء وما منهن يرتكبُ

---

(١) برجان : بلد من نواحي الخزر . والبرغر وبلغار واحد وهم نوع من الترك كانوا يقطنون على ساحل البحر الأسود الغربي . والصقالبة : من الشعوب الأوربية ديارهم مجاورة لبلغار من الغرب والشمال .

(٢) مدينة بين ملطية وسميساط والحدث في طرف بلاد الروم .

(٣) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام .

هَبِ الرجالَ على أجرامها قُتِلَتْ
ما بالُ أطفالِها بالذّبحِ تُنْتَهَبُ

وإبراهيمُ بن المهدي أوّلُ من قال في شعر « ياغارَةَ اللّه » .

فخرج المعتصمُ من فَوْره نافراً عليه دُرّاعَةٌ من الصوف بيضاء ، وقد تعمم بعِمامة الغزاة ؛ فعسكر في غربي دجلةَ ، وذلك يوم الاثنين ، لليلتين خلتا من جمادى الأول ، من سنة ثلاثٍ وعشرين ومئتين ، ونُصِبَتِ الأَعلامُ على الجسر ، ونُودي في الأمصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين ، فسارت إليه العساكرُ والمُطَوِّعة من سائرِ الإسلام ، وجَعَلَ على مقدمته أشناسَ التركي ؛ ويتلوه محمدُ بن إبراهيم ، وعلى ميمنته إيتاخُ التركي ؛ وعلى مَيْسرته جَعْفَرُ بنُ دينار الخياط وعلى ساقتِهِ بُغا الكبير ويتلوه دينارُ بن عبد الله، وعلى القلب عجيف ؛ وسار المعتصمُ من الثغور الشامية ؛ ودخلَ من دَرْبِ السلامة (١) ، ودخل الأفشينُ من درب الحدَث .

(١) درب السلامة : لم أجد للسلامة ذكراً . قال ياقوت : سلام موضع قرب سميساط من بلاد الروم . فلعله : درب السلام .

ودخل الناسُ من سائر الدرُوب ، فلم يكن يحصي الناسَ العددُ . ولا يُضْبَطون كَثْرَةً . فمن مُكثِر ومُقالٍ . فالمكثر يقول : خمسمائة ألف . والمقال يقول : مائتي ألف . ولقي ملكَ الروم الأفشينُ ، فحاربَه فهزمه الأفشينُ ، وقَتَلَ أكثرَ بطارقته (١) وأصحابه ، وحماه رجلٌ من المتنصِّرة يقالُ له نُصير في خَلْقٍ من أصحابه . وقد كان الأفشينُ قَصَّر عن أخذ الملك في ذلك اليوم حين وُلّي ، وقال : هو ملك ، والملوك تُبْقِي بعضُها على بعض . وفتح المعتصم حصوناً كثيرة ، ونزل على مدينة عَمُّورِيَّة (٢) ، ففتحها الله على يديه ، وخرج إليه لاوي البطريق منها ، وسلَّمَها إليه ، وأسرَ البطريقَ الكبيرَ منها ، وهو باطس . وقتل منها ثلاثين ألفاً ، وأقام المعتصمُ عليها أربعةَ أيام يهدِمُ ويحرِقُ ، وأراد المسيرَ إلى القسطنطينية ، والنزولَ على خليجها . والحيلةَ في فتحها براً وبحراً ، فأتاه ماأزعجه وأزاله عما كان عزَم

---

(١) البطارقة : ج بطريق : قادة الروم .

(٢) عمورية : من مدن الروم الشهيرة قريبة من أنقرة .

عليه من أمْرِ العباس بن المأمون (١) ؛ وأن ناساً قد بايعوه ؛ وأنه كاتبَ طاغيةَ الروم ، فأعجلَ المعتصمُ في مسيره وحبس العباس وشيعته .

وفي هذه السنة مات العباس بن المأمون .

وفاة المعتصم : قال المسعودي : وفي سنة سبعٍ وعشرين ومئتين كانت وفاةُ المعتصم ، على دِجْلةَ في قصره المعروف بالخاقاني ، يوم الخميس ، لثماني عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول ، وقيل : لساعتين من ليلة الخميس ، وهو ابن ثمانٍ وأربعين سنة ، وقيل : ستٍ وأربعين سنة ، على ماقدمنا في صدر هذا الباب ، وكان مولده بالخُلْدِ ببغداد سنة ثمانين ومئة في الشهر الثامن من السنة . وهو ثامنُ الخلفاء ، والثامنُ من ولد العباس ، ومات عن ثمانية بنين ، وثمان بنات .

وللمعتصم أخبار حسان ، وما كان من أمره في فتح عمُورية ، وما كان من حروبه قبل الخلافة في السفارة

---

(١) العباس بن المأمون : أمير عباسي ولاه أبوه الجزيرة والثغور ، حاول تولي الخلافة ولكن المعتصم قبض عليه وسجنه إلى أن مات سنة ٢٢٣ هـ .

نحو الشام ومصر ، وغير ذلك ، وما كان منه بعد الخلافة ، وما حكي عنه من حسن السيرة واستقامة الطريقة أحمدُ ابن ابي دُؤاد القاضي ، ويعقوب بن إسحاق الكندي (١) ، في لمع أوردها في رسالته المترجمة بـ (سبيل الفضائل) ،وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا في « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وقد ذكرنا في هذا لمعاً منبِّهة على ماسلف ، وباعثة على درس ماتقدم .

ذكر خلافة الواثق بالله

•وجز : وبُويع هارونُ بنُ محمدِ بن هارونَ الواثق بالله ، ويُكَنَّى بأبي جعفر ، وأمُّه أمُّ وَلَدٍ رُوميَّة ، وتُسمَّى قَرَاطِيسَ ، وذلك في اليوم الذي كانت فيه وفاةُ المعتصم ، وهو يوم الخميس لثماني عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبعٍ وعشرين ومئتين ، وبويع وهو ابن إحدى وثلاثين سنة وتسعةِ أشهر ، وتُوفي بسامرا وهو ابن سبع وثلاثين سنة وستة أشهر ، وكانت خلافتهُ

(١) سبقت ترجمة يعقوب وابن أبي دؤاد .

خمسَ سنين وتسعةَ أشهر وثلاثة عشر يوماً ؛ وقيل : إنه توفي في يوم الأربعاء لستٍ بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئتين ؛ وهو ابن أربع وثلاثين سنة ، ووزيره محمد بن عبد الملك ، على حسب ماقدمنا في أيام المعتصم من هذا الكتاب ؛ والتواريخ متباينة في مقادير أعمارهم وأيامهم في الزيادة والنقصان .

ذكر لمع من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

صفات الواثق : كان الواثقُ كثيرَ الأكلِ والشربِ ، وواسعَ المعروف ، متعطّفاً على أهل بيته ، متفقّداً لرعيته ، وسالكاً في المذهب مذهبَ أبيه وعمه من القول بالعدل (١) .

غلب عليه اثنان : وغلب عليه أحمدُ بنُ أبي

(١) كان المعتزلة « يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ؛ أما التوحيد فلأنهم نفوا صفات الله وعدوا القول بها ، تعديداً لله ، وأما العدل فلأنهم نزهوا الله عما يقوله خصومهم : من أن الله قدر على الناس المعاصي ثم عذبهم عليها . وقالوا : إن الإنسان حر فيما يفعل ، ومن أجل هذا عذب على مايفعل ، وهذا عدل » . فجر الإسلام لأحمد أمين . ص ٢٩٦ .

دُؤاد ، ومحمدُ بنُ عبد الملك الزيات ، فكان لايتَصدُرُ إلا عن رأيهما ، ولايتعتبُ عليهما فيما رأياه ، وقلّدهما الأمرَ وفوّضَ إليهما مُلْكَهُ .

أعرابي يصف الواثق وأعوانه : وذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الجاسمي ، نسبة إلى جاسم — وهي قرية من أعمال دمشق ،بين بلاد الأردن ودمشق بموضع يعرف بالجولان ويعرف بجاسم ،على أميال من الجابية وبلاد نوى ،وهي من مراعي أيوب عليه السلام — قال : خرجتُ في أوّل أيام الواثقِ إلى سُرَّ من رأى ، فلما قربتُ منها لقيَني أعرابيٌّ ، فأردت أن أعلمَ خبرَ العسكرِ منه ، فقلت : ياأعرابي ، ممن أنت ؟ قال : من بني عامر ، قلت : وكيف علمُكَ بعسكرِ أمير المؤمنين ؟ قال : قتلَ أرضاً عالِمُها ، قلت : ماتقول في أمير المؤمنين ؟ قال : وثِقَ بالله فكفاه ، أشجى العاصية (١) ، وقصَمَ العاديَة ، وعدَلَ في الرعية ، ورَغِبَ عن كلِّ ذي جناية ، قلت : فما تقول في أحمد بن أبي دؤاد ؟ قال :

(١) أشجى العاصية : أي جرع العصاة الغصص والهم .

هَضْبَةٌ لاتُرام ، وجَبَلٌ لايُضام ، تُشحَذُ له المُدَى ، وتُنْصَبُ له الحبائلُ . حتى إذا قيل قد هَلَكَ وثب وثبةَ الذئب ، وختَل ختْلة الضَبّ ، قالت : فما تقول في محمد بن عبد الملك الزيات ؟ قال : وَسِعَ الداني شرُّه ، ووصل إلى البعيد ضُرُّه ؛ له في كل يوم صريعٌ ، ولايُرى فيه أثرُ نابٍ ولا مِخْلَب ، قالت : فما تقول في عمرو ابن فرج ؟ قال : ضخمٌ نَهِمٌ ، استعذب الدمَ ، ينصبه القومُ تُرساً للوغى . قالت : فما تقول في الفضل ابن مروان (١) ؟ قال : رجل نُبِشَ بعد ماقُبِرَ ، ليس تُعدُّ له حياةٌ في الأحياء ، وعليه خفَّةُ الموتى ؛ قالت : فما تقول في أبي الوزير ؟ قال : تخاله كبشَ الزنادقة ، أما تراه إذا أخمله الخليفة سمن ورتع ، وإذا هزَّه أمطرَ فأمرع ، قالت : فما تقول في أحمد بن الخصيب ؟ قال : ذاك أكلَ إكلة نَهِم ، فزَرقَ زَرقة بَشِم ، قالت : فما

---

(١) الفضل بن مروان : هو الذي أخذ البيعة للمعتصم بعد وفاة المأمون . خدم المعتصم والواثق وكان كاتباً جيداً له مصنفات . منها : « الأخبار » و « المشاهدات » . (١٧٠ — ٢٥٠) ه .

تقول في إبراهيمَ أخيه ؟ قال : أمواتٌ غيرُ أحياء وما يشعرون أيّانَ يبعثون . قلت : فما تقول في أحمد بن إبراهيم ؟ قال : لله درّه ! أيُّ فاعلٍ هو ؟ وأيُّ صابرٍ هو ؟ اتخذ الصبر دثاراً ، والجودَ شعاراً . وأهون عليه بهم ؟ قلت : فما تقول في المعلى بن أيوب ؟ قال : ذاك رجلٌ خير ، نصيحٌ السلطان ، عفيفُ اللسان ، سَلِمَ من القول وسَلِموا منه ، قلت : فما تقول في إبراهيم بن رَباح ؟ قال : ذاك رجلٌ أوثقه كرمهُ ، وأسلمه فضلهُ ، وله دعاءٌ لا يسلمه ، وربٌّ لا يخذلهُ ، وفوقه خليفةٌ لا يظلمهُ ، قلت : فما تقول في الحسن ابنه ؟ قال : ذاك عودٌ نُضار ، غُرِسَ في منابت الكرم ، حتى إذا اهتزَّ حصدوه ، قلت : فما تقول في نجاح بنِ سلَمة ؟ قال : لله دره ! أيُّ طالبِ وِترٍ ، ومدركِ ثأر ؟ يلتهبُ كأنه شُعلةُ نار ، له من الخليفة في الأحيان جلسةٌ تُزيل نِعماً ، وتُحِلُّ نِقَماً ، قلت : يا أعرابي أين منزلُك حتى آتيك ؟ قال : اللهم غَفراً مالي منزلٌ ، أنا اشتملُ النهارَ ، وألتحفُ الليل ، فحيثما أدركني الرقادُ رَقدتُ ، قلت : فكيف رضاك عن أهلِ العسكرِ ؟ قال : لا أُخلِقُ وجهي بمسألتهم ، إن أعطَوني

لم أحمدهم . وإن منعوني لم أذمهم . وإني كما قال هذا الغلام الطائي :

وما أبالي وخيرُ القول أصدقُه
حقنتَ لي ماءَ وجهي أو حقنتَ دمي

قلت : فأنا قائل هذا الشعر ، قال : أثناك أنتَ الطائي ؟ قلت : نعم ، قال : لله أبوك : وأنت القائل :

ماجودُ كفَّكَ إن جادت وإن بخلتْ
من ماء وجهي وقد أخلقته عوضُ

قلت : نعم ، قال : أنت أشعرُ أهلِ زمانِك .

وفي رواية أخرى ليست في الكتاب قلت . أنشدني شيئاً من شعرك ، فأنشدني :

أقول وجنحُ الدجى ملبدُ
ولليلِ في كل فجٍّ يدُ
ونحن ضجيعان في مجسدٍ
فلله ما ضمَّن المُجْسَدُ (١)

(١) المجسد : ثوب مصبوغ بالزعفران .

فيـــا غدُ إن كنتَ بي محسنـــــاً
فلا تدْنُ مــن ليلــتي ياغـــــدُ

ويالَيلــــــةَ الوصــلِ لاتَنْفَــدي
كمـــا ليلة الهجــر لا تنفَـــدُ

فقلت : لله أبوك ! ! ورددتهُ معي حتى لقيتُ ابن أبي دؤاد وحدثته بخبره فأوصلَه إلى الواثق ، فأمر له بألف دينار ، وأخذ له من سائر الكتّاب وأهل الدولة ماأغناه به ، وأغنى عَقِبَه بعدَه .

وهذا الخبر فمُخْرَجه عن أبي تمام ، فإن كان صادقاً فيما قال ، ولا أراه ، فقد أحسن الأعرابي في الوصف ، وإن كان أبوتمام هو الذي صنعه وعزاه إلى هذا الأعرابي فقد قصّر في نظمه ، إذ كانت منزلته أكبرَ من هذا .

أبو تمام الطائي : وكانت وفاةُ أبي تمام بالموصل سنة ثمان وعشرين ومئتين ، وكان خليعاً ماجناً في بعض أحواله ، وربما أداه ذلك إلى ترك موجبات فرضه ، تماجناً لااعتقاداً .

وحدث محمد بن يزيد المبرّد ، عن الحسن بن رجاء(١) ، قال : صار إليّ أبو تمام وأنا بفارس . فأقام عندي مقاماً طويلاً ، ونمي إليّ من غير وجه أنه لايصلي ، فوكلت به من يراعيه ويتفقــده في أوقات الصلاة . فوجـــدت الأمر على مااتصل بي عنه ، فعاتبته على فعاله ذلك . فكان من جوابه أن قال : تراني أنشط للشخوص إليك من مدينة السلام . وأتجشم هذه الطرقات الشاقة . وأكسل عن ركعات لامؤونة عليّ فيها ، لوكنت أعلم أن لمن صلاها ثواباً أو على من تركها عقاباً ، قال : فهممت والله بقتله ، ثم تخوفت أن يصرف الأمر إلى غير جهته ، وهو القائل :

وأحــق الأنـــــام أن يقضيَ الدّيـ

ــنَ امرؤ كـــان للإلـــه غريما

وهذا قول مباين لهذا الفعل ، والناس في أبي تمام في طرَفَيْ نقيض : متعصب له يعطيه أكثر من حقه.

---

(١) الحسن بن رجاء : هو الحسن بن شجاع بن رجاء البلخي : كاتب مترسل ، له شعر ، من حفاظ الحديث . روى عنه البخاري وغيره . اتصل بالمأمون العباسي فكان من كتابه . وقيل : تقلد أصبهان توفي سنة ٢٤٤ هـ .

ويتجاوز به في الوصف قدره ، ويرى أن شعره فوق كل شعر ، أو منحرف له معاند ، فهو ينفي عنه حسنه ، ويعيب مختاره ، ويستقبح المعاني الظريفة التي سبق إليها وتفرد بها .

مجلس للواثق في الفلسفة والطب : وكان الواثقُ بالله محباً النظر ، مكرماً لأهله ، مُبْغضاً للتقليد وأهله ، مُحباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم ، ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم من الشرعيين ، فحضره ذاتَ يوم جماعةٌ من الفلاسفة والمتطبِّبين ، فجرى بحضرته أنواعٌ من علومهم في الطبيعيَّات وما بعد ذلك من الإلهيات ، فقال لهم الواثق . قد أحببتُ أن أعلمَ كيفية إدراك معرفة الطب ومأخذِ أصوله ، أذلك من الحِسِّ أم من القياس والسُّنة ؟ أم يُدرَك بأوائل العقل ، أم علْمُ ذلك وطريقُهُ يُعلمُ عندَكم من جهة السَّمعِ كما يَذهبُ إليه جماعةٌ من أهل الشريعة ؟ وقد كان ابنُ بختيشوع وابنُ ماسَوَيْه وميخائيلُ (١) فيمن حضر . وقيل : إن حنينَ بنَ إسحاق

(١) ابن ماسويه : سبقت ترجمته . وابن بختيشوع : لعله يوحنا من مشاهير الأطباء ، والمترجمين عن اليونانية . له تصانيف نافعة في الطب . ت نحو ٢٩٠ هـ . وميخائيل من أطباء الواثق ولم أعثر له على ترجمة .

وسلمويه (١) فيمن حضر في هذا المجلس أيضاً .

فقال منهم قائلٌ : زعم طوائفُ من الأطباء وكثيرٌ من متقدِّميهم أن الطريقَ الذي يُدرَك به الطبُّ هو التجربةُ فقط ، وحدُّوه بأنه علمٌ بتكرر الحس على محسوسٍ واحد في أحوال متغايرة . فيوجَدُ بالحسِّ في آخر الأحوال كما يُوجَد في أولها ، والحافظ لذلك هو المجرِّب . وزعموا أن التجربةَ ترجع إلى مبادٍ أربعة هنَّ لها أوائلُ ومقدِّمات ، وبها عُلِمت وصحت ، وإليها تنقسمُ التجربةُ ، فصارت بذلك أجزاءً لها ؛ فزعموا أن قسماً من تلك الأقسام طبيعي ، وهو ماتفعله الطبيعة في الصحيح والمريض : من الرُّعاف ، والعرق ، والإسهال ، والقيء التي تُعقِبُ في المشاهدة منفعةً أو

(١) حنين بن اسحاق : طبيب من النساطرة العباديين ولد في الحيرة . درس الطب ببغداد . أتقن اليونانية والسريانية إلى جانب العربية . ولاه المأمون بيت الحكمة . له تصانيف . (١٩٤ - ٢٦٠ هـ) . وسلمويه : هو سلمويه بن بنان : طبيب المعتصم كان عاقلا مدبراً . وتذكر كتب التراجم أن وفاته كانت نحو ٢٢٥ هـ قبل خلافة الواثق ! .

ضرراً . وقسماً عرضياً ، وهو مايَعرِضُ للحيوان من الحوادث والنوازل ، وذلك كما يَعرِضُ للإنسان إنْ يُجرَحْ أو يسقطُ فيخرجَ منه دَمٌ قليلٌ أو كثير ، أو يشرب في مرضه أو صحته ماءً بارداً أو شراباً فيعقب في المشاهدة منفعة أو ضرراً ، وقسماً إرادياً ، وهو مايقع من قبل النفس الناطقة ، وذلك كمثل منام يراه الإنسان وهو أن يرى كأنه عالجَ مريضاً به علّةٌ مُشاهَدَةٌ معقولة بشيء من الأشياء معروفٍ فيبرأ ذلك المريض من مرضه ، أو يخطر مثلُ ذلك بباله في حال فكره ، فيتردد ويُعطَبُ ظنُّه بعَطَبِه فيجرّبه بأن يفعلَه كما يرى في منامه ، فيجده كما يرى أو يخالف ذلك ، ويفعلهُ مراراً ، فيجده كذلك . وقسماً هو نَقْلٌ ، وهو على ثلاثة أقسام : إما أن يُنقَلَ الدواءُ الواحدُ من مرض إلى مرض يشبهه ، وذلك كالنُّقْلة من ورم الحمرة إلى الورم المعروف بالنَّمْلة (١) ، وإما من عُضْوٍ إلى عضو يشبهه ، وذلك كالنُّقْلة من العَضُد إلى الفَخِذ ، وإما من دواء إلى دواء يُشْبِهه ، كالنُّقْلة

---

(١) النملة : بثرة تخرج في الجسد بالتهاب واحتراق ويرم مكانها يسيراً ويدب إلى موضع آخر كالنملة .

من السَّفَرْجَلِ إلى الزعرور في علاج انطلاق البطن . وكل ذلك لايُعمَلُ به عندهم إلا بالتجربة .

وذهبت طائفة أخرى منهم إلى أن الحيلةَ في تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن تُرَدَّ أشخاصٌ من العلل ومولّداتها إلى الأصول الحاضرة الجامعة لها : إذ كان لاغايةَ لتولّدها . وأنْ يُستَدَلَّ على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود في الحال والوقت . دون الأسباب المؤثرة الفاعلة التي عدمت ، ودون الأزمان والأوقات والأسباب والعادات ومعرفة طبائع الأعضاء وحدودها : والرصد والتحفظ لكل مايكون في كل علة وجدت أو لم توجد . وبرهنوا بأن زعموا أن من المعلومات الظاهرة التي لاريبَ فيها أن الضدَّين لايجوز اجتماعُهما في حال ، وأن وجودَ أحدهما ينفي وجودَ الآخر في الحال لامحال . قالوا : وليس هذا كشيء ظاهر يُستَدَلُّ به على كل شيء خفي . والشيء الظاهرُ يَحتَمِلُ الوجودَ ، فيختلف في الاستدلال ، فيكون القطع على مايوجبه غيرَ بَيِّن ، وهذا قول جماعة من حُذَّاق المتطببين وأهل التقدم في

اليونانيين مثل نامونيس وساساليس وغيرهما ؛ وهم قوم يعرفون بأصحاب الطب الجِبِلّي (١) .

قال الواثق لهم جميعاً : فأخبروني عن جمهورِهم الأعظم إلامَ يذهبون في ذلك ؟ فقالوا : إلى القياس ؛ قال : وكيف ذلك ؟ قالوا جميعاً : زعمت هذه الطائفة أن الطريقَ والقانونَ إلى معرفة الطب مأخوذ من مقدّمات أولية ، فمنها معرفةُ طبائعِ الأبدانِ والأعضاء وأفعالها ، ومنها معرفةُ الأبدان في الصِّحة والمرض ومعرفة الأهوية واختلافها والأعمال والصنائع والعادات والأطعمة والأشربة والأسفار ومعرفة قُوى الأمراض . وقالوا : ثبَتَ في الشاهد أنَّ الحيوانَ يختلف في صورته وطِباعه ، وكذلك أعضاؤه مختلفةٌ في طباعها وصُورها ، وأن الأجسادَ الحيوانيةَ تتغير بالأهوية المحيطة بها ، وبالحركة والسكون والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة واستفراغ مايخرج من الجسد واحتباسه ، والأعراض النفسانية من الغم والحزن والغضب والهم ، قالوا : والغرضُ بالطب في تدبير الأجسام حفظُ الصحة الموجودة في البدن الصحيح .

(١) الطب الجبلي : الطبيعي . نسبة إلى الجبلة وهي الخلقة والطبيعة .

واجتلابُها للعليل ، فالواجبُ أن يكونَ حفظُ الصحة إنما هو بمعرفة الأسباب المصحِّحة ؛ فالواجبُ على الطبيب لامَحالةَ من هذه المقدمات التي قد صَحَّت إذا أراد علاجَ المريض النظرُ في طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات والأزمان والأوقات الحاضرة والأسباب ليستدلَّ بجميع ذلك ؛ وهذا ياأمير المؤمنين قول أبُقْراط وجَالينوس فيمن تقدَّم وتأخر عنهم ؛ قالوا : وقد اختلفت هذه الطائفة في كثير من الأغذية والأدوية ، مع اتفاقهم على ماوصفنا . وذلك لاختلافهم في كيفية الاستدلال ؛ فمنهم من زعم أنه يُستَدَلُّ على طبيعة الشيء من الأغذية والأدوية بطَعْمِه أو ريحه أو لونه أو قِوامِه أو فعاله أو تأثيره في الجسد ؛ وزعموا أنَّ الوثيقةَ في الاستدلال بالأجزاء إذا كانت الألوان والأرابيح (١) وسائر ماذكرنا من أفعال الطبائع الأربع ، كما أنَّ الإسخانَ والتبريد والتليين فعلٌ لها ، وزعمت طائفةٌ أخرى منهم أن أصحَّ الشهادات وأثبتَ القضايا في الحكم على طبيعة الدواء والغذاء بما

---

(١) الأرابيح : جمع الجمع ل : رياح وأرياح .

أخذَ من فعله في الجسد دونَ الطَعْمِ والرائحة ، وما سوى ذلك ، فإن الاستدلال بما سوى الفعل والتأثير لايُقْطَعُ به ، ولايُعَوَّلُ في الحُكْم على طبيعة الدواء المفرد والمركّب .

قال الواثقُ لحُنين من بين الجماعة : ماأوّلُ آلاتِ الغذاء من الإنسان ؟ قال : أوّلُ آلاتِ الغذاء من الإنسان الفمُ ، وفيه الأسنانُ ، والأسنان اثنتان وثلاثون سناً ، منها في اللَّحي الأعلى ستةَ عشر سِناً ، وفي اللَّحي الأسفل كذلك ، ومن ذلك أربعةٌ في كل واحد من اللَّحيين عِراضٌ مُحدَّدةُ الأطراف يسميها الأطباءُ من اليونانيين القواطعَ ؛ وذلك أن بها يُقْطَعُ مايُحتاجُ إلى قَطْعه من الأطعمة اللَّيِّنة ، كما يُقطَعُ هذا النوعُ من المأكول بالسكين ، وهي الثنايا والرَّباعياتُ ، وعن جنبيْ هذه الأربعة في كل واحد من اللَّحيين سِنَّان رؤوسُهما حادّةٌ وأصولُهما عريضةٌ ، وهي الأنيابُ ، وبها يُكَسرُ كل مايُحتاجُ إلى تكسير من الأشياء الصَّلْبة مما يُؤكل ، وعن جنبي النابين في كل واحد من اللَّحيين خمسُ أسنان أُخَرَ عوارضَ خُشُن ، وهي الأضراس ، ويسميها اليونانيون الطواحنَ ، لأنها تطحنُ مايُحتاجُ

إلى طَحْنه مما يؤكل ؛ وكلُّ واحدٍ من الثنايا والرَّباعيات والأنياب له أصلٌ واحد ، وأما الأضراسُ فما كان منها في اللَّحي الأعلى فله ثلاثة أصول ـ خلا الضرسين الأقصيين ، فإنه ربما كان لكل واحد منهما أصولٌ أربعة ؛ وما كان من الأضراس في اللحي الأسفل فلكلِ واحد منهما أصلان ؛ خلا الضرسين الأقصيين ؛ فإنه ربما كان لكل واحد منهما أُصولٌ ثلاثة . وإنما احتيج إلى كَثْرةِ أصول الأضراس دون سائر الأسنان لشدةِ قوة العمل بها ، وخُصَّت العليا منها بالزيادة في الأصول لتعلُّقها بأعلى الفم .

قال الواثق : أحسنتَ فيما ذكرت من هذه الآلات ؛ فصنِّفْ لي كتاباً تَذكرْ فيه جميعَ مايُحتاجُ إلى معرفته من ذلك ، فصنَّفَ له كتاباً جَعَلَهُ ثلاثَ مقالاتٍ ، يذكرُ فيه الفرقَ بينَ الغذاءِ والدَّواءِ والمُسهلِ وآلاتِ الجسد .

واعتلَّ الواثقُ فصلَّى بالناس يومَ النحر أحمدُ ابن دؤاد ، وكان قاضي القضاة ؛ فدعا في خُطبته للواثق ، فقال : اللَّهُمَّ اشْفهِ مما ابتَلَيْتَه ، وقد قدَّمنا ذكرَ

وقتِ وفاتهِ فيما سلَفَ من أخْباره في هذا البابِ فأغنى ذلك عن إعادتِهِ .

ذكر خلافة المتوكل على الله

موجز : وبويع جعفر بن محمد بن هارون، ولُقِّب المنتصر بالله ، فلما كان في اليوم الثاني لقبه أحمد بن أبي دؤاد المتوكل على الله ، وذلك في اليوم الذي مات فيه الواثق أخوه ، وهو يوم الأربعاء لستٍّ بَقِينَ من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئتين ، ويُكَنَّى بأبي الفضل ؛ وبويع له وهو ابنُ سبعٍ وعشرين سنة وأشهر ، وقتل وهو ابن إحدى وأربعين سنة ، فكانت خلافتهُ أربعَ عَشرةَ سنةً وتسعةَ أشهر وتسع ليال ، وأمه أم ولد خُوارزمية يقال لهاشجاع ،وقتل ليلة الأربعاء لثلاثٍ خَلَوْنَ من شوال سنة سبع وأربعين ومئتين .

ذكرُ جُمَلٍ من أخباره وسِيَره ولُمَعٍ مما كان في أيامه

أَمْرُه بتركِ الجدَل وإظهار السُّنَّة : ولما أَفْضَتِ الخلافةُ إلى المتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال ،

والتَرْك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون وأمر الناس بالتسليم والتقليد ، وأمر شيوخَ المُحدِّثين بالتَّحْديث وإظهار السُنَّة والجماعة : وأظهر لباسَ ثيابِ المُلْحَمَةِ (١) . وفضل ذلك على سائر الثياب ، واتَّبعه مَنْ في داره على لبس ذلك ، وشمل الناس لبسه ، وبالغوا في ثمنه اهتماماً بعماله ، واصطنع الجيد منها ؛ لمبالغة الناس فيها . ومَيْلِ الراعي والرعية إليها ، فالباقي في أيدي الناس إلى هذه الغاية من تلك الثياب يعرف بالمتوكلية ، وهي نوعٌ من ثياب المُلْحَم نهاية في الحسن والصِّبغ وجَوْدَةِ الصُّنْع .

أحدث اللعب والمضاحك : وكانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضَرَها ، من استقامة الملك ، وشمول الناس بالأمن والعدل ، ولم يكن المتوكل ممن يوصف في عطائه وبذله بالجود ، ولا بتركه وإمساكه بالبخل ، ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجالسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض في الناس تركه إلا

(١) الملحم : جنس من الثياب ، وهو ماكان سداه من الحرير الأبيض ولحمته من غيره .

المتوكل ، فإنه السابق إلى ذلك والمُحْدِثُ له ، وأحدث أشياء من نوع ماذكرنا فاتبعه فيها الأغاب من خواصه وأكثر رعيته ، فلم يكن في وزرائه والمتقدمين في كتابه وقواده من يوصف بجود ولا إفضال ، أو يتعالى عن مجون وطرب .

غلب عليه الفتح بن خاقان : وكان الفتح بن خاقان التركي (١) مولاه أغلب الناس عليه ، وأقربهم منه وأكثرهم تقدماً عنده ، ولم يكن الفتح مع هذه المنزلة من الخلافة ممن يُرْجى فضله ويخاف شره ، وكان له نصيب من العلم ، ومنزلة من الأدب ، وألف كتاباً في أنواع الأدب ترجمه بكتاب « البستان » .

أحدث البناء الحيري : وأحدث المتوكل ، في أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيري والكُمّيْن والأروقة ، وذلك أن بعض سُمّاره حدّثه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصْر أحدث بنياناً في دار قراره ، وهي الحيرة ،

(١) كان أديباً شاعراً فصيحاً في نهاية الفطنة والذكاء توفي سنة ٢٤٧ هـ .

على صورة الحرب وهيئتها للتهجيه بها وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله ، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر ، والكُمَّان مَيْمنة ومَيْسَرَة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكُمَّان من يَقرُبُ منه من خواصه ، وفي اليمين منهما خزانة الكُسْوة ، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر ، والكُمَّين والأبواب الثلاثة على الرواق ، فسمي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيري والكُمَّين ، إضافة إلى الحيرة ، واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماماً بفعله ، واشتهر إلى هذه الغاية .

أخذه البيعة لأولاده الثلاثة : وبايعَ المتوكلُ لبنيه الثلاثة : محمد المنتصر بالله ، وأبي عبدالله المعتز بالله ، والمستعين بالله ، وفي ذلك يقول ابن المدبِّر في ذكره لهذه البيعة :

يابيعـــةً مثلَ بَيْعَـــةِ الشجـــرة
فيها لكُلِّ الخـــلائق الخِيَرَه
أكَّدَهَـــا جـــعفر وصَيَّرها
إلى بنيـــه الثلاثةِ البَـــرَرَه

وفي ذلك يقول عليُّ بن الجهم :

قُلْ للخليفة جعفرٍ يـــاذا الندى
وابنَ الخلائفِ والأئمَّـــةِ والهدى

لما أردتَ صـــلاحَ دينِ محمـــدٍ
ولّيتَ عهـدَ المسلمين مُحمَّـــدا

وثنَيْتَ بالمعـــتز بعـــد محمـــد
وجعلتَ ثالثَهـــم أعزَّ مـــؤيدا

* * *

وكان استخلاف المتوكل على الله بعد أن استُخلف أبو العباس السفاح بمئة سنة ، وبعد موت العباس بن عبد المطلب بمئتي سنة ، وقد قيل غير ذلك ، والله أعلم ، على تفاوت التواريخ في كمية أوقاتهم وعَدَدِ سنيهمْ والزيادة في الأيام والشهور ونقصانها من مدة ملكهم .

سخطه على ابن الزيات : وقد كان سُخط المتوكل على مُحمد بنِ عبدِ الملك الزيات بعد خلافته بأشهر ، فقبض أمواله وجميع ماكان له ، وقلَّد مكانه أبا الوزير ،

وقد كان ابن الزيات اتخذ للمصادَرين والمغضوب عليهم تنُّوراً من الحديد،رؤوسُ مساميره إلى داخل قائمة مثل رؤوس المسالّ في أيام وزارته للمعتصم والواثق ، فكان يعذب الناس فيه ، فأمر المتوكل بإدخاله في ذلك التنور ، فقال محمد بن عبد الملك الزيات للموكل به أن يأذن له في دواة وبطاقة ليكتب فيها مايريد ، فاستأذن المتوكل في ذلك فأذن له ، فكتب :

هي السبيلُ فمن يوم إلى يـــــوم
كأنه ماتُريك العـــين في النــــوم
لاتجزعنّ رُويــداً إنهــــا دُوَلٌ
دنيا تَنقّلُ من قوم إلى قـــوم

قال : وتشاغل المتوكل في ذلك اليوم فلم تصِل الرقعة إليه ، فلما كان الغد قرأها فأمر بإخراجه فوجده ميتاً . وكان حَبْسهُ في ذلك التنور إلى أن مات أربعين يوماً ، وكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً ، وهو القائل في تحريض المأمون على إبراهيم بن المهدي عمه حين خرج عليه :

ألم ترَ أنَّ الشيءَ للشيء علّـــة
تكون لــه كالنار تُقدَحُ بالزِّنْدِ
كذلك جرَّبنـا الأمور ، وإنمـا
يدلُّك ماقد كان قبل على البعد
وظنّي بإبراهيم أن فكاكَــهُ
سيبعث يومـاً مثلَ أيـامه النُّكْدِ
تذكّرْ أميرَ المؤمـنين قيـامَـه
وأيـامَهُ في الهزل منه وفي الجـد
إذا هَزَّ أعـواد المنـابرِ باسمـه
تغنَّى بليـلى أو بميَّـةَ أو هند

في شعر طويل جداً .

المبرد ومجنون بدير هِزْقِلَ(١) : وذكر محمد بن يزيد المبرد قال : ذُكِرتُ للمتوكل لمنازعة جرت بينه وبين الفتح بن خاقان في تأويل آية وتنازع الناس في قراءتها ، فبعث إلى محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان الهاشمي ، وكانت إليه البصرة ، فحملني إليه مكرماً ، فلما اجتزت

(١) أصله حزقيل . وهو دير مشهور بين البصرة وعسكر مُكرَم

بناحية النعمان بين واسط وبغداد ذكر لي أن بدير هِزْقل جماعة من المجانين يُعالَجُونَ. فلما حاذيته دعتني نفسي إلى دخوله، فدخلته ومعي شابٌّ ممن يرجع إلى دين وأدب، فإذا أنا بمجنون من المجانين قد دنا إلي، فقلت: مايقعدك بينهم وأنت بائن عنهم، فكسر جفنه ورفع عقيرته، وأنشأ يقول:

إن وصفوني فَناحِلُ الجَسَدِ
أو فتّشوني فأبيض الكَبِدِ
أضْعَفَ وجدي وزاد في سَقَمِي
أن لَسْتُ أشكو الهوى إلى أحد
وضعت كَفّي على فؤادِيَ من
حرّ الأسى وانطويت فوق يدي
آهٍ من الحب، آهِ من كبدي
إن لم أمت في غدٍ فبعد غد
كأنّ قلبي إذا ذكرتُهم
فريسةٌ بين ساعدَيْ أسَدِ

فقلت : أحسنت لله درك ! زدني ، فأنشأ يقول :

ماأقتـلَ البينَ للنفوس ! ! وما
أوْجـعَ فقـدَ الحبيبِ للكبدِ ! !

عرضت نفسي مـن البلاء لمـا
أسرف في مهجـتي وفي جَلَدي

ياحسرتي أن أمـوت معتقـلاً
بـين اعتلاج الهمـوم والكَمـدِ

في كل يوم تَفيـضُ مُعْـوِلةً
عـيني لعضـوٍ يموت في جسـدي

فقلت: أحسنت لله دَرُّك ! ولا فُضّ فوك ! زدني ،
فأنشأ يقول :

الله يعلـم أنني كَمِـدُ | لاأستطيع أبثّ ماأجِـدُ
نَفْسان لي: نفسٌ تضمـّنَها | بَلَدٌ، وأخرى حازَها بَلَدُ
وأرى المقيمةَ ليس ينفعها | صبرٌ، وليس يعينها جَلَدُ
وأظن غائبتي كشـاهدتي | بمكانها تجدُ الذي أجِدُ

فقالت : والله أحسنت ، فاستزدته ، فقال : أراك كلما أنشدتك استزدتني . وما ذاك إلا لفرط أدب أو فراق شجن ، فأنْشِدْني أنت أيضاً ، فقالت للذي معي ، أنشده ، فأنشأ يقول :

عَذْلٌ وبَيْنٌ وتوديعٌ ومرتحلُ
أي العيون على ذا ليس تَنْهمِلُ ؟
تالله ماجَلَدي من بعدهم جَلَدٌ
ولا اختزان دموعي عنهمُ بَخَلُ
بلى . وحرمةِ ماألقينَ من خَبَلٍ
قلبي إليهنَّ مشتاق وقد رَحلوا
وَدِدْتُ أن البحارَ السبع لي مَدَدٌ
وأن جسمي دموعٌ كُلُّها هَمَلُ
وأن لي بَدَلاً من كل جانحة
في كل جارحةٍ يومَ النوى مُقَلُ
لادرَّ درُّ النوى لوصادفتْ جَبَلاً
لانهدَّ منها وشيكاً ذلك الجبل

الهجر والبين والواشون والإبـــل

طلائعٌ يتراءى أنهـــا الأجـــل

فقال المجنون : أحسنت ، وقد حضرني في معنى ماأنشدت إليّ شعرٌ ، أفأُنشدهُ ؟ قالت : هات ، فأنشأ يقول :

ترحّلوا ثم نيطَتْ دو نَهم سُجُف

لوكنت أملكهم يوماً لما رحلـوا

ياحاديَ العيس مهلاً كي نودّعَهـا

رفقاً قليلاً ففي توديعها الأجــلُ

ماراعني اليومَ شيءٌ غــيرُ فقدِهِـمُ

لما استقلت وسارت بالدُّمـى الإبل

إني على العهد لم أنقضْ مودّتَهـم

فليت شعري وطال الدهرُ مافعلوا

قال المبرد : فقال الفتى الذي معي : ماتوا ، فقال المجنون: آه آه ، إن ماتوا فسوف أموت . وسقط ميتاً ، فما برحْتُ حتى غُسِّلَ وكُفِّنَ وصلّيتُ عليه ودَفنْتُهُ .

المتوكل وعلي بن محمد العلوي : وحَدَّثَ أبوعبدالله محمدُ بنُ عَرَفَة النحويّ قال : حَدَّثنا محمدُ بن يزيد المبرّد قال : قال المتوكّل لأبي الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم : مايقول ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب؟ قال : وما يقول ولد أبي ياأمير المؤمنين في رجل افترضَ اللهُ طاعةَ بنيه على خلْقِه ، وافترضَ طاعتَهُ على بنيه ؟ فأمر له بمائة ألف درهم ، وإنما أراد أبوالحسن طاعةَ الله على بنيه ، فعرَّضَ .

وقد كان سُعي بأبي الحسن علي بن محمد إلى المتوكل ، وقيل له : إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته ، فوجه إليه ليلاً من الأتراك وغيرهم مَنْ هجم عليه في منزله على غفلة ممن في داره ، فوجده في بيت وحده مغلق عليه وعليه مدْرَعة من شَعرٍ ، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى ، وعلى رأسه مِلْحَفة من الصوف متوجهاً إلى ربه يترنمُ بآياتٍ من القرآن في الوعد والوعيد ، فأُخِذَ على ماوُجِدَ عليه ، وحُمِلَ إلى المتوكل في جوف الليل ، فمثلَ بين يديه والمتوكل يشرب ،وفي يده

كأس ، فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه ولم يكن في منزله شيءٌ مما قيل فيه ، ولا حالةٌ يُتَعَلَّلُ عليه بها ، فناوله المتوكلُ الكأسَ الذي في يده ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، ماخامر لحمي ودمي قَطّ ، فأعْفِنِي منه ، فعافاه ، وقال : أنشدني شعراً أستحسنه ، فقال : إني لقليل الرواية للأشعار ، فقال : لابد أن تنشدني فأنشده :

باتوا على قُلَلِ الأجبال تحرسهم
غُلْبُ الرجال فما أغنتهم القُلَلُ (١)
واستُنْزِلوا بعد عزٍّ عن معاقلهم
فأُودِعُوا حُفَراً ، يابئس مانزلوا
ناداهُم صارخٌ من بعدما قُبِروا
أين الأسرةُ والتيجانُ والحُلَلُ ؟
أين الوجوهُ التي كانت منعّمةً
من دونها تُضْرَبُ الأستار والكِلَلُ

---

(١) قلل الأجبال : قممها . وغلب الرجال : ج أغلب : وهو الغليظ العنق : والمقصود : أشداء الرجال .

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم
تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا
فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا

وطالما عمّروا دُوراً لتحصنهم
ففارقوا الدورَ والأهلين وانتقلوا

وطالما كنزوا الأموالَ وادّخروا
فخلّفوها على الأعداء وارتحلوا

أضحت منازِلُهم قَفْراً مُعَطّلةً
وساكنوها إلى الأجداث قد رَحَلوا

قال : فأشفق كل من حضر على علي ، وظن أن بادرة تبدر منه إليه ، قال : والله لقد بكى المتوكل بكاء طويلاً حتى بلّتْ دُموعُه لحيتَهُ ، وبكى من حضره ، ثم أمرَ برفع الشراب ، ثم قال له : ياأبا الحسن ، أعليك دين ؟ قال : نعم أربعة آلاف دينار ، فأمر بدفعها إليه ، وردّه إلى منزله من ساعته مكرّماً .

نفي المتوكل عليَّ بنَ الجهم : وفي سنة اثنتين وثلاثين ومئتين نفى المتوكل عليَّ بنَ الجهم الشاعر إلى خُراسان ، وقيل : في سنة تسع وثلاثين ومئتين ، وقد

أتينا على خبره وما كان من أمْرِه ورجوعه بعدَ ذلك إلى العراق ، وخروجه يُريدُ السَّفَرَ ، وذلك في سنة تسع وأربعين ومائتين ، فلما صار بالقرب من حلب من بلاد قِنَّسْرينَ والعواصم (١) بالموضع المعروف بخشبات لقيته خيلُ الكَلْبِيّين فقتلته ، فقال في ذلك وهو في الشرق :

أَزيدَ في الليل ليــــلُ   أم سال بالصبح سيل ؟
ذكرتُ أَهْلَ دُجَيْلٍ   وأينَ مِني دُجَيْلُ ؟

وكان علي بن الجهم السَّامي هذا — مع انحرافه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضيَ الله عنه وإظهاره التسنُّنَ — مطبوعاً مقتدراً على الشعر ، عذبَ الألفاظ ، غزير الكلام ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب طَعْنَ من طَعَنَ على نسبه ، وما قال الناس في عَقِبِ سامةَ بنِ لؤي بن غالب ، وقول علي بن محمد بن جعفر العلوي الشاعر :

---

(١) قال ياقوت : العواصم : حصون موانع ، وولاية تحيط بها ، بين حلب وأنطاكية كان قد بناها الروم واعتصموا بها .

وسَامةٌ منا فأما بنوه

فأمرُهُم عندنا مُظْلِمُ

أناس أتَونا بأنسابهم

خرافةَ مضطجعٍ يحلُمُ

وقالت لهم مثلَ قول النبي

وكلٌّ أقاويله مُحكَمُ

إذا ماسُئلتَ ولم تَدْرِ ما

تقولُ فقُلْ رَبُّنا أعلمُ

وله (١) في الحبس شعر معروف لم يسبقه إلى معناه أحد ، وهو قوله :

قالوا : حُبِستَ ، فقلتُ : ليس بضائري

حبسي ، وأيُّ مُهنَّدٍ لايُغمدُ ؟

أوَ ماراأيتَ الليثَ يألفُ غِيلَهُ

كِبْراً . وأوباشُ السباع تَردَّدُ

---

(١) أي لعلي بن الجهم .

والشمسُ لــولا أنهـــا محجـــوبةٌ
عن ناظريكَ لمـــا أضاءَ الفرقـــدُ
والنـــارُ في أحجـــارها مخبـــوءة
لاتُصطلَى إن لم تُثِـرْهـا الأزنُدُ
والحبسُ مـــالم تغشَــهُ لــدنيـَّةٍ
شنعـــاءَ نِعْمَ المنزلُ المســـتورَدُ
بيتٌ يُجـــدَّدُ للكـــريم كرامـــةً
ويُزارُ فيـــه ولا يَزورُ ويُحفـــدُ (١)
لــو لم يكن في الحبس إلا أنَّـــهُ
.. لايستذِلُّكَ بالحجـــابِ الأعبُدُ

ومما أحسن فيه قوله :

خليليَّ مـــاأحلى الهـــوى وأمـــرَّه
وأعلَمني بالحُلوِ منه وبـــالمـــرِّ
بما بيننَـــا من حُرمـــةٍ هـــل رأيتما
أرَقَّ من الشكوى وأقسى مـــن الهجرِ

---

(١) حفد : خدم .

وأفصحَ من عـينِ المحـبِّ لسرهِ
ولاسيما إن أطلقتْ عَـبرةً تجري

ومما اختير من قوله :

حسرتْ عنّيَ القنـاعَ ظَـلومُ
وتولّتْ ودمعُهـا مَسجُومُ

شرٌّ ماأنكرت تَصـرُّم عهدٍ
لم يَدُمْ لي ، وأيُّ عهدٍ يدوم ؟

أنكرتْ مارأت برأسي وقـالت :
أمشيبٌ أم لـؤلـؤ منظـومُ ؟

قلت : أولاهما علمتِ . فقالت :
آيـةٌ يسـتثيرهـا المهمـومُ

ليس همي من الهمـوم التي يَحـ
ـسُنُ فيها العزاءُ والتسـليم

إن أمراً أخنى علي بشـيبِ الـ
رأس في ليلةٍ لأمرٌ عظـيم

ليس عنادي وإن تعزَّيـــــتُ إلا
طـــاعةٌ حرَّةٌ وقـــابٌ سالـــيم

* * *

ومما جَوَّدَ فيه قولهُ لمَّا قُيِّدَ :

فقلت لها والدمع شتى طريقُـــهُ
ونارُ الهوى بالقلب يذكو وَقُودُها
فلا تجزعي إمَّـــا رأيتِ قيــــودَهُ
فإنَّ خلاخيلَ الرجالِ قيودُهـــا

قال : وفي سنة ثلاث وأربعين ومئتين كان خروج المتوكل من دمشق إلى سُرَّ من رأى ، فكان بين خروجه منها ورجوعه إليها ثلاثة أشهر وسبعة أيام ، وفي خروجه يقول يزيد المهلبي (١) شعراً طويلاً اخترنا منه قوله :

---

(١) هو يزيد بن محمد بن المهلب من بني المهلب بن أبي صفرة : شاعر راجز من الندماء الرواة . اتصل بالمتوكل ونادمه ومدحه ورثاه . توفي سنة ٢٥٩ هـ .

أظنُّ الشامَ يشمَتُ بالعراقِ
إذا عزم الإمام على انطلاقِ
فإن تدع العراق وساكنيها
فقد تُبْلى المتيحة بالطلاقِ

المتوكل في دمشق : ولما نزل دمشق أبى أن ينزل المدينة لتكاثف هواء الغوطة عليها، وما يرتفع من بخار مياهها ، فنزل قصر المأمون، وذلك بين داريا ودمشق، على ساعة من المدينة ، في أعلى الأرض . وهذا الموضع بدمشق يشرف على المدينة وأكثر الغوطة .ويعرف بقصر المأمون إلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة .

وذكر سعيدُ بنُ نُكَيْس قال : كنت واقفاً بين يدي المتوكل في مضربه بدمشق إذ شغَبَ الجند واجتمعوا وضجُّوا يطلبون الأعطية . ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمي بالنُشّاب ، وأقبلت أرى السهام ترتفع في الرواق . فقال لي : ياأبا سعيد (١) ، ادع لي رجاء الحضاري ؛

---

(١) يلاحظ الاختلاف بين سعيد .. وأبي سعيد . ولعل ذلك من أغلاط النسخ .

فدعوته ، فقال له : يارجاء ، أما ترى ماخرج إليه هؤلاء ؟ فما الرأي عندك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، قد كنت مشفقاً في هذا السفر من مثل هذا ، فأشرت بما أشرت من تأخيره ، فمال أمير المؤمنين إليه ، وقال : دع مامضى وقل الآن مما حضر برأيك ، فقال : ياأمير المؤمنين ، تُوضَعُ الأَعْطِيةُ (١) ، فقال له : فهذا ما أرادوا ، وفيه مع ماخرجوا إليه مايعلم ، قال : ياأمير المؤمنين ، مُرْ بهذا فإن الرأي بعده ، فأمر عبيد الله بن يحيى (٢) بوضع الأعطية فيهم ، فلما خرجَ المالُ وبُدِيءَ بإنفاقه دخلَ رجاء فقال : مر الآن ياأميرَ المؤمنين بضرب الطبل للرحيل إلى العراق ، فإنهم لايأخذون مما أخرج إليهم شيئاً ، ففعل ذالك ، فترك الناس الأعطية فرجعوا حتى إن المعْطِي ليتعلق بالرجل ليعطيه رزقَه فلا يأخذه .

الأتراك يدبرون وقيعة : قال سعيد : وقد كان

---

(١) الأعطية : ج عطاء : المال الذي يعطى للجند .

(٢) عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، أبوالحسن : وزير المتوكل والمعتمد . كان عاقلا حازماً ، استمر في الوزارة إلى أن توفي (٢٠٩ – ٢٦٣ هـ) .

لأتراك قد رأوا أنهم يقتلون المتوكل بدمشق . فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بُغا الكبير (١) ؛ فإنهم دبروا في إبعاده عنه . فطرحوا في مضرب المتوكل الرقاع يقولون فيها: إن بُغا دبَّر أن يقتل أمير المؤمنين . والعلامة في ذلك أن يركب في يوم كذا في خيله ورجله ؛ فيأخذ عليه أطراف عسكره ، ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به . فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته ؛ ودخلَ في قلبه من بُغا كلُّ مدخلٍ . وشكا إلى الفتح(٢) ذلك . وقال له في أمر بُغا والإقدام عليه ، وشاوره في ذلك . فقال : ياأمير المؤمنين . إن الذي كتب الرّقاع قد جعل للأمر دلائل في وقتٍ بعينه سمّاه له من ركوب الرجل بالأطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه ، وبعد ذلك يتبين الأمر ؛ وأنا أرى أن تُمسِكَ ، فإن صحّ هذا الدليل نظرنا كيف نفعل ، وإن بطل ماكتب به

---

(١) بغا الكبير : قائد تركي اشتهر في عهد المعتصم وخلفائه . قاد عدة حملات إلى أرمينية وبيزنطة. اشترك في تنصيب المستعين بعد اغتيال المتوكل وتوفي سنة ٢٤٨ هـ .

(٢) هو الفتح بن خاقان وقد سبقت ترجمته .

فالحمد لله ؛ وأقبلت الرقاع تطرح في كل وقت على جهة التنصح . وأن في أعناق من كتبها بيعة لم يجد معها بدّاً من النصح والصدق ؛ فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ماعندهم من الأمر كتبوا رقاعاً فطرحوها في مضرب بُغا يقولون فيها : إن جماعة من الغلمان والأتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة في عسكره ، ودبروا ذلك ، واتفقوا عليه ، وتعاقدوا على أن يأتوه من نواحي كذا ، ونواحي كذا ، فالله الله إلا مااحترست لأمير المؤمنين ، وحرسته في هذه الليلة من هذه المواضع ، وحصنتها بنفسك ومن تثق به ، فإنا قد نصحنا وصدقنا ؛ وأكثروا طرح الرقاع بهذا المعنى والتوكيد في حراسة الخليفة ، فلما وقف بُغا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب إليه فيها حقاً ، مع ما كان وقع عليه من الأمر قبل ذلك ؛ فلما كانت الليلة التي ذكروها جمع جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم إلى المواضع التي ذكرت ، فأخذها على المتوكل وحرسها ، واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أن ماكتب له حق ، فأقبل يتوقع ممَّنْ يوافيه فيفتك به ، وسهر ليلته ، وامتنع من الأكل والشرب ، فلم يزل على

تلك الحال إلى الغداة ، وبُغا يحرسه ، والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك ، وقد اتّهَم بُغا ، واستوحش من فعله . فلما عزم المتوكل على الانصراف قال له : يا بُغا ، قد أبتْ نفسي مكافاتك مني ، ورأيت أن أقلِّدك هذا الصُقْعَ (١) وأُقِرّ عليك ماكان لك من رزق وحِباء ونُزُل ومعونة وكل سبب ، فقال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين فافعل ما شئت ، وأمرني بما أحببت ، فخلّفه بالشام وانصرف ، فأحدثَ الموالي عليه ماأحدثوا ، فلم يعلم المتوكلُ وجهَ الحيلة . ولم يعلم كلٌ واحدٍ منهما الحيلةَ في ذلك إلى أن تمت الحيلة .

تدبير المؤامرة ضد المتوكل : قال : ولما عزم بُغا الصغير (٢) على قتل المتوكل دعا بباغر التركي ، وكان قد اصطنعه واتخذه وملأ عينه من الصِّلات ، وكان مقداماً أهوج ، فقال له : يا باغر أنت تعلم محبّتي لك ،

(١) الصقع : الناحية . وهو يقصد الشام .

(٢) بغا الصغير : هو بغا الشرابي : قائد تركي ، قاد حملة حربية على ثوار أذربيجان في عهد المتوكل . ثم تآمر مع وصيف على قتل المتوكل . قتله الخليفة المعتز سنة ٢٥٤ هـ .

وتقديمي إياك ، وإيثاري لك ، وإحساني إلياك ، وإني قد صرت عندك في حد من لايُعْصَى له أمر ، ولايخرج عن محبته ، وأريد أن آمرك بشيء فعرفني كيف قلبك فيه ، فقال : أنت تعلم كيف أفعل ، فقل لي ماشئت حتى أفعله ، قال : إن ابني فارسَ قد أفسدَ عليَّ عملي وعزم على قتلي وسَفْكَ دمي ، وقد صح عندي ذلك منه ، قال : فتريد مني ماذا ؟ قال : أريد أن يدخل علي غداً فالعلامة بيننا أن أضع قَلَنْسُوتي في الأرض فإذا أنا وضعتها في الأرض فاقتله ، قال : نعم ، ولكن أخاف أن يبدو لك أو تجد في نفسك علي ، قال : قد آمَنَكَ الله من ذلك ، فلما دخل فارسُ حضرَ باغرُ ووقفَ موقفَ الضارب ، فلم يزل يراعي بُغا أن يضع قلنسوته فلم يفعل ، وظن أنه نسي ، فغمزه بعينه أن افعل ؟ قال : لا ، فلما لم ير العلامة وانصرف فارس قال له بُغا : اعلم أني فكرت في أنه حَدث وأنه ولدي ، وقد رمت أن أستخلصه هذه المرة ، فقال له باغر : أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم وما دبرت وقدرت عليه فيه صلاحه ، ثم قال له : وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم فعرِّفني كيف تريد أن تكون فيه ، قال له :

قل ماشئت حتى أفعله ؛ قال : أخي وصيف قد صح عندي أنه يُدَبِّر علي وعلى رفقائي ؛ وأن مكاننا قد ثقل عليه ، وأنه عوّلَ على أن يقتلنا ويفنينا وينفرد بالأمور ؛ قال : فماذا تريد أن يصنع به ؟ قال : افعل هذا فإنه يصير إلى غد فالعلامة أن أنزل عن المصلّى الذي يكون معي قاعداً عليه فإذا رأيتني نزلت عنه فَضَعْ سيفَكَ عليه واقتلْه ؛ قال : نعم . فلما صار وصيف إلى بُغا حضرَ باغرْ وقام مقام المستعد . فلم ير العلامة حتى قام وصيف وانصرف . قال : فقال له بُغا : ياباغر ، إني فكرت في أنه أخي . وأني قد عاقدته وحلفت له ؛ فلم أستجز أن أفعل مادبَّرته ؛ ووصله وأعطاه ، ثم إنه أمسك عنه مدة مديدة ودعا به ، فقال : يا باغر ، قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التي قدمتها فكيف قلبك ؟ قال : قلبي على ماتحبُّ فقل ماشئت حتى أفعله . فقال : هذا المنتصر (١) قد صحَّ عندي أنه على إيقاع التدبير عليَّ وعلى غيري حتى يقتلَنا ، وأريد أن أقتله فكيف ترى نفسك في ذلك ؟ ففكر باغر في ذلك ونكسَ رأسَهُ طويلاً وقال : هذا لايجيء منه شيء ؛

(١) المنتصر : هو ابن المتوكل ، وسيرد ذكره مفصلا .

قال : وكيف ؟ قال يُقتَلُ الابنُ والأبُ باقٍ ؟ إذاً لايستوي لكم شيء ويقتلكُم أبوه كلكم به ، قال : فما ترى عندك ؟ قال : نبدأ بالأبِ أولاً فنقتله ، ثم يكونُ أمرُ الصبي أيسرَ من ذلك ، فقال له : ويحاك ويُفعَلُ هذا ويَتهيأ ؟ قال : نعم أفعلهُ وأدخلُ عليه حتى أقتلَهُ ، فجعل يرددّ عليه ، فيقول : لاتفعلْ غيرَ هذا ، ثم قال له : فادخل أنت في إثْري فإن قتلتُهُ وإلا فاقتلني وضَعْ سيفَكَ عليّ ، وقل : أراد أن يَقتُلَ مولاه ، فعلم بغا حينئذ أنه قاتلُهُ وتوجه له في التدبير في قتل المتوكل .

وفاة شجاع أم المتوكل : وفي سنة سبع وأربعين ومئتين توفيت شُجاعُ أمُّ المتوكل ، وصلّى عليها المنتصر ، وذلك في شهر ربيع الآخر .

مقتل المتوكل : ثم قُتِلَ المتوكِّلُ بعدَ وفاتها بستة أشهر ، ليلة الأربعاء لثلاث ساعات خلت من الليل ، وذلك لثلاثٍ خلَوْنَ من شوال سنة سبع وأربعين ومئتين ، وقيل : لأربع خلون من شوال سنةَ سبعٍ وأربعين .

وكان مولدهُ بفمِ الصلح . حدَّثَ البُحتُريُّ(١) قال : اجتمعنا ذاتَ ليلةٍ مع النُّدماء في مجلس المتوكل . فتذاكرنا أمرَ السيوف ، فقال بعضُ من حضر : بلغني ياأمير المؤمنين أنه وقع عندَ رجلٍ من أهل البصرة سيفٌ من الهند ليس له نظير ، ولم يُرَ مثلهُ ، فأمر المتوكل بكتاب إلى عامل البصرة يطالبه بشرائه بما بلَغَ ، فنفذت الكتبُ على البريد وورد جوابُ عاملِ البصرة بأن السيف اشتراه رجلٌ من أهل اليمن ، فأمر المتوكل بالبعثِ إلى اليمن يطلب السيفَ وابتياعَه ، فنفذتِ الكتبُ بذلك . قال البحتري : فبينا نحنُ عند المتوكل إذ دخل عليه عبيدُ الله بن يحيى والسيفُ معه ، وعرَّفه أنه ابتيعَ من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم ، فسُرَّ بوجوده ، وحَمِدَ اللهَ على ما سَهلَ من أمره ، وانتضاهُ (٢) فاستحسنَه . وتكلَّم كلٌّ واحدٍ منا بما يُحب ، وجعله

---

(١) البحتري : هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي ، أبوعبادة : شاعر كبير من شعراء العصر العباسي .ولد بمنبج ، ورحل إلى العراق ، ثم اتصل بالمتوكل وكانت له حظوة عنده . توفي بمنبج . (٢٠٦ — ٢٨٤ هـ) .

(٢) انتضاه : استله .

تحت ثِنْيِ فراشه ، فلما كان من الغداة قال للفتح : اطلب لي غلاماً تثق بنجدته وشجاعته أدفع له هذا السيف ليكونَ واقفاً به على رأسي لايفارقني في كل يوم مادمتُ جالساً ، قال : فلم يستتمَّ الكلامَ حتى أقبل باغرُ التركي فقال الفتح : ياأميرَ المؤمنين ، هذا باغرُ التركي قد وُصِفَ لي بالشجاعة والبسالة ، وهو يَصْلُحُ لما أراد أميرُ المؤمنين ، فدعا به المتوكلُ ، فدفع إليه السيف ، وأمره بما أراد ، وتقدَّمَ أن يُزادَ في مرتبته ، وأن يُضَعَّفَ له الرزقَ ؛ قال البحتري : فوالله ماانتضي ذلك السيفُ ولا خَرَجَ من غِمده من الوقت الذي دُفِعَ إليه إلا في الليلة التي ضربَه فيها باغرُ بذلك السيف .

قال البحتري : لقد رأيتُ من المتوكل في الليلة التي قُتِلَ فيها عَجَباً ، وذلك أننا تذاكرنا أمر الكِبْر ، وما كانت تستعمله الملوك من الجَبْرية ، فجعلنا نخوضُ في ذلك وهو يتبرَّأ منه ، ثم حَوَّل وجهَهُ إلى القبلة فسجدَ وعفَّرَ وجهَهُ بالتراب خُضوعاً لله عز وجل ، ثم أخذ من ذلك التراب فنثرهُ في لحيته ورأسه ، وقال : إنما أنا عبدُ الله ، وإنَّ من صار إلى التراب لحقيقٌ أن يتواضع

ولايتكبر ، قال البحتري : فتطيَّرت (١) له من ذلك ، وأنكرت مافعله من نثره التراب على رأسه ولحيته ، ثم قعد للشراب ؛ فلما عَمِلَ فيه غنّى من حضره من المغنين صوتاً استحسنه ، ثم التفت إلى الفتح فقال : يافتحُ ؟ مابقي أحدٌ سمعَ هذا الصوتَ من مُخارِق(٢) غيري وغيرك ؛ ثم أقبل على البكاء . قال البحتري : فتطيرتُ من بكائه . وقلت : هذه ثانية ؛ فإنا في ذلك إذ أقبل خادمٌ من خدَمِ قبيحةَ ومعه منْديل وفيه خِلْعَةٌ وَجّهتْ بها إليه قبيحة ؛ فقال له الرسول : ياأمير المؤمنين تقول لك قبيحة : إني استعملتُ هذه الخلعة لأمير المؤمنين واستحسنتُها ووجهتُ بها لتلبسَها . قال : فإذا فيه درّاعة حمراء لم أرَ مثلَها قطّ ، ومُطْرَفُ (٣) خز أحمر كأنه دبيقي (٤) من

(١) تطيرت : تشاءمت .

(٢) مخارق : هو أبوالمهنأ بن يحيى الجزار : إمام عصره في فن الغناء ، ومن أطيب الناس صوتاً . اتصل بالرشيد والمأمون وتوفي بسر من رأى سنة ٢٣١ هـ .

(٣) المطرف : رداء من خز .

(٤) الثوب الدبيقي : منسوب إلى دبيق : بلد بمصر تصنع فيه الثياب الدبيقية .

رقته ، قال : فلبس الخلعة والتحف بالمطرف ، قال البحتري : فتصيدت لأبدره بنادرة تكون سبباً لأخذ المطرف فإني على ذلك إذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التف عليه المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه إلى طرفه ، قال : فأخذه ولفه ودفعه إلى خادم قبيحة الذي جاءه بالخلعة ، وقال : قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفناً لي عند وفاتي ، فقلت في نفسي : إنا لله وإنا إليه راجعون ، انقضت والله المدة ، وسكر المتوكل سكراً شديداً ، قال : وكان من عادته أنه إذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه ، قال : فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء تلك الشمع ، فهجموا علينا ، وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير ، فصاح بهم الفتح : ويلكم ! ! مولاكم ، فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضراً من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم ، فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم ، قال البحتري : فسمعت

صيحةَ المتوكل وقد ضربه باغرُ بالسيف الذي كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الإيمن : فقدّه إلى خاصرته ، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك . وأقبل الفتح يمانعهُم عنه فبعجَهُ واحدٌ منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من مَتْنه ،وهو صابرٌ لايتنحّى ولا يزول قال البحتري : فما رأيتُ أحداً كان أقوى نَفْساً ولا أكرمَ منه ، ثم طرح بنفسه على المتوكل ، فماتا جميعاً ، فَلُفّا في البساط الذي قُتِلا فيه . وطُرِحَا ناحيةً ، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر ، فأمرَ بهما فدُفِنَا جميعاً ، وقيلَ : إن قبيحة كفّنته بذلك المطرف المخرّق بعينه . وقد كان بُغا الصغير تَوحّش من المتوكل فكان المنتصرُ يجتذب قلوبَ الأتراك ، وكان أوتامش غلام الواثق مع المنتصر ، فكان المتوكل يبغضه لذلك . وكان أوتامش يجتذبُ قلوبَ الأتراك إلى المنتصر وعُبيدُ الله بنُ خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفَين عن المنتصر مائلَين إلى المعتز وكانا قد أوْغَرَا قلبَ المتوكل على المنتصر . فكان المنتصر لايبعد المتوكّلُ أحداً من الأتراك إلا اجتذبه ، فاستمال قلوبَ الأتراك

وكثيراً من الفراغنة والأشروسية ، إلى أن كان من الأمر ماذكرناه ،وقد ذُكِرَ في كيفية قتلِ المتوكل غيرُ ماذكرنا ، وهذا مااخترناه في هذا الموضع ، إذ كان أحسنَ ألفاظاً وأقربَ مأخذاً ، وقد أتينا على جميع ماقيلَ في ذلك في الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن تكراره في هذا الكتاب .

ولم يكن المتوكل يوماً أشد سروراً منه في اليوم الذي قتل فيه ، فلقد أصبح في هذا اليوم نشيطاً فرحاً مسروراً ، وقال : كأني أجد حركة الدم ، فاحتجم في ذلك اليوم ، وأحضر الندماء والملهين ، فاشتد سروره ، وكثر فرحه ، فانقلب ذلك الفرح ترحاً والسرور حزناً . فمن ذا الذي يغتر بالدنيا ، ويسكن إليها ، ويأمن الغدر والنكبات فيها إلا جاهل مغرور ، فهي دار لايدوم نعيمها ، ولايتم فيها سرور ، ولايؤمَنُ فيها محذور ، قد قُرِنت منها السرَّاءُ بالضَّرَّاء ، والشدَّةُ بالرخاء ، والنعيمُ بالبلوى ، ثم يتبعها الزوالُ ، فمع نعيمها البؤسُ ، ومع سرورها الحزنُ ، ومع محبوبها المكروه ، ومع صحتها السَّقَمُ ، ومع حياتها الموتُ ، ومع فرحاتها الترحاتُ ، ومع لذاتها

الآفاتُ ، عزيزُها ذليل ، وقويها مستهين ، وغنيُّها محروب(١) ، وعظيمها مساوب . ولايبقى إلا الحيُّ الذي لايموت ولايزول ملكه وهو العزيز الحكيم ، وفي ذلك يقول البحتري في غَدْرِ المنتصر بأبيه ، وفتكه به ، من قصيدة له :

أكان وَليُّ العهدِ أَضْمرَ غَــــدْرَةً
فمن عَجَبٍ أن وُلِّيَ العهدَ غــادرُهْ

فلا مُلِّيَ الباقي تراثَ الذي مضى
ولا حملت ذاك الدعــاءَ منابرُهْ(٢)

وصف أيام المتوكل : وكانت أيامُ المتوكل في حُسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحَمْدِ الخاصِّ والعامِّ لها ورضاهم عنها أيامَ سَرّاء لاضرّاء ، كما قال بعضهُم : كانت خلافةُ المتوكل أحسنَ من أمْنِ السبيلَ ، ورخْصَ السعرَ ، وأمانيَّ الحبِ ، وأيامَ الشباب ، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

---

(١) محروب : مسلوب الغنى .

(٢) فلا ملي الباقي . . : لا متع به .

قُربُكَ أشهى مَوقعاً عندنا
من لَيِّنِ السعرِ وأَمْنِ السبيل

ومن ليالي الحبِّ موصولةً
بطيبِ أيامِ الشبابِ الجميل

قال المسعودي : وقد قيلَ : إنه لم تكن النفقاتُ في عَصْرٍ من الأعصار ولا وقتٍ من الأوقات مثلَها في أيام المتوكل .

ويقال : إنه أنفق على الهارونيِّ والجوسَق الجعفريّ(١) أكثرَ من مئة ألف ألف درهم ، هذا مع كثرةِ الموالي والجندِ والشاكريَّة (٢) ودورِ العطاء لهم وجلائلِ ما كانوا يقبضونه في كل شهر من الجوائز والهبات .

ويقال : إنه كانَ له أربعةُ آلافِ سَرِيَّةٍ وطئهن كلَّهن ، ومات وفي بيوت الأموالِ أربعةُ آلافِ ألفِ دينار وسبعةُ آلافِ ألفِ درهم ، ولا يُعْلَمُ أحدٌ في

(١) الهاروني والجعفري : من قصور المتوكل .
(٢) الشاكرية : ج شاكري : الأجير والمستخدم : معرب جاكر .

صناعته في جِدّ ولاهَزْلٍ إلا وقد حَظِيَ في دولته ، وسَعِدَ بأيامه ، ووصَلَ إليه نصيبٌ وافرٌ من ماله .

من رثاء المتوكل : ولما قُتِلَ المتوكلُ رثته الشعراءُ : فمِمَّن رثاه عَليُّ بنُ الجهْم ، فقال من قصيدة له :

عبيدُ أميرِ المؤمنين قتَلْنَهُ
وأعظمُ آفاتِ الملوكِ عبيدُها

بني هاشمٍ ، صبراً فكلُّ مُصيبةٍ
سيَبلى على وجهِ الزمان جديدُها

* * *

قال المسعودي : وللمتوكّل أخبارٌ وسِيَرٌ حِسانٌ غير ماذكرنا . وقد أتينا عليها على الشرح والإيضاح في كتابنا « أخبار الزمان » واللهُ الموفِّق للصَّواب .

ذكر خلافة المنتصر بالله

موجز : وبويع محمدُ بنُ جعفرٍ المنتصرُ في صبيحة الليلة التي قُتِلَ فيها المتوكلُ ، وهي ليلة الأربعاء لثلاث خلَوْن من شوال سنة سبع وأربعين ومئتين ، ويُكَنَّى

بأبي جعفر ، وأمه أمُّ ولد يقال لها حَبَشِيَّة ، رومية ، واستُخلِف وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكانت بَيْعته بالقصر المعروف بالجعفريّ الذي أحْدثَ بناءَه المتوكل ، ومات سنةَ ثمانٍ وأربعين ومئتين ، وكانت خلافته ستَّةَ أشهُرٍ .

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

الموضع الذي قتل فيه المتوكل : كان الموضعُ الذي قُتِلَ فيه المتوكِّلُ هـو الموضع الذي قَتَلَ فيه شِيرَوَيْه أباه كسرى أبرويز ، وكان الموضعُ يعرف بالماخورة ، وكان مقامُ المنتصر بعد أبيه في الماخورة سبعةَ أيام ، ثم انتقل عنه وأمَرَ بتخريب ذلك الموضع .

وحُكِيَ عن أبي العباس محمد بن سهل قال : كنت أكتب لعتّاب بن عتّاب على ديوان جيش الشاكرية في خلافة المنتصر ، فدخلت إلى بعض الأروقة ، فإذا هو مفروش ببساط سُوسَنْجِرد(١) ومسْنَد ومُصَلَّى ووسائد

---

(١) سوسنجرد : من قرى بغداد . ولعل هذا النوع من البسط منسوب إليها .

بالحمرة والزرقة ، وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية ، وكنت أحسن القراءة بالفارسية . وإذا عن يمين المُصَلّى صورة ملك . وعلى رأسه تاج كأنه ينطق ، فقرأت الكتابة فإذا هي « صورة شيرويه القاتل لأبيه أبرويز الملك ، مَلَكَ ستة أشهر » ثم رأيتُ صورَ ملوكٍ شتّى . ثم انتهى بي النظرُ إلى صورة عن يَسار المُصَلّى عليها مكتوب « صورةُ يزيدَ بنِ الوليد ابن عبدِ الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ملك ستة أشهر » فتعجبت من ذلك واتفاقه عن يمينِ مقعد المنتصر وعن شماله فقلت : لا أرى يدوم مُلكُه أكثرَ من ستةِ أشهر ، فكان والله كذلك ، فخرجت من الرواق إلى مجلس وَصيف وبُغا ، وهما في الدار الثانية . فقلت لوصيف : أعجزَ هذا الفَرّاشُ أن يفرشَ تحتَ أميرِ المؤمنين إلا هذا البساط الذي عليه صورةُ يزيد بن الوليد قاتلِ ابن عمه وصورةُ شيرويه قاتل أبيه أبرويز . وعاشا ستة أشهر بعدما قَتَلا . فجزعَ وصيفٌ من ذلك وقال : عليّ بأيوب بن سليمان النصراني خازن الفرش . فمثلَ بين يديه ، فقال له وصيف : لم تجد ما يُفرَش في

هذا اليوم تحتَ أمير المؤمنين إلا هذا البساط الذي كان تحتَ المتوكل ليلةَ الحادثة وعليه صورةُ ملك الفرس وغيره ، وقد كان نالته آثارٌ من الدماء ؟ قال : سألني أميرُ المؤمنين المنتصرُ عنه ، وقال : مافعل البساط (١) ؟ فقلت : عليه آثارُ دماء فاحشة ، وقد عزمتُ أن لا أفرشَهُ من ليلة الحادثة ، فقال : لم لاتَغسلُهُ وتَطويه ؟ فقلت : خشيتُ أن يشيعَ الخبرُ عند من يرى ذلك البساطَ من أثر الحادثة ، فقال : إن الأمرَ أشهرُ من ذلك ، يريدُ قتلَ الأتراك لأبيه المتوكل ، فطويناه وبسطناه تحته ، فقال وصيفُ وبُغا : إذا قام أميرُ المؤمنين من مجلسه فخذه وأحرقْه بالنار ، فلما قام أحرقَ بحضرة وصيف وبُغا ، فلما كان بعد أيام قال لي المنتصر : افرشْ ذلك البساط الفلاني ، قلت : وأين ذلك البساطُ ؟ فقال : وما الذي كان من أمره ؟ فقلت : إنّ وصيفاً وبُغا أمراني بإحراقه ، قال : فسكتَ ولم يعد في أمره شيئاً إلى أنْ مات .

مرض المنتصر وموته : وقد ذكر جماعة من

---

(١) في نسخة : مافعل بالبساط .

أصحاب التواريخ أن المنتصرَ ضربتهُ الريحُ يومَ الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول ؛ ومات مع صلاة العصر لخمسٍ ليالٍ خلَوْنَ من ربيع الآخر . وصلّى عليه أحمد بن محمد المستعين . وكان أوّلَ خليفة من بني العباس أُظهرَ قبرهُ ، وذلك أن أمه حبشية سألت ذلك ، فأُذِنَ لها ، وأظهرته بسامُرّا .

الخلاف في سبب موت المنتصر : وقد قيل : إن الطيفوري الطبيب سَمَّه في مشرط حَجَمَه به ، وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك ؛ فأخرج وصيفاً في جمع كثير إلى غَزَاةِ الصائفة بطَرَسُوسَ (١) ؛ ونظر يوماً إلى بُغا الصغير ؛ — وقد أقبل في القصر ، وحوله جماعة من الاتراك — فأقبل على الفضل بن المأمون ؛ فقال : قتلني الله إن لم أقتلْهم وأفرّق جمعَهم ، بقتلهم المتوكل على الله ، فلما نظرتِ الأتراك إلى مايُفعلُ بهم ، وما قد عزَم عليه ، وجدوا منه الفُرصة .

---

(١) طرسوس : من مدن الثغور متاخمة للحدود البيزنطية . وغزاة الصائفة : غزوة الروم لأنهم كانوا يغزون صيفاً بسبب البرد والثلج .

وقد شكا ذاتَ يومٍ حرارةً فأراد الحجامةَ ، فخرج له من الدم ثلاث مئة درهم(١)، وشَرِبَ شَرْبةً بعد ذلك فحالّت قواه ، ويقال : إن السُّمَّ كان في مِبْضَعِ الطبيب حين فصَدَهُ .

وقد ذَكَرَ ابنُ أبي الدُنيا ، عن عبد الملك بن سليمان ابن أبي جعفر ، قال : رأيت في نومي المتوكل والفتح ابن خاقان ، وقد أحاطت بهما نار ، وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما ، فمنع الوصول ، ثم أقبل المتوكل عليَّ فقال : ياعبد الملك قل لمحمد : بالكأس الذي سقيتنا تشرب ، قال : فلما أصبحت غدوت على المنتصر فوجدته محموماً ، فواظبت على عيادته ، فسمعته في آخر علته يقول : عَجِلْنا فعوجلنا . فمات من ذلك المرض .

من صفات المنتصر : وكان المنتصر واسع الاحتمال ، راسخ العقل ، كثير المعروف ، راغباً في الخير سخياً ، أديباً ، عفيفاً ، وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق ،

---

(١) ذكر العلامة حسني عبد الوهاب في تعليقه على كتاب التبصر بالتجارة المنسوب للجاحظ : أن وزن الدرهم الشرعي يساوي ثلاثة غرامات وخمسة عشر سنتيغرام .

وكثرة الإنصاف ، وحسن المعاشرة ، بما لم يسبقه خليفة إلى مثله .

وكان وزيره أحمد بن الخصيب قليل الخير ، كثير الشر ، شديد الجهل .

صنيع المنتصر بآل أبي طالب : وكان آل أبي طالب قبل خلافته في محنة عظيمة ، وخوف على دمائهم ، قد مُنعوا زيارة قبر الحسين والغريّ (١) من أرض الكوفة ، وكذلك منع غيرهم من شيعتهم حضور هذه المشاهد ، وكان الأمر بذلك من المتوكل سنة ست وثلاثين ومئتين وفيها أمر المعروف بالديزيج بالسير إلى قبر الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما وهَدْمِه ومَحْوِ أرضه وإزالة أثره ، وأن يعاقب من وجد به ، فبذل الرغائب لمن تقدم على هذا القبر ، فكلٌّ خشي العقوبة ، وأحْجَمَ ، فتناول الديزيج مِسْحاة وهدم أعالي قبر الحسين ، فحينئذ أقدم الفَعَلَة فيه ، وأنهم انتهوا إلى الحفرة وموضع اللحد فلم يَرَوا فيه أثر رمَّة ولا غيرها ، ولم تزل الأمور على ماذكرنا

---

(١) الغري : بناء كالصومعة بظاهر الكوفة قرب قبر علي بن أبي طالب .

إلى أن استخلف المنتصر ، فأمَّن الناسَ . وتقدَّم بالكف عن آل أبي طالب ، وتَرْكِ البحث عن أخبارهم ، وأن لايُمنَعَ أحدٌ زيارةَ الحيرةِ لقبر الحسين رضي الله تعالى عنه ، ولاقبر غيره من آل أبي طالب ، وأمر برد فدَكَ(١) إلى ولد الحسن والحسين ، وأطْلَقَ أوقاف آل أبي طالب ، وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم ، وفي ذلك يقول البحتري من أبيات له :

وإنَّ علياً لأوْلى بكم
وأزكى يَداً عندَكم من عمر
وكلٌّ له فَضْلُهُ ، والحجو
لُ يوم التراهُنِ دونَ الغُرُرَ

خلع أخويه من ولاية العهد : وفي سنة ثمانٍ وأربعين ومئتين خلَعَ المنتصرُ بالله أخويه المعتزَّ وإبراهيمَ من ولاية العهد بعده ، وقد كان المتوكِّلُ على الله أخذَ لهم العهدَ في كتبٍ كتبها وشروط اشترطها ، وأفرد لكل واحد منهم

---

(١) قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان كان يتوارثها ولد الحسن والحسين . وقد اختلف في ملكيتها .

جزءاً من الأعمال رسمه له ؛ وجعلَ وليّ عهده والتالي للملك محمداً المنتصر ، وتالي المنتصر ووليّ عهده المعتز ، وتالي المعتز وولي عهده إبراهيم المؤيد ، وأخذت البيعة على الناس بما ذكرنا ، وفرقَ فيها أموالاً وعمّ الناس بالجوائز والصِّلات ، وتكلمت في ذلك الخطباء ، ونطقت به الشعراء ، فمما اختير من قولهم في ذلك قول مروان ابن أبي الجنوب من قصيدة :

ثلاثة أملاك ؛ فأما محمد
فنور هُدىً يَهْدي به الله من يهدي

وأما أبو عبدِ الإله فإنه
شبيهُكَ في التقوى ويُجْدي كما تجدي

وذو الفضل إبراهيمُ للناس عِصْمَةٌ
تَقِيٌّ وفيٌّ بالوعيد وبالوعد

فأولهم نور ، وثانيهم هُدى ؛
وثالثهم رشد ، وكلُّهم مَهْدي

قال المسعودي : وللمنتصر بالله أخبار حسان وأشعار ومُلَحٌ ومنادمات ومكاتبات ومراسلات قبل الخلافة ،

وقد أتينا على مبسوطها وما استحسنّاه منها مما لم نورده في هذا الكتاب في كتابنا « أخبار الزمان » من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة ، وكذلك في الكتاب الأوسط ؛ إذ كنا ماضمناه كل كتاب منها لم نتعرض لذكره في الآخر ، ولو كان كذلك لم يكن بينها فرق ، وكان الجميع واحداً ، وسنورد بعد فراغنا من هذا الكتاب كتاباً نُضَمِّنُهُ فنوناً من الأخبار على غيرِ نَظْمٍ من التأليف ، ولا ترتيبٍ من التصنيف على حسب مايَسْنَحُ من فوائد الأخبار ونخلّاه بالآداب وفنون الآثار ، تالياً لما سلف من كتبنا ، ومُعقباً لما تقدَّم من تصنيفنا ؛ إن شاء الله تعالى .

ذكر خلافة المستعين بالله

موجز : وبويع أحمدُ بن محمد بن المعتصم في اليوم الذي توفي فيه المنتصر ، وهو يوم الأحد لخمسٍ خلَونْ من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومئتين ، ويكنى بأبي العباس ، وكانت أمه أم ولد صقلبية يقال لها مخارق ، وخلع نفسه ، وسلم الخلافة إلى المعتز ، فكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وقيل : ثلاث سنين

وتسعة أشهر ، وكانت وفاته يوم الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة اثنتين وخمسين ومئتين ، وقتل وهو ابن خمس وثلاثين سنة .

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه وكتابه : واستوزر المستعينُ بالله أبا موسى أوتامش ، وكان المتولي لأمر الوزارة والقيم بها كاتباً لأوتامش يقال له شُجاعُ بنُ القاسم ، وبعد أن قتل أوتامش وكاتبه شجاع صار على وزارته أحمد بن صالح بن شيرزاد ، ولما قتل وصيف وبُغا باغرَ التركي تعصبت الموالي ، وانحدر وصيف وبُغا إلى مدينة السلام ، والمستعين معهما ، فأنزلاه دار محمد بن عبدالله بن طاهر ، وذلك في المحرم سنة إحدى وخمسين ومئتين ، والمستعين لا أمْرَ له ، والأمر لبُغا ووصيف، وكان من حصار بغداد ماذكرناه في الكتاب الأوسط ، وفي المستعين بالله يقول بعض الشعراء في هذا العصر :

خليفةٌ في قفصٍ بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالا لـه كما يقولُ الببَّغا

وقد كان المستعين نفى أحمد بن الخصيب إلى إقريطش سنة ثمان وأربعين ومئتين . ونفى عبيد الله بن يحيى ابن خاقان إلى برقة . واستوزر عيسى بن فرخانشاه ، وقلّد سعيد بن حميد ديوان الرسائل .

سعيد بن حميد : وكان سعيد حافظاً لما يستحسن من الأخبار ، ويستجاد من الأشعار ، متصرفاً في فنون العلم ، ممتعاً إذا حدّث ، مفيداً إذا جُولس ، وله أشعار كثيرة حسان ؛ فمما يستحسن ويختار من شعره قوله :

وكنت أخوّفه بالدعاء وأخشى عليه من المأثمِ

فلما أقام على ظلمه تركت الدعاء على الظالمِ

وقوله :

أسيدتي مالي أراكِ بخيلةً

مقيمٌ على الحرمان مَنْ يستزيدها

فأصبحتِ كالدنيا نذمّ صروفها

ونتبعها ذمّاً ونحن عبيدها

وقوله :

الله يعلمُ والدنيا مُوَلِّيَةٌ
والعيشُ منتقلٌ ، والدهرُ ذو دُوَل

فالفراق وإن هاجت فجيعتُهُ
عاياك أخوفُ في قابي من الأجل

وكنت أفرحُ بالدنيا ولذتها
واليأس يحكم للأعداء في الأمل

ظهور يحيى بن عمر الطالبي : وظهر في هذه السنة ــ وهي سنة ثمان وأربعين ومئتين ــ بالكوفة أبوالحسن يحيى ابن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الطيار ؛ وأمه فاطمة بنت الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب الطيار وقيل : إن ظهوره كان بالكوفة سنة خمسين ومئتين ؛ فقُتِلَ وحُمِل رأسُهُ إلى بغداد ؛ وصُلِبَ ، فضجَّ الناسُ من ذلك ؛ لما كان في نفوسهم من المحبة له ؛ لأنه استفتح أموره بالكَفِّ عن الدماء ، والتورُّع عن أخذ شيء من أموال الناس ، وأظهر العدل

والإنصاف ، وكان ظهوره لِذُلٍّ نزل به ، وجَفْوةٍ لحقته ، ومحنةٍ نالته من المتوكل وغيره من الأتراك ؛ ودخل الناس إلى محمد بن عبدالله بن طاهر (١) يهنئونه بالفتح ، ودخل فيهم أبوهاشم الجعفري — وهو داود ابن القاسم بن إسحاق بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ؛ بينه وبين جعفر الطيار ثلاثة آباء — ولم يكن يعرف في ذلك الوقت أقعد نسباً في آل أبي طالب وسائر بني هاشم وقريش منه ، وكان ذا زهْدٍ وَوَرَعٍ ونُسْكٍ وعِلْمٍ ، صحيح العقل ، سليم الحواس ، منتصب القامة ، وقبره مشهور ، وقد أتينا على خبره وما روي عنه من الرواية عن أبيه ومَنْ شاهد من سلفه ، في كتاب « حدائق الأذهان » في أخبار آل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لابن طاهر : أيها الأمير ، إنك لتهنأ بقتل رجل لوكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً لعُزِّيَ به ، فلم يجبه محمد ، وخرج من داره وهو يقول : يابني طاهر ، البيتين ، وقد كان

(١) محمد بن عبدالله بن طاهر الخزاعي : أمير حازم . ولي نيابة بغداد في أيام المتوكل . كان أديباً جواداً توفي ببغداد . (٢٠٩ — ٢٥٣ هـ) .

المستعينُ أمرَ بنصب الرأس ، فأمرَ ابنُ طـاهر بإنزاله لما رأى من الناس وماهم عليه ، وفي ذلك يقول أبو هاشم الجعفري :

يابني طاهـرٍ كُلُـوه وبيـاً (١)
إنَّ لحمَ النـبي غـيرُ مَرِيٍّ

إنَّ وِتْراً يكـون طالبـه اللّـ
ـه لوِتْرٌ بالفوْتِ غيرُ حَرِيٍّ (٢)

بين محمد بن طاهر وأبي العباس المكي : وقال أبوالعباس المكي : كنت أنادم محمد بن طاهر بالري قبل مواقعته الطالبيين فما رأيته في وقت من الأوقات أشد سروراً منه،ولا أكثر نشاطاً قبل ظهور العلوي (٣) بالري ، وذلك في سنة خمسين ومئتين ؛ وقد كنت عنده ليلةً أتحدث ،

---

(١) الوبيء : ماكثر فيه الوباء .

(٢) الوتر : الثأر . والمقصود : إن ثأره غير جدير بالفوت لأن الله طالبه .

(٣) هو أحمد بن عيسى بن علي : من ال علي بن أبي طالب حارب محمد بن طاهر بالري وهزمه فسار ابن طاهر إلى بغداد وذلك سنة ٢٥٠ .

والخير وافد، والستر مُسْبَل إذ قال : كأني أشتهي الطعام فما آكل ؟ قلت : صدر درّاج ؟ أو قطعة من جَدْيٍ باردة ؟ قال : ياغلام ، هات رغيفاً وخلاً وملحاً ، فأكل من ذلك ، فلما كان في الليلة الثانية قال : ياأبا العباس ، كأني جائع فما ترى أن آكل ؟ قلت : ماأكلت البارحة ، فقال : أنت لاتعرف فرقَ مابين الكلامين ، قلت البارحة : كأني أشتهي الطعام ، وقلت الليلة : كأني جائع ، وبينهما فرق ، فدعا بالطعام ، ثم قال لي : صف لي الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل ، قلت : أيكون ذلك منثوراً أو منظوماً ؟ قال : لا ، بل منثوراً ، قلت : أطيبُ الطعام مالقي الجوعَ بطعمٍ وافق شهوةً ، قال : فما أطيب الشراب ؟ قلت : كأسُ مدامٍ تُبرّدُ بها غليلاتك ، وتُعاطي بها خلالك ، قال : فأي السماع أفضل ؟ قلت : أوتارٌ أربعة ، وجارية متربعة ، غناؤها عجيب ، وصوتُها مُصيب ، قال : أيُّ الطيبِ أطيبُ ؟ قلت : ريحُ حبيبٍ تُحبُّه ، وقربُ ولد تربُّه (١) ، قال : فأي النساء أشهى ؟ قلت : من تخرجُ من عندها كارهاً ،

---

(١) تربه : أي تربيه .

وترجعُ إليها والهاً ، قال : فأي الخيل أفْرَهُ ؟ قلت : الأشدق الأعين (١) الذي إذا طُلب سَبق ، وإذا طَلب لحق ، قال : أحسنت ، يابشر أعطه مئة دينار ، قلت : وأين تقع مني مئتا دينار ؟ قال : أو قد زدت نفسك مئة دينار ؟ ياغلام أعطه المئة كما ذكرنا ، والمئة الأخرى لحسن ظنه بنا ، فانصرفت بمئتي دينار ، فما كان بين هذا الحديث وبين تنحيه من الري إلا جمعة .

معرفة المستعين بالأخبار : وكان المستعين حسن المعرفة بأيام الناس وأخبارهم ، لَهِجاً بأخبار الماضين .

عُروة بن حِزَام: وحدث محمد بن الحسن بن دريد(٢) قال : أخبرني أبو البيضاء مولى جعفر الطيار ، وكان طيب الحديث ، قال : وفدنا في أيام المستعين من المدينة إلى سامرا وفينا جماعة من آل أبي طالب وغيرهم من

---

(١) الأشدق الأعين : الواسع الشدق والعينين .

(٢) هو أبوبكر الأزدي ، من أئمة اللغة والأدب . وهو من العلماء الشعراء . ولد في البصرة وهو صاحب المقصورة الدريدية المشهورة في مدح ال ميكال . له تصانيف منها : « الاشتقاق » و « الجمهرة في اللغة » . توفي ببغداد . (٢٢٣ - ٣٢١) هـ .

الأنصار . فأقمنا ببابه نحواً من شهر ، ثم وصلنا إليه ، فكلٌّ تكلم وعبَّر عن نفسه فقرب وآنس . وابتدأ بذكر المدينة ومكة وأخبارهما . وكنت أعْرَفَ الجماعة بما شرع فيه . فقلت : أيأذن أمير المؤمنين في الكلام ؟ قال : ذلك إليك . فشرعت معه فيما قصد إليه ، وتسلسل بنا الكلام إلى فنون من العلم في أخبار الناس ، ثم انصرفنا ، وأقيم لنا الإنزال والإفضال ، فلما كان في أول الليل أتانا خادم ومعه عدة من الأتراك وفرسان ، فحملت على جنيبة (١) كانت معهم ، وأتي بي إلى المستعين ، فإذا هو جالس في الجوسق ، فقربني وأدناني ، ثم أخذ بعد أن آنس في أخبار العرب وأيامها ، وأهل التَّتَيُّم . فانتهى بنا الكلام إلى أخبار العُذْريين والمتيمين ، فقال لي : ماعندك من أخبار عُرْوة بن حِزَام(٢) ، وما كان منه مع عَفراء ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين . إن عروة بن حزام

(١) الجنيبة : الراحلة تساير القوم إلى جانبهم .

(٢) عروة بن حزام : من بني عذرة : شاعر من متيمي العرب . هام بابنة عمه عفراء وحيل بينهما فأضناه الحب فمات ودفن بوادي القرى نحو سنة ٣٠ هـ . له ديوان شعر .

لما انصرف من عند عَفْراء بنت عقال توفي وَجْداً بها وصبابة إليها ، فمر به ركب فعرفوه ؛ فلما انتهوا إلى منزل عفراء صاح صائح منهم :

ألا أيها القصرُ المغفـــلُ أهلُـــهُ
نَعينا إليكـــم عُروةَ بنَ حِـــزامِ

ففهمت صوته ، وأشرفت عليه وقالت :

ألا أيهـــا الركب المجـــدون وَيْحَـــكم
بحقٍ نعيتُـــم عُروةَ بنَ حـــزام ؟

فأجابها رجلٌ من القوم فقال :

نعم قد تركناه بأرضٍ بعـــــيدة
مُقيمـــاً بها في سَبسَبٍ وإكام (١)

فقالت لهم :

فإن كان حقـــاً مـــاتقولـــون فاعلموا
بأن قد نَعيتُم بـــدرَ كلّ ظـــلام

---

(١) السبسب : المفازة أو الأرض البعيدة والمستوية . والإكام : جمع أكمة : التل أو الأرض المرتفعة .

فلا لقِـــيَ الفتيـــانُ بعـــدك لَـذَّةً
ولا رَجعـــوا من غَـيبـــةٍ بسلام

ولا وضعت أنثى شريفـــاً كمثله
ولا فَرحَـــتْ من بعـــده بغلام

ولا لابلغـــتُمْ حيثُ وجهتُمُ له
ونُغِّصـــتُم اللذاتِ كلَّ طعام

ثم سألتهم : أين دفنوه ؟ فأخبروها ، فصارت إلى قبره . فلما قاربته قالت : أنزلوني فإني أريدُ قضاء حاجة ؛ فأنزلوها فانسلت إلى قبره فأكبَّت عليه فما راعهم إلا صوتُها ، فلما سمعوه بادروا إليها : فإذا هي ممتدَّةٌ على القبر قد خرجت نفسُها فدفنوها إلى جانب قبره .

حديث عن مجنون بني عامر : قال المسعوديُّ : ولمن سلَفَ من المتيَّمين أخبارٌ عجيبة ، وأشعارٌ حسان ، فمن ذلك ماحدثنا به أبوخليفة الفضلُ بنُ الحباب الجُمحيّ القاضي ، قال : حدثنا محمَّدُ بنُ سلام الجُمحي (١) ،

---

(١) من أئمة الأدب ، من أهل البصرة له تصانيف منها : « طبقات فحول الشعراء » . و « بيوتات العرب » مات ببغداد . (١٣٩ - ٢٣١) هـ .

قال : أخبرني أبو الهياج بن سابق النجدي . ثم الثقفي .
قال : خرجت إلى أرض بني عامر لا لشيء إلا للقاء المجنون .
فإذا أبوه شيخ كبير . وإذا إخوته رجال . وإذا نِعَمٌ
ظاهرة وخيرٌ كثير . فسألتهم عن المجنون . فاستعبروا ،
وقال الشيخ : كان والله أبرَّ هؤلاء عندي ، فهوي امرأةً
من قومه ، والله ما كانت تطمع في مثله ، فلما عُرِفَ
أمرُه وأمرُها كَرِهَ أبوها أن يُزوِّجَها منه ، فزوَّجَها
من رجل آخر ، فقيَّدناه . فكان يعض شفتيه ولسانه
حتى خشينا أن يقطعهما ، فلما رأينا ذلك خلَّينا سبيلَه ،
فمرَّ في هذه الفيافي يُذهَبُ إليه في كل يوم بطعامه فيوضع
له بحيثُ يراهُ فإذا عاينَه جاءَ فأكل ، وإذا خَلَقت ثيابهُ
جاؤوه بثياب ، فوُضعت بحيث يراها ، فسألتهم أن
يدلُّوني عليه ، فدلُّوني على فتى من الحي ، وقالوا :
إنه لم يزل صديقاً له ، وليس يأنسُ بأحدٍ سواه ، فسألته
أن يدلَّني عليه ، فقال : إن كنت تريدُ شعرَه فكلُّ شعرِه
عندي إلى أمسِ وأنا ذاهب إليه غداً ، فإن كان قد ذكرَ
شيئاً أتيتُك به ، قلت : أريدُ أن تدلَّني عليه . قال :
إن رآك يفرُّ منك ، وأخاف أن يذهبَ مني فيما بعد ؛

فيذهب شعره ، فأبيت إلا أنْ يدلّني . فقال : اطلبه في هذه الصحراء ، فإذا رأيته فادْنُ منه مستأنساً ، فإنه يتهدّدُك ويتوعّدُك أن يَرميَك بشيء في يده . فاجلس كأنك لاتنظر إليه والحَظْهُ . فإذا رأيتَهُ قد سكن فاجهد أن تروي لقيس بن ذريح (١) شيئاً فإنه معجب به ، قال : فخرجت إليه يومي ، فوجدته بعد العصر جالساً على تلّ ، يخط بأصبعه خطوطاً ، فدنوتُ منه غيرَ منقبض ، ففرَّ والله كما يفرُّ الوحشُ من الإنسان ، وإلى جانبه أحجار ، فتناول منها واحداً . فأقبلت حتى جلست قريباً منه ، فمكثتُ ساعةً ، وهو كأنه نافر ، فلما طال جلوسي سَكَنَ ، وأقبل يعبثُ بأصبعه ، فنظرت إليه ، وقلت : أحسنَ والله قيس بن ذريح ، حيث يقول :

وإني لمُفْنٍ دَمْعَ عَيْنَيَّ بالبكـا
حذاراً لما قد كـان أو هو كائن

(١) قيس بن ذريح : كناني شاعر من العشاق المتيمين من شعراء العصر الأموي . اشتهر بحب لبنى وكان كثير التشبيب بها ، وشعره عالي الطبقة بعضه مجموع في ديوان . توفي سنة ٦٨ هـ .

وقالوا : غداً ، أو بعدَ ذاك بليلةٍ
فراقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهْــوَ بائن
وماكنتُ أخشى أن تكونَ منيّتي
بكفّي إلا أنَّ مـــاحانَ حـــائنُ

قال : فبكى والله حتّى سالت دموعُهُ ، ثم قال :
أنا والله أشعر منه ، حيث أقول :

أبى القلبُ إلا حُبَّهـــا عـــامريّةً
لهـــا كنية عمرو ؛ وليس لهـــا عمرو
تكادُ يدي تَنْدَى إذا مـــالمستُهـــا
وينبتُ في أطرافهـــا الورقُ الخضْرُ
عجبتُ لسعي الدهر بيني وبينهـــا
فلما انقضى مابيننـــا سكَنَ الدهر
فياحبَّهـــا زدْني جَـــوًى كلَّ ليلة
ويا سَلْوةَ الأيام مَوْعِدُكِ الحشْرُ

قال : ثم نهض ، فانصرفت ، ثم عدت من الغد ،
فأصبته ، ففعلتُ فعلي بالأمس ، وفعلَ مثلَ فعله ؛ فلما

أنيسَ قالتُ : أحسنَ واللهِ قيسُ بنُ ذرَيح ، حيث يقول .
قال : ماذا ؟ قالت :

هَبُوني امرأً إنْ تُحسِنوا فهو شاكرٌ
لذاك ، وإن لم تحسنوا فهو صَافِحُ
فإن يكُ قومٌ قد أشاروا بهجرنا
فإن الذي بيني وبينَك صالح

قال : فبكى ، وقال : أنا والله أشعر منه ، حيث أقول :

وأدْنيتني حتى إذا ما سبيتني
بقول يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأباطِح(١)
تجافيتِ عني حيثُ ماليَ حيلة
وخَلَّفْتِ ماخَلَّفْتِ بينَ الجوانح

ثم ظهرت لنا ظبية ، فوثب في إثرها ، فانصرفت ،
ثم عدت في اليوم الثالث فلم أصادفه ، فرجعت ، فأخبرتهم ،

---

(١) العصم : ج أعصم : الظبي في ذراعيه أو في إحداهما بياض وسائره أحمر وأسود .

فوجهوا الذي كان يذهب بطعامه فرجع ، وأخبرهم أن الطعام على حاله . ثم غدوت مع إخوته ، فطلبناه يومنا وليلتنا ، فلما أصبحنا أصبناه في واد كثير الحجارة ، وإذا هو ميتٌ . فاحتمله إخوته ، ورجعتُ إلى بلدي .

وفاة بُغا الكبير : قال المسعودي : وفي سنة ثمان وأربعين ومئتين كانت وفاة بُغا الكبير التركي ، وقد نيّفَ على التسعين سنة ، وقد كان باشر من الحروب مالم يُباشِرْه أحدٌ . فما أصابته جراحةٌ قطُّ . وتقلّد ابنهُ موسى بن بُغا ماكان يتقلّدهُ ، وضمّ إليه أصحابَه ، وجُعِلتْ له قيادته ، وكان بُغا ديّناً من بين الأتراك ، وكان من غلمان المعتصم ، يشهدُ الحروبَ العظامَ ، ويباشرْها بنفسه ، فيخرجُ منها سالماً ، ويقول : الأجل جوشن (١) .

بين المستعين والأتراك : قال المسعودي : ولما انحدر المستعين ووصيف وبُغا إلى مدينة السلام اضطربت الأتراك والفراغنة وغيرهم من الموالي بسامرا ، وأجمعوا على

(١) الجوشن : الدرع . أي أن الأجل يحمي الإنسان من الموت المعجل .

بعث جماعة إليه يسألونه الرجوعَ إلى دار ملكه ، فصار إليه عِدَّةٌ من وجوه الموالي ومعهم البُرْدُ والقضيب وبعض الخزائن ومئتا ألف دينار ، ويسألونَهُ الرجوعَ إلى دار ملكه . واعترفوا بذنوبهم ، وأقروا بخطئهم ، وضَمِنُوا ألاَّ يعودوا ولاغيرهم من نظرائهم إلى شيء من ذلك مما أنكره عليهم ، وتذلَّلوا وخضعوا ، فأجيبوا بمايكرهون ، وانصرفوا إلى سر من رأى . فأعلموا أصحابهم وأخبروهم بما نالهم . وإياسهم من رجوع الخليفة .

الموالي يُجمِعون على بَيْعَةِ المعتز: وقد كان المستعين اعتقل المعتز والمؤيد حين انحدر إلى بغداد ، ولم يأخذهما معه ، وقد كان حَذِرَ من محمد بن الواثق حين انحداره فأخذه معه ، ثم إنه هرب منه بَعْدُ في حال الحرب ، فأجمع الموالي على إخراج المعتز والمبايعة له والانقياد إلى خلافته ، ومحاربة المستعين وناصريه ببغداد : فأنزلوه من الموضع المعروف بلؤلؤة الجوسق ، وكان معتقلاً فيه مع أخيه ، فبايعوه ، وذلك يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة إحدى وخمسين ومئتين ، وركب

من غَدِ ذلك اليوم إلى دار العامة ، فأخذ البيعة على الناس ؛ وخَلَعَ على أخيه المؤيد ، وعَقَدَ له عَقْدَين أسودَ وأبيضَ ، فكان الأسودُ لولاية العهد بعدَه ، والأبيض لولايةِ الحرَمين وتقلَّدهما ، وانبثَّت الكتُب في سامرا بخلافة المعتز بالله إلى سائر الأمصار ، وأُرخِّتْ باسم جعفر ابن محمد الكاتب ، وأحْدَرَ أخاه أبا أحمد مع عدة من الموالي لحرب المستعين إلى بغداد ، فنزل عليها ، فكان أول حرب جرت بينهم ببغداد بين أصحاب المعتز والمستعين ، وهرب محمد بن الواثق إلى المعتز بالله ، ولم تزل الحرب بينهم وبين أهل بغداد للنصف من صفر من هذه السنة ، فلما نشبت الحرب بينهم كانت أمور المعتز تقوى ، وحالة المستعين تضعف ، والفتنة عامة .

فلما رأى محمدُ بنُ عبد الله بن طاهر ذلك كاتَبَ المعتزَّ وجَنَحَ إليه ، ومال إلى الصلح على خلع المستعين ؛ وقد كانت العامة ببغداد حين علمت ماقد عُزِمَ عليه من خَلْعِ المستعين ثارت مُنْكِرةً لذلك ، متحيِّزةً إلى المستعين ، ناصرةً له ، فأظهر محمد بن عبد الله المستعين على أعلى قصره ، فخاطبته العامة وعليه البردةُ والقضيبُ ،

فأنكرَ ما بلغهم من خلعه، وشكر محمد بن عبد الله بن طاهر ، ثم التقى محمد بن عبد الله بن طاهر وأبو أحمد الموفق بالشَّمَّاسِيَّة (١) ، فاتفقا على خلع المستعين على أن له الأمان ولأهله وولده وما حوته أيديهم من أملاكهم ، وعلى أنه ينزل مكة هو ومن شاء من أهله ، وأن يُقيمَ بواسط العراق إلى وقتِ مَسِيرِهِ إلى مكة ، فكتب له المعتز على نفسه شروطاً أنه متى نقض شيئاً من ذلك فالله ورسوله منه بَرَاء ، والناس في حِلٍّ من بَيْعَتِه ، وعهوداً يطول ذكرها ، وقد خَذَلَ المعتزُّ بعد ذلك لمخالفتها حين عالج في نقضها ، فخلع المستعينُ نفسَهُ من الخلافة ، وذلك يوم الخميس لثلاث خَلَوْن من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومئتين ، فكان له مذ وافى مدينة السلام إلى أن خُلِعَ سنة كاملة ، وكانت خلافته — منذ تقلَّدَ الأمرَ على مابيناه آنفاً إلى أن زال عنه مُلْكُهُ — ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً على ماذكرناه من الخلاف ، وأُحدِرَ إلى دار الحسن بن وهب (٢) ببغداد ، وجُمِعَ

---

(١) الشماسية : محلة قريبة من بغداد .

(٢) الحسن بن وهب : كاتب من الشعراء . كان معاصراً لأبي تمام . استكتبه الخلفاء . ورثاه البحتري توفي نحو ٢٥٠ هـ .

بينه وبين أهله وولده ، ثم أحدرَ إلى واسط ، وقد وكل به أحمدُ بنُ طولون التركي (١) ، وذلك قبل ولايته مصر ، وعلم عجز محمد بن عبد الله بن طاهر عن قيامه بأمر المستعين حين استجارَ به وخذلانه إياه،وميله إلى المعتز بالله ، وفي ذلك يقول بعض شعراء العصر من أهل بغداد :

أطافت بنا الأتراك حَوْلاً مُجرَّمـا
وما برحَتْ في جُحْرها أمُّ عامر (٢)
أقامت على ذُلٍّ بهـا ومهـانة
فلما بدَتْ أبدت لنا لؤمَ غـادر
ولم ترْعَ حق المستعين ، فأصبحت
تعين عليه حـادثات المقـادر
لقد جمعتْ لؤمـاً وخُبْثـاً وذِلّةً
وأبقت لها عاراً على آل طـاهر

---

(١) أحمد بن طولون : سبقت ترجمته .
(٢) الحول المجرم : التام . وأم عامر : كنية الضبع .

ولما كان من الأمر ماقدمناه من خلع المستعين انصرف أبو أحمد الموفق من بغداد إلى سامرا ، فخلع عليه المعتز ، وتُوِّجَ ، وَوُشِّحَ بوشاحين ، وخَلَعَ على مَنْ كان معه من قُوَّاده ، وقَدِمَ على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبُرْدِ والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة ، ومعه شاهك الخادم ، وكتب محمد بن عبد الله إلى المعتز في شاهك : إن من أتاك بإرث رسول الله صلى الله عليه وسلم لجديرٌ أن لاتخفر ذمته .

وخَلَعَ المستعينُ وعلى وزارته أحمدُ بنُ صالح ابن شيرزاد .

موت المستعين : ولما كان في شهر رمضانَ من هذه السنة — وهي سنة اثنتين وخمسين ومئتين — بعث المعتزُّ بالله سعيدَ بنَ صالح الحاجب ليلقى المستعين ، وقد كان في جملة مَنْ حمله من واسط ، فلقيه سعيد وقد قرب من سامرا فقتله واحتز رأسه وحمله إلى المعتز بالله ، وترك جثته ملقاة على الطريق حتى تولى دفنها جماعة من العامة .

وكانت وفاة المستعين بالله يوم الأربعاء لست خلونَ

من شوال سنة اثنتين وخمسين ومئتين ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، على ماقدمنا في صدر هذا الباب .

وذكر شاهك الخادم قال : كنت عديلاً للمستعين عند إشخاص المعتز له إلى سامرا ، ونحن في عَمَّارية(١) ، فلما وصل إلى القاطول تلقاه جيش كثير ، فقال : ياشاهك انظرْ مَن رئيس القوم ؟ فإن كان سعيد الحاجب فقد هلكت. فلما عاينته قلت : هو والله سعيد ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهبتْ والله نفسي ، وجعل يبكي . فلما قَرُبَ سعيدٌ منه جعل يُقنِّعُه بالسوط ، ثم أضجعه وقعدَ على صدره واحتز رأسه ، وحمله على ماذكرنا ، واستقامت الأمور للمعتز ، واجتمعت الكلمة عليه .

وللمستعين أخبار غير ماذكرناه في هذا الكتاب ، وأوردناه في هذا الباب . وقد أتينا على ذكرها في كتابينا « أخبار الزمان » و« الأوسط » ، وإنما ذكرنا ماأوردنا في هذا الكتاب لئلا يتوهم أنا أغفلنا ذكرها أو غرّب عنا فهمها . فإنا بحمد الله لم نترك شيئاً من أخبار الناس وسيرهم

(١) العمارية : الهودج .

وما جرى في أيامهم إلا وقد ذكرناه ، وأوردنا في كتبنا أحسنَه ، وفوق كل ذي علم عليم ، والله الموفق للصواب .

ذكر خلافة المعتز بالله

موجز : بويع المعتز بالله ، وهو الزبيرُ بنُ جعفر المتوكل ، وأمه أم ولد يقال لها قبيحة ، ويُكنَّى أبا عبد الله ، وله يومئذ ثمان عشرة سنة ، بعد خلع المستعين لنفسه ، وذلك يومَ الخميس لليلتين خلتا من المحرم ، وقيل : لثلاث خلَوْنَ منه ، سنة اثنتين وخمسين ومئتين على ماقدمنا ، وبايعه القواد والموالي والشاكرِّية وأهلُ بغداد ، وخُطِبَ له في المسجد الجامع ببغداد في الجانبين .

ثم خلَعَ المعتزُّ نفسَهُ يومَ الاثنين لثلاث بقين من رجب سنةَ خمس وخمسين ومئتين ، ومات بعد أن خلَعَ نفسه بستة أيام .

فكانت خلافتُهُ أربعَ سنين وستَّةَ أشْهُرٍ ، ودُفِنَ بسامرا ، فجملةُ أيامه منذ بويع بسامرا قبل خلع المستعين إلى اليوم الذي خلع فيه أربع سنين وستة أشهر وأياماً ، ومنذ بويع له بمدينة السلام ثلاث سنين وسبعة أشهر ، وتوفي وله أربعٌ وعشرون سنة .

ذكر جمل من أخباره ، وسيره ، ولمع مما كان في أيامه

قول الناس في خلعه نفسه : ولما خُلِعَ المستعينُ بالله وأُحْدِرَ إلى واسط – بعد أنْ أَشْهَدَ على نفسه أنَّه قد بَرِيءَ من الخلافة وأنَّه لا يَصلُحُ لها ؛ لما رأى من الخلافِ الواقع ، وأنَّه قد جَعَلَ الناسَ في حِلٍّ من بَيْعته – قالت في ذلك الشعراءُ فأكثرت ، ووصفته في شعرها فأغرقت ، فقال في ذلك البحتري من قصيدة طويلة :

إلى واسطٍ خلفَ الدَّجاجِ ، ولم يكن
لِينبتَ في لحمِ الدَّجاجِ مخالبُ

موت محمد بن عبد الله بن طاهر : قال المسعودي : وفي سنة ثلاثٍ وخمسين ومئتين – وذلك في خلافة المعتز – مات محمد بن عبد الله بن طاهر ، للنصف من ذي القعدة ، بعد قتل وصيف بثلاثة عشر يوماً ، والقمر مكسوف . وكان من الجود والكرم وغزارة الأدب ، وكثرة الحفظ ، وحسن الإشارة ، وفصاحة اللسان ، وملوكية المجالسة ، على ما لم يكن عليه أحد من نظرائه في عصره .

* * *

ماني الموسوس : وذكر أبو العبّاس المبرّد قال : ارتاح محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ طاهر يوماً للمنادمة ، وقد حَضَره ابنُ طالوت ، وكان وزيرَه وأخصَّ الناس به وأحضَرَهم لخلواته ، فأقبلَ عليه ، وقال : لابدَّ لنا اليومَ من ثالثٍ تطيبُ لنا به المعاشرة ، وتلذّ بمنادمته المؤانسةُ ، فمن ترى أن يكون ؟ وأعفِنا أن يكون شرّيرَ الأخلاقِ ، أو دنِسَ الأعراق ، أو ظاهرَ الإملاق ، قال : فأعملتُ الفكر ، وقلت : أيُّها الأميرُ ، خطر ببالي رجل ليس علينا من مجالسته من مؤونة ، وقد برىء من إبرام المُجالس ، وخلا من ثقل المؤانس (١) خفيفَ الوطأة إذا أحببت ، سريع الوثبة إذا أردت ، قال : ومن ذلك ؟ قلت : ماني المَوَسْوَس (٢) قال : أحسنت والله ، فليُتَقَدَّمْ إلى أصحاب الثمانيةِ والعشرين الرّبْع في طلبه يرفعوه رفعة ، فما كان بأسرعَ من أنْ اقتنصه

(١) إبرام المجالس : إضجاره وإملاله .

(٢) ماني الموسوس : هو محمد بن القاسم ، أبوالحسن ، شاعر ظريف من أهل مصر ، رحل إلى بغداد في أيام المتوكل فكانت له فيها أخبار . توفي سنة ٢٤٥ هـ .

صاحبُ الكرخ . فصار به إلى باب الأمير . فأُخذَ وحُذِفَ ونُظِّفَ (١) وأُدخِلَ الحمَّامَ وأُلبِس ثياباً نظافاً وأُدخِل عليه ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ، فقال محمد : وعليك السلام ياماني ، أما آن لك أن تزورنا على حين تَوَقانٍ منا إليك ومنازعةِ قلوبٍ منا نحوك؟ فقال ماني : الشوقُ شديد ، والحبُّ عتيد ، والمزارُ بعيد ، والحجاب صعب ، والبوابُ فظٌّ ، ولو سُهِّل لنا في الإذنِ لَسَهُلَت علينا الزيارةُ . فقال : ألطفتَ في الاستئذان فليُلْطَفْ في الإذن ، لايُمنعُ ماني أيَّ وقتٍ وردَ من ليلٍ أو نهار ، ثم أذِنَ له في الجلوس ، فجلس ، ودعا بالطعام فأكل ، ثم غسل يديه وأخذ مجلسه وكان محمد قد تشوَّق إلى السماع من مؤنسة جارية بنت المهدي ، وأُحضِرت ، فكان أوَّلُ ماغَنَّت به :

ولستُ بناسٍ إذْ غَدَوا فتحمَّلوا
دموعي على الأحباب من شِدَّة الوجدِ

(١) حذف : أزيل ماعليه من أوساخ . وأصحاب الثمانية والعشرين الربع : المحلة ، ولعله قصد المسؤولين عن أحياء بغداد ومحلاتها .

وقولي وقد زالت باسيلٍ حمولُهم
بواكرَ نجدٍ لايكن آخرَ العهد (١)

فقال ماني : أحسنتِ . وبحق الأمير إلا مازدتِ فيه :

وقمتُ أناجي الفكرَ والدمعُ حائرٌ
بمقلةِ موقوفٍ على الضُرّ والجهد
ولم يُعدِني هذا الأميرُ بغَيْرةٍ
على ظالمٍ قد لجّ في الهجر والصّدّ (٢)

فاندفعت تغنيه ، فقال له محمد : أعاشقٌ أنت يا ماني؟ فاستحيا ، وغمزه ابن طالوت أن لايبوح له بشيء فيسقط من عينيه ، فقال : مبلّغُ طربٍ وشوقٍ كان كامناً فظهر . وهل بعدَ الشيب صَبْوَةٌ ؟ ثم اقترح محمد على مؤنسه هذا الصوت :

---

(١) روي البيت في الأغاني على النحو التالي :
وقولي وقد زالت بعيني حمولهم بواكر تحدى لايكن آخر العهد
ص ١٨٤ ج٢٣ / طبعة دار الكتب المصرية .
(٢) وروى صاحب الأغاني صدر هذا البيت على النحو التالي :
ولم يعدني هذا الأمير بعدله ....

حجبوهــا عن الريــاح لأنــي
قلت : يــاريحُ بلّغيهــا السلاما

لو رَضُوا بالحجــاب هان ولكن
منعوهــا عند الريــاح الكلاما

فغنته ، فطرب محمد ، ودعا برطلٍ فشرب ، فقال
ماني : ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه :

فتنفّسْتُ ثم قلتُ لطَــيفي :
آهِ إنْ زُرْتَ طيفَــها إلمــاما

خُصَّــهُ بالســلام مني ؛ فأخشى
يمنعوهــا لِشقوتي أنْ تنــاما

لكان أثْقَبَ لزَنْدِ الصبَابةِ بين الأحشاء ، وأشدَّ
تَغَلْغُلاً إلى الكبد الصديان من زُلالِ الماء ، مع حُسْنِ
تأليف نظامه ، والانتهاء بالمعنى إلى نهاية تمامه ، فقال محمد :
أحسنتَ يا ماني ، ثم أمر مؤنسة بإلحاقهما بالبيتين الأولين
والغناء بهما ، ففعلت ، ثم غنت بهذين البيتين :

ياخليلَيَّ ســاعة لا تَريمــا
وعــلى ذي صَبــابةٍ فأقيمــا

ما مررنا بدار زَيْنَبَ إلا
هتكَ الدمعُ سرّنا المكتوما

فاستحسنه محمد ، فقال ماني : لولا رهبةُ التعدّي لأضفتُ إلى هذين البيتين بيتين لايَردان على سمع ذي لُبٍّ فيصدران إلاّ عن استحسان لهما ، فقال محمد : ياماني ، الرغبة في حُسْنِ ماتأتي به حائلةٌ دونَ كلّ رَهْبة ، فهاتِ ماعندَكَ ، فقال :

ظبيةٌ كالهلال لو تَلْحَظُ الصَّخـ
رَ بطرفٍ لغادرتْه هَشيما
وإذا ماتبسّمتْ خِلْتُ إيما
ضَ بروقٍ أو لؤلؤاً منظوما

فقال : أحسنت ياماني ، فأجز هذا الشعر :

لم تَطِبِ اللّذاتُ إلاّ بمن
طابتْ بها اللّذاتُ مأنوسه
غنت بصوتٍ أطلقت عَبْرَةً
كانت بسجنِ الصّبرِ محبوسه

فقال ماني :

وكيف صبْرُ النّفسِ عن غـادةٍ
أظلمُهـا إن قلتُ طـاووسه
وجُرْتُ إن سمّيتُهـا بـانةً
في جنّـةِ الفردوس مغروسه
وغيرُ عدلٍ إن عدلنا بهـا
جوهرةً في البحـر مغموسـه

ثم سكن ، فقال محمد : ماعدا في وصفه لها ، فقال ماني :

جلّتْ عن الوصـفِ فما فِـكْرةٌ
تلحقُـها بالنعـتِ محسوسـه

فقال محمد : أحسنت ، فقالت مؤنسة : وجب شكرُك ياماني ، فساعدَك دهرُك ، وعطفَ علياك إلفُكَ ، وقارنك سرورُك ، وفارقك محذورُك ، والله يُديمُ لنا ذلك ببقاء مَنْ به اجتمعَ شملُنا ، فقال لها ماني عند قولها « وعطف علياك إلفُك » مجيباً :

ليس لي إلفٌ فيعطفني فارقتْ نفسي الأباطيلُ
أنا موصولٌ بنعمة مَنْ حَبْلُهُ بالمجد موصُولُ
أنا مغبوطٌ بنعمة مَنْ طَبْعُهُ بالخير مأمُولُ

فأومأ إليه ابن طالوت بالقيام ، فنهض وهو يقول :

مَلِكٌ قلَّ النظيرُ له زانَه الغُرُّ البهاليلُ
ظاهِريٌّ في مواكبه عُرْفُهُ في الناسِ مبذول
دَمْ من يَشْقَى بصارمه مع هبوبِ الريحِ مطاول
يا أبا العباس صُنْ أدباً حَدُّه بالدهر مفلولُ

فقال محمد : وجب جزاؤك لشكرك على غيرِ نعمة سبقت ، ثم أقبل على ابن طالوت فقال : ليست خساسةُ المرءِ ، ولا اتِّضاعُ الدهرِ ، ولا نبوُّ العين عن الظاهر بمُذهِبٍ جَوْهَرِيَّةَ الأدَبِ المركَّبِ في الإنسان ، وما أخطأ صالح بن عبد القدوس (١) حيث يقول :

لايُعْجِبَنَّكَ من يصونُ ثيابه
خَوْفَ الغبارِ وعِرضُهُ مبذول

(١) صالح بن عبد القدوس : شاعر حكيم . كان متكلماً يعظ الناس في البصرة . اتهم عند المهدي بالزندقة ، فقتله ببغداد نحو سنة ١٦٠ هـ .

فَرُبَّمَا افتقرَ الفتى فرأيتَه
دَنِسَ الثيابِ وعِرْضُهُ مغسولُ

قال ابن طالوت ، فما رأيت أحضرَ ذهناً منه ، إذ تقول الجارية « عطف عليك إلفك » وإنشادُه عند قولها ذلك :

ليس لي إلفٌ فيعطفني فارقتْ نفسي الأباطيل

قال : فلم يزل محمد مُجرياً عليه رزقَه حتى توفي .

المعتز وولاة العهد : ونُمِيَ إلى المعتز أن المؤيَّدَ يدبِّرُ عليه ، وأنه قد استمال جماعةً من الموالي ، فحبسَ المؤيدَ وأبا أحمد — وهما لأبٍ وأم — وطولب المؤيدُ بأن يَخلَعَ نفسَهُ من ولاية العهد ، فضُرب أربعين عصاً إلى أن أجاب ، وأشهدَ على نفسه بذلك ، ثم اتصل بالمعتز أنَّ جماعةً من الأتراك اجتمع رأيُهم على إخراج المؤيد من حبسه ، فلما كان يومُ الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومئتين أُخرِجَ المؤيدُ ميتاً ، وأُحضِرَ القضاةُ والفقهاءُ حتى رأوه ولا أثَر فيه ، فيقال : إنه أُدرِجَ في لحافٍ مسموم وشُدَّ طرفاه حتى ماتَ فيه ،

وضُيِّقَ حَبسُ أبي أحمد . فكان بين دخوله سُرَّ مَن رأى وما لقي بها من الإكرام وبين حبسه ستةُ أشهرٍ وثلاثةُ أيام ، ثم أُشخِصَ إلى البصرة لثلاثَ عشرةَ ليلة بقيت من شهر رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوماً ، ورتب إسماعيل بن قبيحة — وهو أخو المعتز لأبيه وأمه — مكان المؤيد في ولاية العهد ، واجتمع قوادُ الموالي إلى المعتز فسألوه الرضا عن وصيف وبغا ، فأجابهم إلى ذلك .

* * *

موت بُغا الصغير : وفي سنة أربعٍ وخمسين ومئتين خرجَ من سامرا إلى ناحية المَوْصِل ، فانتهبَتِ الموالي دارَهُ ، وانفضَّ مَنْ كان معه من الجيش ، وانحدَرَ في زورقٍ متنكراً فوقع به بعضُ المغاربة بجسر سامرا ، فقُتِلَ ونُصِبَ رأسُهُ بسامرا ، وهو بُغا الصغير ، ثم أُخِذَ الرأسُ إلى مدينة السلام فنُصِبَ على الجسر ، وكان المعتزُّ في حياةِ بُغا لايأتنِهُ بالنوم ، ولايخلَعُ سلاحَهُ ، لا في ليل ولا نهار ، خوفاً من بغا ، وقال : لاأزال على هذه الحالة حتى أَعلَمَ لبغا رأسي أَو رأسه لي ، وكان يقول : إني لأخاف أنْ ينزلَ عليَّ بغا من السماء .

أو يخرجَ عليَّ من الأرض ، وقد كان بغا عزم على أن ينحدرَ سرّاً فيصلَ إلى سامرا في الليل ، ويصرفَ الأتراكَ عن المعتز ، ويفيضَ فيهم الأموال فكان من أمرِه ما وصفنا.

الأتراك والمعتز : ولما رأى الأتراكُ إقدامَ المعتز على قتل رؤسائهم ، وإعمالِه الحيلةَ في فنائهم ، وأنه قد اصطنعَ المغاربةَ والفراغنةَ دونهم ، صاروا إليه بأجمعهم ، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومئتين ، وجعلوا يقرّعونه بذنوبه ، ويوبّخونه على أفعاله ، وطالبوهُ بالأموال ، وكان المدبّرُ لذلك صالحُ بنُ وصيف مع قواد الأتراك ، فلجَّ وأنكرَ أنْ يكون قِبَلَهُ شيءٌ من المال ، فلما حصل (١) المعتز في أيديهم بعث إلى مدينة السلام في محمد بن الواثق الملقب بالمهتدي ، وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها ، فأتى به في يوم وليلة إلى سامرا ، فتلقّاه الأولياءُ في الطريق ، ودخلَ إلى الجوسق وأجاب المعتزُّ إلى الخلع ، على أن يُعطوهُ الأمانَ أنْ لا يُقتلَ ، وأن يؤمّنوه على نفسه

---

(١) في نسخة : فلما حصر المعتز في أيديهم .

وماله وولده . وأبى محمد بن الواثق أن يَقْعُدَ على سرير المُلْك أو يقبلَ البَيْعةَ حتى يرى المعتزَّ ويسمعَ كلامَهُ ، فأتيَ بالمعتز وعليه قميصٌ مُدَنَّسٌ وعلى رأسه منديل . فلمّا رآه محمدُ بنُ الواثق وثَبَ إليه فعانقه ، وجلسا جميعاً على السرير ، فقال له محمدُ بنُ الواثق : يا أخي ، ماهذا الامر ؟ قال المعتز : أمْرٌ لاأُطيقهُ ، ولا أقومُ به ، ولا أصلحُ له ، فأراد المهتدي أنْ يتوسَّطَ أمرَهُ ويُصلِحَ الحالَ بينه وبين الأتراك . فقال المعتز : لاحاجةَ لي فيها ، ولا يَرضَونَني لها ، قال المهتدي : فأنا في حِلٍّ من بَيْعتك . قال : أنتَ في حِلٍّ وسَعَة . فلمّا جعله في حِلٍّ من بَيْعته حوَّل وجهَه عنه ، فأُقيم عن حضرته ، ورُدَّ إلى مَحبسه . فقُتِلَ في محبسه بعد أن خُلِعَ بستة أيام ، على ماقدَّمنا في صدر هذا الباب .

المعتز أول من ركب بحلية الذهب : وكان المعتز أوَّلَ خليفةٍ أظهرَ الركوب بحليةِ الذَّهب ، وكان مَنْ سلَفَ قبلَه من خلفاء بني العباس — وكذلك جماعةٌ من بني أمية — يركبون بالحِلْية الخفيفة من الفِضَّة والمناطق

وأنجاد (١) السيوف والسُّرُج واللُّجُم . فلما رَكِبَ المعتز بحلية الذهب اتَّبَعه الناسُ في فِعْلِ ذلك .

المستعين أول من وسَّع الأكمام : وكذلك المستعينُ قبلَه أحدثَ لُبسَ الأكمام الواسعة ؛ ولم يكن يُعْهَدُ ذلك ، فجعلَ عَرضَها ثلاثةَ أشبار ونحوَ ذلك ، وصَغَّرَ القَلانِسَ ، وكانت قبل ذلك طِوالاً كأقباعِ القُضاة .

وللمعتزّ أخبار حِسانٌ غير ماذكرنا ، وقد أتينا على مبسوطها في كتابَيْنا « أخبار الزمان » و « الأوسط » ، وبالله التوفيق .

ذكر خلافة المهتدي بالله

موجز : وبُويعَ المهتدي محمدُ بنُ هارون الواثق قبلَ الظهر من يوم الأربعاء لِيلةٍ بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومئتين ، وأمُّه أمُّ ولدٍ رومية يقال لها قُرب ، ويكنى بأبي عبدالله ، وله يومئذٍ سبعٌ وثلاثون سنة ،

---

(١) في نسخة : واتخاذ السيوف .

وقيل : تسعٌ وثلاثون سنة ، وإنه قتل ولم يستكملِ الأربعين سنةً ، في سنة ست وخمسين ومئتين ، فكانت ولايتُهُ أحَدَ عَشَرَ شهراً ، ودُفِنَ بسامرا ، وقيل : إن مولدَهُ كان في سنةِ ثماني عشرة ومئتين .

ذكر جمل من أخباره ، وسيره ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه : واستوزر المهتدي بالله جماعة على قصر مدته فسلموا منه من قتلٍ وغيرِه : منهم عيسى بنُ فَرْخانشاه .

قبة المظالم وشيء من سيرته : وبَنَى المهتدي قبةً لها أربعةُ أبواب ، وسماها قُبَّةَ المظالم ، وجلس فيها للعام والخاص للمظالم ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وحَرَّم الشراب ، ونهى عن القِيان ، وأظهرَ العدل ، وكان يحضر كلَّ جمعة إلى المسجد الجامع ، ويخطُبُ الناس ويَؤُمُّ بهم ، فثقُلَتْ وطأتهُ على العامَّة والخاصة بحمله إياهم على الطريق الواضحة ، فاستطالوا خلافتَه ، وسئموا أيامَه ، وعملوا الحيلةَ عليه حتى قتلوه ، وذلك أن موسى بن بُغا الكبير كان عاملاً غائباً بالرَّي مشتغلاً

بحربِ آل أبي طالب كالحسن بن زيد الحسني (١) . وما كان من الديلم ببلاد قزوين ودخولهم إياها عَنْوَةً وقتلهم أهلَها ، فلما نُمِيَ إلى موسى بن بُغا قتلُ المعتز ، وما كان من أمر صالح بن وصيف والأتراك في ذلك قفَلَ من تلك الديار متوجهاً إلى سامرا ، منكراً لما جرى على المعتز.

الخلاف في مقتل المعتز : وقد قدّمنا فيما سلف من هذا الكتاب في ذكر أخبار المعتز قَتْلَ المعتز مجملاً ، ولم نبين كيفيةَ قتله ، وتنازُعَ الناس في ذلك مفصّلاً ؛ ورأيت أصحابَ السِّيَر والتواريخ وذوي العناية بأخبارِ الدول قد تباينوا في مقتَلِهِ : فمنهم من ذَكَرَ أنَّ المعتزَ ماتَ في حبسهِ في خلافةِ المهتدي بالله ، على ما قدمنا من التاريخ ، حَتْفَ أنفه ؛ ومنهم من ذكر أنه مُنِعَ في حبسهِ من الطعام والشراب ، فماتَ عند قطعِ مواد الغذاء عنه من المأكل والمشرب ، ومنهم من رأى أنه

(١) الحسن بن زيد الحسني : مؤسس الدولة العلوية في طبرستان . بايعه أهلها فزحف بهم على ديار بكر واستولى عليها ثم ملك الري في أيام المستعين . ودامت إمرته عشرين عاماً . توفي بالري سنة ٢٧٠ هـ .

حُقِنَ بالماء الحارّ المغلي ، فمن أجل ذلك حين اخرج إلى الناس وجدوا جوفه وارماً ، والأشهرُ في الإخباريين من عني بأخبار العباسيين أنه أُدخِلَ حمّاماً وأُكرِه في دخوله إياه ، وكان الحمّام محمياً ومُنِعَ الخروجَ منه ، ثم تنازَع هؤلاء : فمنهم من قال : إنه تُرِك في الحمام حتى فاضت نَفسهُ ، ومنهم من ذكر أنه أُخرج بعد أن كادت نفسهُ تتلف للحَمْي (١) ، ثم أُسقِيَ شَربةَ ماء مقرورة بثلج ، فَنَثَرت الكبدَ وغيرَه ، فخمَدَ من فوره . وذلك ليومين خلوا من شعبان سنة خمس وخمسين ومئتين : وقد أتينا على مبسوط هذه الأخبار وتنازعهم في هذه الآثار في كتابنا « أخبار الزمان » .

بين المهتدي وموسى بن بُغا : ولما اتصل بالمهتدي مسيرُ موسى بن بُغا إلى دار الخلافة أنكرَ ذلك ، وكاتبه بالمقام في موضعه ، وأنْ لا يخلّ عن مركزه للحاجة إليه ، فأبى موسى بن بُغا إلا إغذاذ المسير والسرعة فيه ، حتى وافى سامرا ، وذلك سنة ست وخمسين ومئتين ، وصالح

(١) الحمي : شدة الحرارة .

ابن وصيف يدبر الأمرَ مع المهتدي . فلما دنا موسى
من سامرا صاحت العامّةُ في مواضعها والغوغاء في
في طرقاتها : يافرعونُ ، قد جاء موسى ، وكان صالح
ابن وصيف قد نفرَ عن المهتدي حين علم بموافاة موسى ،
وقال : إن المهتدي راسل موسى في السرّ في المسير إلى
سامرا ، والشخوصِ إليها ، وكاتبه في ظاهر الأمر
وراسله أن لا يتقدم ، وكان رجلٌ من قوّاد الأتراك
يقال له بايكيال قد غلب على الأمر أيضاً . وترأسَ .
فدخل موسى سامرا حتى انتهى إلى مجلس المهتدي وهو
جالسٌ للمظالم ، والدار غاصّةٌ بخواصِّ الناس وعوامّهم .
فشرع أصحابُ موسى فدخلوا الدار ، وجعلوا يُخرجون
العامّةَ منها بأشدّ مايكون من الضرب بالدبابيس
والطبرزينات (١) والعسف . فضجت العامة . فقام
المهتدي منكراً عليهم فعلتهم بمن في الدار ، فلم يرجعوا

(١) الدبابيس : ج دبوس : المقمعة . وهو عصا من خشب أو حديد في رأسها شيء كالكرة (فارسية) . والطبرزينات : ج طبرزين : الفأس (فارسية) .

عمّا هم عليه . فتنحّى مغضباً . فقُدّم إليه فرسٌ فركب وقد استشعر منهم الغدرَ . فمضى به إلى دار يارجوج ؛ وقد كان موسى بن بُغا انصرف عن دار المهتدي لمّا نظر إلى ضَجّة العامّة فيها ، فنزل تلك الدار . فسير بالمهتدي إليها ، فأقام فيها ثلاثاً عند موسى بن بُغا فأخذ عليه موسى العهود والمواثيق ألاّ يغادرَ به ، وكان أكثرُ الجيش مع موسى بن بُغا ؛ وكان فيه ديانة وتقشف ؛ حتى إن الجند تأسّوا به ، ولم يكن يشربُ النبيذَ ، وكان المهتدي في أخلاقه شراسة ؛ فنافر موسى ، وكاد الأمر أن ينفرج ، والحال أن يتسع ، غير أن موسى تعطّف عليه ، وأعملا الحيلة في قتل صالح بن وصيف ، وخاف موسى أن يكون صالح بن وصيف يُعمِل الحيلةَ عليهم في حال اختفائه ، فبثّ في طلبه العيونَ ، حتى وقع عليه . فلما علم صالح هجومَهم عليه قاتل ومانع عن نفسه فقُتِلَ واحتُزَّ رأسهُ وأُتيَ به إلى موسى بن بُغا ، ومنهم من رأى أنه أُحمي له حمّامٌ وأُدخِلَ إليه فمات فيه ، على حسب ما فُعِلَ بالمعتز .

مقتل المهتدي : وقوي أمر مُساور الشاري (١) ودنا في عسكره من سامرا . وعمّ الناسَ بالأذى . وانقطعت السّابلةُ . وظهرتِ الأعراب . فأخرجَ المهتدي بالله موسى بن بُغا وبايكيال إلى حرب الشاري . وخرج معهما فشيعهما . ثم قفلا من غيرِ أن يلقيا شرّاً ؛ فلما استشعر المهتدي رجوعَهما خرجَ فعسكر بجسر سامرا في جمعٍ من المغاربة والفراغنة وغيرهم من الرسوم ليحارب بايكيال وقد قيل : إن بايكيال أقرأ موسى كتاباً للمهتدي بقتل موسى . والفتك به ، وأنه كتب إلى موسى بمثل ذلك ، وأنهما علما بتضريب الأمر بينهما . فرجعا عما خرجا إليه . وأشرف بايكيال على المهتدي فانصرف موسى على ظهر سامرا متحرجاً لقتال المهتدي ، فكانت بين المهتدي وبين بايكيال حربٌ عظيمة قُتِلَ فيها خلقٌ كثير من الناس ؛ وانكشف بايكيال واستظهر المهتدي عليه ، فخرج كمين

---

(١) هو مساور بن عبد الحميد البجلي : ثائر من الشراة موصوف بالشجاعة ، من أهل الموصل ، خرج سنة ٢٥٢ هـ ثائراً على الخلافة العباسية واستولى على كثير من بقاع العراق ومنع الأموال عن الخليفة . انتهت ثورته بموته سنة ٢٦٣ هـ .

بايكيال على المهتدي وفيه يارجوج التركي فولّى المهتدي وأصحابهُ . ودخل سامرا مستغيثاً بالعامة ـ مستنصراً بالناس يَصيحُ في الأسواق فلا مُغيثَ ، وقُدّامه أناسٌ من الأنصار ، فمضى مؤيساً من النصر إلى دار ابن خيعونة بسامرا مختفياً ، فهجموا عليه وعزلوه ، وحملوه منها إلى دار يارجوج . وقيل له : أتريدُ أنْ تحملَ الناسَ على سيرة عظيمةٍ لم يعرفوها ؟ فقال : أُريدُ أن أحملَهم على سيرةِ الرسول صلى الله عليه وسلم وأهلِ بيته والخلفاء الراشدين ؛ فقيل له : إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مع قومٍ قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم . وأنت إنما رجالُكَ مابينَ تُركي وخزَري وفرغاني ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم لايعلمون مايَجِبُ عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهُم ماستعجلوه من هذه الدنيا . فكيف تحملُهم على ماذكرتَ من الواضحة ؟ فكثُرَ منهم ومنه الكلامُ والمراجعةُ في هذا المعنى وأشباهه . ثم انقادوا إليه على على حسب ماظهرَ للناس من ذلك ، فلما كادَ الأمرُ أن

يم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب (١) — وقيل : غيره — وقال : هذا سوء رأي منكم ، وخطأ في تدبيركم ؛ إنْ أعطاكم بلسانه قَنِيَّتَهُ فيكم غيرُ هذا . قال : وسيأتي عليكم جميعاً . ويُفرِّق جمعتكم . فلما سمعوا هذا القولَ استرجعوا وجاؤوه بالخناجر ، فكان أوّلَ من جرحه ابنُ عم لبايكيال ، جرحه في أوداجه ، وانكبَّ عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه . وأقبل يمص الدم حتى رَوِيَ منه ، والتركيُّ سكران ، فلما روي من دم المهتدي قام قائماً وقد مات المهتدي فقال : ياأصحابنا قد رَويتُ من دم المهتدي كما رويت في هذا اليوم من الخمر .

وقد تنُوزِع فيما ذكرنا من قتل المهتدي ؛ والأشهرُ ماذكرناه من قتله بالخناجر ، ومنهم من رأى أنه عصرت مذاكيرهُ حتى مات ، ومنهم من رأى أنه جُعِلَ بين لوحين عظيمين وشُدَّ بالحبال إلى أن مات ، وقيل :

---

(١) سليمان بن وهب الحارثي : وزير من كبار الكتاب ولد ببغداد وكتب للمأمون ثم وزر للمهتدي والمعتمد على الله . كان من مفاخر عصره أدباً وعقلا وعلماً . بدحه أبوتمام والبحتري . مات بحبس الموفق سنة ٢٧٢ هـ .

قُتِلَ خنقاً . وقيل : كُبِسَ عليه بالبُسط والوسائد حتى مات .

فلما مات داروا به ينوحُون ويبكُون عليه . وندموا على ما كان منهم من قتله ؛ لما تبيّنوا من نُسكه وزُهده . وقيل : إنّ ذلك كان يومَ الثلاثاء لأربع عشرة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومئتين ، وكان موسى ابن بُغا ويارجوج التركي غيرَ داخلين في فعل الأتراك .

سبب خنق الأتراك : وكان خنق الأتراك على المهتدي بسبب قتله بايكيال، وذلك أنّ بايكيال وقع بيد المهتدي ، فضربَ عنقَه ، ورمى به إلى أصحابه ، ومنهم من رأى أنه قُتِلَ في الحرب المتقدم ذكرها في الموضع المعروف بجسر سامرا .

سيرة المهتدي : وقد كان المهتدي بالله ذهبَ في أمره إلى القصْد والدين ، فقرَّبَ العلماء ، ورفعَ من منازل الفقهاء ، وعمّهم ببره ، وكان يقول : يابني هاشم ، دعوني حتى أسلكَ مسلكَ عمرَ بن عبد العزيز فأكونَ فيكم مثلَ عمر بن عبد العزيز في بني أمية .

وقلَّلَ من اللّباس والفرش والمَطْعَم والمَشْرَب . وامر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكُسِرت وضُربتْ دنانيرَ ودراهمَ . وعَمَدَ إلى الصور التي كانت في المجالس فمُحِيت . وذَبَحَ الكباشَ التي كان يُناطَحُ بها بين يدَي الخلفاءِ والدُّيوك ، وقَتَلَ السباعَ المحبوسةَ . ورَفَعَ بُسطُ الديباج وكلَّ فرشٍ لم تردِ الشريعةُ بإباحته ؛ وكانت الخلفاءُ قبلَهُ تُنفِقُ على موائدِها في كل يومٍ عشرةَ آلافِ درهم ، فأزالَ ذلك وجعلَ لمائدتِه وسائرِ مُؤَنِه في كل يوم نحوَ مئةِ درهم ، وكان يواصلُ الصِّيامَ ، وقيل : إنه لما قُتِلَ استُخرِج رَحْلُهُ من الموضع الذي كان يأوي إليه ، فأُصيبَ له سَفَطٌ مُقفل ، فتوهموا أن فيه مالاً أو جوهراً فلما فُتِحَ وُجِدَ فيه جُبَّةُ صُوف وغُلٌّ (١) ، وقيل : جُبَّةُ شعر ، فسألوا من كان يخدمُهُ ، فقال : كان إذا جَنَّ الليلُ لَبِسَها ، وغَلَّ نفسَه . وكان يركع ويسجد إلى أن يدركَه الصباح ، وإنه كان ينام من الليل ساعةً من بعد العشاء الآخرة

(١) الغل : يقال في رقبته غل من حديد . وهو من القيود مايوضع في العنق .

ثم يقوم ، وإنه سمعه بعضُ مَن كان يأنسُ إليه قبل أن يقتَلَ وقد صلّى المغربَ وقد دنا من إفطاره وهو يقول : اللهم إنه قد صَحَّ عن نبيك محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاثةٌ لاتُحجَبُ لهم دعوةٌ عن الله : دعوةُ الإمام العام ، وقد أجْهدتُ نفسي في العدل على رعيتي ، ودعوةُ المظلوم ، وأنا مظلومٌ ، ودعوةُ الصائم حتى يُفطِرَ ، وأنا صائمٌ . وجعل يدعو عليهم وأن يُكفَى شَرَّهم .

طرف من القول بخلق القرآن : وذكر صالح ابن علي الهاشمي قال : حضرتُ يوماً من الأيام جلوسَ المهتدي للمظالم ، فرأيتُ من سهولة الوصول إليه ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي فيما يُتَظَلَّمُ به إليه مااستحسنتهُ ، فأقبلتُ أرمقُهُ ببصري ، إذ نظر في القصص فإذا رفَعَ طَرْفَه إلي أطرقتُ ، فكأنه علِمَ مافي نفسي ، فقال لي : ياصالح ، أحسَبُ أنْ في نفسِك شيئاً تُحِبُ أن تذكرَه ، قلت : نعم ياأميرَ المؤمنين ، فأمسَكَ ، فلما فرَغَ من جلوسه أمرَني أن لاأبرحَ ونهض ، فجلست جلوساً طويلاً ، ثم دعاني فدخلت إليه وهو على حصير الصلاة ، فقال لي : ياصالح ، أتحدِّثُني بما في نفسِك أو أحدِّثُك به ؟ قلت :

بل هو من أمير المؤمنين أحسنُ ، فقال : كأني بك قد استحسنتَ ما رأيتَ من مجلسنا . فقلتَ : أيُّ خليفة إن لم يكنْ يقولُ بخَلْقِ القرآن . فقلت : نعم . فقال : قد كنتُ على ذلك برهةً من الدهر حتى أُقدمَ على الواثق شيخٌ من أهل الفقه والحديث من أهل أذَنة من الثغر الشامي مُقَيَّدٌ طُوال ، حَسَنُ الهيئة . فسلَّمَ عليه غيرَ هائبٍ ، ودعا فأوجزَ ، فرأيت الحياءَ منه في حمَاليق عين الواثق والرحمةَ له . فقال له : ياشيخُ أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فيما يسألك عنه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أحمدُ يَقِلَ ويَضْعُفُ عن المناظرة ؛ فرأيتُ الواثقَ قد صار في مكان الرقَّة والرَّحمة له غضباً ، فقال له : أبوعبد الله يَضعفُ عن المناظرة ؟ فقال له : هوِّن عليك ياأميرَ المؤمنين أتأذَنُ في كلامه ؟ فقال له الواثق : قد أذنتُ لكَ ، فأقبلَ الشيخُ على أحمدَ فقال له : ياأحمدُ ماذا دعوتَ الناسَ إليه ؟ فقال : إلى القول بخلْق القرآن . فقال الشيخُ : مقالَتُكَ هذه التي دعوتَ الناسَ إليها من القول بخلق القرآن ، داخلَةٌ في الدين فلا يكون الدينُ تاماً إلا بالقولِ بها ؟ قال : نعم ، قال

الشيخ : رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناسَ إليها أو تركهم ؟ قال : تركَهُم . قال : فعلمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أوْ لم يعْلمْها ؟ قال : علمَها ، قال: فلمَ دعوتَ الناسَ إلى مالم يَدْعُهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتَرَكهم منه ؟ فأمسك أحمد : فقال الشيخُ : ياأميرَ المؤمنين هذه واحدة ، ثم قال له بعدَ ساعة ياأحمدُ . قال الله في كتابه العزيز : «(اليومَ أكملتُ لكم دينكم ، وأتممتُ عليكم نعمتي ، ورضيتُ لكم الإسلام ديناً)» فقلت أنت : لايكون الدينُ تاماً إلا بمقالتكم بخلقِ القرآن ، فاللهُ أصدقُ في إكمالِهِ وإتمامه أو أنتَ في نُقصانك ؟ فأمسك . قال الشيخ : ياأميرَ المؤمنين وهذه ثانية ، ثم قال له بعد ساعة : أخبرني ياأحمدُ عن قولِ الله عزَّ وجلَّ في كتابه : «(ياأيُّها الرسُولُ بلِّغْ ماأُنزلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ — الآية)» فمقالتُك هذه التي دعوتَ الناسَ إليها مما بلَّغَه الرسولُ صلى الله عليه وسلم للأمة أم لا ، فأمسك ، فقال الشيخ : ياأميرَ المؤمنين ، وهذه ثالثة ، ثم قالَ بعدَ ساعة : أخبرني ياأحمدُ لما علِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من مقالتك هذه

الّتي دعوتَ الناس إليها ، وإلى القول بها من خلقِ القرآن أوَسِعَتْهُ أن أمْسَكَ عنهم أم لا ؟ قال أحمد : بل اتَّسَعَ له ذلك ، فقال : وكذلك لأبي بكر وعمر ، وكذلك لعثمان ، وكذلك لعلي رضي الله عنهم ! قال : نعم ؛ فصرف وجهه إلى الواثق وقال : ياأميرَ المؤمنين ، إذا لم يتَّسع لنا مااتَّسَعَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه فلا وَسَّعَ اللهُ علينا . فقال الواثق : نعم لاوَسَّعَ الله علينا إن لم يتَّسِعْ لنا بمااتَّسَعَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ؛ ثم قال الواثق : اقطعوا قيدَهُ ، فلما فكّوا قيدَه عنه جاذَب عليه ، فقال الواثق : دَعُوهُ ، ثم قال للشيخ : لم جاذبتَ عليه ؟ قال : لأني عَقَدْتُ في نيّتي أن أُجاذِب عليه ، فإذا أخذتهُ أوصيتُ أنْ يُجعَلَ بين كفني وبَدَني حتى أقول : يارَبِّ ، سَلْ عبدَكَ هذا لم قيدَني ظُلماً وأراعَ فيَّ اهلي ؛ فبكى الواثق ، وبكى الشيخُ وكلُّ من حَضَر ؛ ثم قال له الواثق : ياشيخُ ، اجعلني في حِلٍّ . فقال : ياأميرَ المؤمنين ، ماخرجتُ من منزلي حتى جعلتُكَ في حِلٍّ إعظاماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولقرابتكَ منه ، فتهلَّل وجهُ الواثق وسَرّه ؛

ثم قال له : أقِمْ عندي آنسْ بك ، فقال : مكاني في ذلك الثغر أنفعُ ، أنا شيخٌ كبير . ولي حاجةٌ ، قال : سَلْ مابدا لك ، قال : يأذَنُ أميرُ المؤمنين لي في الرُجوعِ إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم ، قال : قد أَذِنْتُ لك ، وأمَرَ له بجائزةٍ ، فلم يقبلها ، فرجعتُ من ذلك الوقت عن تلك المقالةِ . وأحسَبُ أن الواثقَ رَجَعَ عنها .

خروج صاحب الزنج بالبصرة : قال المسعودي :
وكان خروج صاحب الزنج (١) بالبصرة في خلافة المهتدي ؛ وذلك في سنة خمس وخمسين ومئتين ، وكان يزعم أنه عليٌّ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ عيسى بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وأكثرُ الناس يقول : إنه دعيٌّ آل أبي طالب يُنكرونه ، وكان من أهلِ قَرية من أعمال الرّي يقال لها وَرْزَنين (٢) . وظهر من فعله ما دَلَّ على تصديق مارُمِيَ به من أنه كان يَرى رأيَ الأزارقة

(١) صاحب الزنج : سبقت ترجمته .
(٢) ورزنين : بايران .

من الخوارج ، لأنّ أفعالَه في قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخِ الفاني وغيره ممن لا يستحق القتل يَشْهَدُ بذلك عليه ، وله خطبة يقول في أولها : الله أكبرُ الله أكبرُ ، لا إلَهَ إلا الله والله أكبر ، ألاَ لا حُكْمَ إلا لله ، وكان يَرى الذنوبَ كلَّها شِرْكاً ، وكان أنصاره الزنج . وكان ظهورهُ ببئرِ نخل بين مدينة الفتحِ وكَرْخ البصرة في ليلة الخميس لثلاث بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومئتين ، وغَلَبَ على البصرة في سنة سبعٍ وخمسين ومئتين ، وقُتِلَ ليلة السبت لليلتين خَلَتَا من صفر سنة سبعين ومائتين ، وذلك في خلافة المعتمد على الله ، وقد صنَّفَ الناسُ في أخباره وحروبه وما كان من أمره كتباً كثيرة . وكان أوّل من صنف أخباره وما كان من بدء أمره ووقوعه إلى بلاد البحرين ، وما كان من خبره مع الأعراب محمد بن الحسن بن سهل ابن أخي ذي الرياستين الفضل بن سهل صاحب المأمون ، وهو الرجلُ الذي كان من أمره مع المعتضد بالله ماقد ذكرناه واشتهر قبل ذلك في الناس ، وما كان من أمره إلى أن جعله كدَجاج على النار وجلده ينتفخ ويتقرقع .

عمرو بن بحر الجاحظ : قال المسعودي : وفي هذه السنة .وهي سنة خمس وخمسين ومائتين . وقيل : سنة ست وخمسين ومئتين : كانت وفاةُ عمرو بن بحر الجاحظ بالبصرة في المحرم . ولا يُعلَمُ أحدٌ من الرواة وأهلِ العلم أكثرَ كُتُباً منه معَ قوله بالعثمانية . وقد كان أبوالحسن المدائني (١) كثير الكتب . إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدّي ماسَمِعَ . وكُتُبُ الجاحظ .. مع انحرافه المشهور — تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضحَ البرهـان . لأنه نظَمَها أحسنَ نظْم . ورَصفَها أحسنَ رَصْفٍ . وكساها من كلامه أجزَلَ لفظ ، وكان إذا تخوّفَ ملَلَ القارىء وسآمة السامع خرج من جدٍّ إلى هزل . ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة . وله كتبٌ حسان : منها كتابُ البيان والتبيين . وهو أشرَفُها ، لأنه جمعَ فيه بين المنثورِ والمنظوم ، وغُرَرِ الأشعار . ومستحسَنِ الأخبار ، وبليغِ الخطب مالو اقتصر عليه مقتَصِرٌ عليه لاكتفى به ، وكتابُ الحيوان ، وكتاب

---

(١) أبوالحسن المدائني : سبقت ترجمته .

الطفيليين . وكتابُ البخلاء . وسائرُ كتبه في نهاية الكمال ، ما لم يقصد منها إلى نَصَبٍ(١) ولا إلى دفع حق ، ولا يُعْلَمُ ممن سلَفَ وخلَفَ من المعتزلة أفصحُ منه ، وكان غُلامَ إبراهيم بن سيار النظام(٢) ، وعنه أخذ ، ومنه تعلّم.

وحدّث يموت بن المُزرِّع — وكان الجاحظُ خالَه — قال : دخلَ إلى خالي أناسٌ من البصرة من أصدقائه في العلّة التي مات فيها ، فسألوه عن حاله ، فقال : عليلٌ من مكانين : من الأسقام ، والدين . ثم قال : أنا في هذه العلة المتناقضة التي يُتَخَوَّفُ من بعضها التلَفُ وأعظمُها نيِّفٌ وسبعون سنة ، يعني عمره .

قال يموت بن المزرع : وكان يَطلي نِصفَهُ الأيمنَ بالصندل والكافور لشدة حرارته ، والنصف الآخر لو قُرِضَ بالمقاريض ماشعرَ به ، من خَدَرِه وبَرْدِه .

---

(١) النصب : الغاية .

(٢) إبراهيم بن سيار النظام : من أئمة المعتزلة . تبحر في علوم الفلسفة وإليه تنسب الفرقة « النظامية » وكان شاعراً أديباً بليغاً . توفي سنة ٢٣١ هـ .

قال ابن المُزرَّع : وسمعته يقول : رأيتُ بالبصرة رجلاً يروح ويغدو في حوائج الناس . فقلت له : قد أتعبتَ بذلك بدنَك ، وأخلقتَ ثيابَك ، وأعجفْتَ برْذَوْنَك ، وقتلتَ غلامَك ، فمالك راحةٌ ولا قرارٌ . فلو اقتصدتَ بعضَ الاقتصاد . قال : سمعتُ تغريدَ الأطيار في الأسحار . في أعالي الأشجار . وسمعتُ مُحسنات القيان على الأوتار . فما طَرِبتُ طربي لنغمةِ شاكرٍ أوليتهُ معروفاً ، أو سعيتُ له في حاجة .

* * *

وللمهتدي أخبار حسان قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا . والله وليُّ التوفيق .

ذكر خلافة المعتمد على الله

موجز : وبويع المعتمد أحمد بن جعفر المتوكل ، يوم الثلاثاء لأربعَ عشرةَ ليلةً بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومئتين . وهو ابن خمسٍ وعشرين سنةً ، ويُكنَّى أبا العباس . وأمُّه أمُّ ولَدٍ كوفية يقال لها فتيان ، ومات في رجب سنةَ تسعٍ وسبعين

ومئتين ، وهو ابن ثمان وأربعين سنة ؛ فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة .

ذكر جمل من أخباره وسيره ولُمَع مما كان في أيامه

وزراؤه : ولما أفضتِ الخلافةُ إلى المعتمد على الله استوزر عُبيدَ الله بنَ يحيى بنِ خاقان وزيرَ المتوكل ، فلما مات عبيد الله استوزر الحسن بن مَخْلَد(١) ، ثم صارت الوزارة إلى سليمان بن وهب ، ثم صارت إلى صاعد (٢) .

حرب صاحب الزنج : وخَلَعَ المعتمدُ على أخيه أبي أحمد الموفَّق (٣) وعلى مفلح ، يوم الخميس مستهلَّ

(١) الحسن بن مخلد بن الجراح : وزير من الكتاب . له علم بالأدب . بغدادي الأصل . ولاه المتوكل ديوان الضياع ،واستوزره المعتمد أكثر من مرة ثم عزله . مات بسجن ابن طولون في انطاكية . (٢٠٩ - ٢٦٩) ه.

(٢) هو صاعد بن مخلد : وزير بغدادي الأصل . كان نصرانياً وأسلم على يد الموفق . لقب بذي الوزارتين . كان حازماً كريماً . مات ببغداد سنة ٢٧٦ ه .

(٣) هو طلحة بن جعفر المتوكل أخو المعتمد على الله . لم يل الخلافة اسماً ، ولكنه تولاها فعلا . فنهض بأعباء الدولة . كان شجاعاً حازماً عالماً بالأدب والأنساب . توفي في خلافة المعتمد سنة ٢٧٨ ه .

ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومئتين . وأشخصهما إلى البصرة لمحاربةِ صاحبِ الزنج ؛ فأوقع مُفْلِح التركي بصاحبِ الزنج يومَ الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثمانٍ وخمسين ومئتين فأصاب مُفلِحاً سهمٌ في صُدْغِهِ ، فأصبح يومَ الأربعاء مَيْتاً ، وحُمِلَ إلى سامُرّا فدُفِنَ بها . وانصرفَ أبو أحمد عن محاربةِ صاحبِ الزنج .

الإمام الثاني عشر : وفي سنةِ ستين ومئتين قُبِضَ أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام في خلافة المعتمد ، وهو ابنُ تسعٍ وعشرين سنة ، وهو أبو المهدي المنتظر ، والإمام الثاني عشر عندَ القطْعيَّة من الإمامية (١) ، وهم جمهورُ الشيعة ، وقد

---

(١) القطعية من الإمامية : هم الذين قطعوا بموت موسى الكاظم ابن جعفر الصادق وساقوا الإمامة بعده في أولاده . وهم على التوالي : علي الرضا ومشهده بطوس ، ثم محمد التقي الجواد وهو في مقابر قريش ببغداد، ثم علي بن محمد ومشهده بقم، وبعده الحسن العسكري أبو المهدي المنتظر . وقد ذكر صاحب الملل والنحل أن الإمام الثاني عشر هو محمد القائم المنتظر الذي هو بسر من رأى . الملل والنحل ج١ ص ١٦٩ .

تنازع هؤلاء في المنتظر من آل النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة الحسن بن علي وافترقوا على عشرين فرقة ، وقد ذكرنا حجاجَ كل طائفة منهم لما اجتبته لنفسها واختارته لمذهبها ، في كتابنا المترجم بـ « سر الحياة » وفي كتاب : « المقالات ، في أصول الديانات » وما ذهبوا إليه من الغيبة وغير ذلك .

مقتل صاحب الزنج : وشخصَ الموفق لمحاربة صاحبِ الزنج في صفر ، سنة سبعٍ وستين ومئتين ، وقَدَّمَ الموفق ابنَهُ أبا العباس في ربيع الآخر إلى سوقِ الخميس ، وقد كان الشعراني صاحب العاوي قد تحصن بها في جمع كثير من الزنج ، ففتح هذا الموضعَ ، وغَنِمَ جميعَ ماكان فيه ، وفتح مواضعَ كثيرة ، وقتلَ مَنْ كان فيها من الزنج ، وسار الموفَقُ إلى الأهواز فأصلحَ ماأفسده الزنجُ ، ثم عاد إلى البصرة ، فلم يزل مُنازلاً لصاحبِ الزنج حتى قُتِل . فكانت مدَّةُ أيامه أربعَ عشرةَ سنةً وأربعة أشهرٍ ، يقتلُ الصغيرَ والكبيرَ ، والذكرَ والأنثى ، ويُحرِقُ ويُخرِّبُ . وقد كان أتى بالبصرة في وقعةٍ واحدة على قَتْلِ ثلاث مئة ألف من النَّاس .

من أعمال المهلبي بالبصرة : وقد كان المهلبي من عيانية أصحاب علي بن محمد بعد هذه الوقعة بالبصرة . فنصب منبراً بالموضع المعروف بمقبرة بني يشكر . وكان يصلي يومَ الجمعة بالناس . ويخطبُ على ذلك المنبر لعلي بن محمد ، ويترحّمُ بعدَ ذلك على أبي بكر وعمر ، ولا يذكرُ عثمانَ ولا علياً في خطبته ، ويلعنُ جبابرةَ بني العباس . وأبا موسى الأشعري . وعمرَو بن العاص ، ومعاويةَ بنَ أبي سفيان ، على ماقدّمنا من قوله في هذا الكتاب . وأنه كان يذهبُ إلى رأي الأزارقةِ من الخوارج .

ولمّا ركَنَ مَنْ بقيَ بالبصرة إلى هذا الفعل من المهلبي بها اجتمعوا في بعض الجُمَعِ ، فوضَعَ فيهم السيفَ . فمن ناجٍ سالم . ومن مقتولٍ ، ومن غريق ، واختفى كثيرٌ من الناس في الدور والآبار ، فكانوا يظهرون بالليل ، فيأخذون الكلابَ فيذبحونها ويأكلونها . والفيرانَ . والسنانيرَ ، فأفنَوْها حتى لم يقدروا منها على شيء ؛ فكانوا إذا ماتَ منهم الواحدُ أكلوه . ويراعي بعضُهم موتَ بعضٍ ، ومن قدرَ منهم على صاحبه قتلَه وأكلَه وعَدِموا مع ذلك الماءَ العذبَ .

وذُكِرَ عن امرأةٍ منهم أنها حَضَرَتْ امرأةً تُنازع (١) ومعها أختها ، وقد احتوشوها (٢) ينظرون أن تموتَ فيأكلوا لحمَها ، قالت المرأة : فما ماتت حتى ابتدرناها فقطعنا لحمَها وأكلناها ، ولقد حضرت أختُها وقد جاءت على النهر ونحن على مَشْرَعة عيسى بن أبي حرب وهي تبكي ومعها رأس أختها ، فقيل لها : ويحك ! مالك تبكين ؟ قالت : اجتمعوا على أختي فما تركوها تموتُ موتاً حسناً حتى قطّعوها ، فظلموني ، فلم يُعطوني من لحمها شيئاً إلا رأسَها هذا ، وهي تشتكي ظلمَهم لها في أختها ، ومثلُ هذا كثير ، وأعظم مما وصفنا .

وبلغ من أمر عسكره أنه كان يُنادَى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس . تباعُ الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة ، ويُنادَى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان الفلاني ، لكل زنجيٍّ منهم العشرةُ والعشرون والثلاثون : يطؤهنَّ الزنج ، ويخدمنَ النساءَ الزنجيات ، كما تخدمُ الوصائفُ . ولقد استغاثت إلى علي بن محمد امرأةٌ

(١) نازع المريض نزاعاً : أشرف على الموت .
(٢) احتوشوها : أحدقوا بها .

من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها منه إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه ، فقال لها : هو مولاك وأولى بك من غيره ؟

وقد تكلم الناس في مقدار ماقتل في هذه السنين من الناس فمكثر ومقال . فأما المكثر فإنه يقول : أفني من الناس مالا يدركه العدد ، ولايقع عليه الإحصاء ، ولايعلم ذلك إلا عالم الغيب ، فيما فتح من هذه الأمصار والبلدان والضياع وأباد من أهلها ، والمقال يقول : أفني من الناس خمسمائة ألف نفر ، وكلا الفريقين يقول في ذلك ظناً وحدساً ، إذ كان شيئاً لايدرك ولايضبط .

وكان مقتله على مابينا آنفاً سنة سبعين ومئتين ، وذلك في خلافة المعتمد .

محبة المعتمد للهو: قال المسعودي : وكان المعتمد مشغوفاً بالطرب . والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي ، وذكر عبيد الله بن خرداذبه (١)

(١) هو عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه ، أبوالقاسم : مؤرخ جغرافي، فارسي الأصل كان جده خرداذبه مجوسياً أسلم على يد البرامكة . اتصل عبيد الله بالمعتمد فولاه البريد والخبر بنواحي الجبل ، وجعله من ندمائه . له تصانيف منها : « المسالك والممالك » و « اللهو والملاهي » . (٢٠٥ - ٢٨٠) هـ .

أنه دخل عليه ذات يوم ، وفي المجلس عِدَّةٌ من نُدَمائه من ذوي العقول والمعرفة والحجى ، فقال له : أخبرني عن أوّل من اتخذ العود . قال ابن خُرداذبهْ : وقد قيل في ذلك ياأمير المؤمنين أقاويلُ كثيرة : أوّلُ من اتخذ العود لمك بن متوشالخ بن محويل بن عاد بن خنوع بن قاين ابن آدم ، وذلك أنه كان له ابن يحبه حباً شديداً . فمات ، فعلّقه بشجرة ، فتقطّعت أوصالهُ ، حتى بقي منه فخذهُ والساقُ والقدَمُ والأَصابع ، فأخذ خَشَباً فرقّقه وألصقه ، فجعل صدرَ العودِ كالفخذ ، وعُنُقَه كالسّاق ، ورأسَه كالقدم ، والملاوي كالأصابع ، والأوتار كالعروق ، ثم ضربَ به وناح عليه ، فنطق العودُ ، قال الحمدوني :

وناطقٍ بلسانٍ لاضميرَ له
كأنه فَخِذٌ نيطت إلى قدم
يبدي ضميرَ سواه في الحديث كما
يُبدي ضميرَ سواه منطقُ القلمِ

واتخذ توبل بن لمك الطبول والدفوفَ ، وعَمِلتْ ضلال بنت لمك المعازفَ ثم اتّخذَ قومُ لوط الطنابيرَ ،

يستميلون بها الغلمان. ثم اتخذ الرعاة والأكراد نوعاً مما يُصَفَّرُ به ، فكانت أغنامُهم إذا تفرَّقت صَفَّروا فاجتمعت .
ثم اتخذ الفرس النَّايَ للعود ، والدياتي للطُّنْبور ، والسرياني للطبل ، والسنج للصنج ، وكان غناءُ الفرس بالعيدان والصنوج ، وهي لهم ، ولهم النغم والإيقاعاتُ والمقاطعُ والطروقُ الماوكيَّة ؛ وهي سبعُ طُروق : فأولها سكاف ، وهو أكثرها استعمالاً لتنقل الأنهار ، وهو أفصحُها مقاطعَ ، وأمرسه ، وهو أجمعها لمحاسن النغم ، وأكثرها تَصعُّداً وانحداراً ، ومادار وسنان ، وهو أثقلها ، وسايكاد ، وهو المحبوب للأرواح ، وسيسم ، وهو المختاس المنقل ، وحويعران ، وهو الدرج الموقوف على نغمة ، وكان غناء أهل خراسان وما والاها بالزنج ، وعليه سبعة أوتار ، وإيقاعه يشبهُ إيقاعَ الصنج ، وكان غناءُ أهل الري وطبرستان والديلم بالطنابير ، وكانت الفرس تقدم الطنبور على كثير من الملاهي ، وكان غناء النبط والجرامقة بالغيروارات ؛ وإيقاعها يُشبِهُ إيقاعَ الطنابير .

وقال فندروس الرومي : جُعِلت الأوتارُ أربعةً بإزاء الطبائع ، فجعلت الزيرُ بإزاء المِرَّةِ الصفراء ،

والمَثْنَى بإزاء الدم ، والمِثْلَثُ بإزاء البلغم ، والبَمُّ بإزاء المرة السوداء .

ملاهي الروم : وللروم من الملاهي الأرغل ، وعليه ستّةَ عَشرَ وتراً ، وله صوتٌ بعيدُ المذهب وهو من صنعة اليونانيين ، والسلبان ، وله أربعةٌ وعشرون وتراً ، وتفسيره ألف صوت ، ولهم اللّورا ، وهي الرباب ، وهي من خشب ولها خمسة أوتار ، ولها اثنا عشر وتراً ، ولهم الصلنج وهو من جلود العجاجيل ، وكل هذه معازف مختلفة الصفة ، ولهم الأرغن ، وهو ذو منافخ من الجلود والحديد .

الهند : وللهند الكنكلة ، وهو وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام العود والصنج .

حداء العرب : قال : وكان الحُداء في العرب قبل الغناء ؛ وقد كان مضر بن نزار بن معد سقط عن بعير في بعض أسفاره فانكسرت يدهُ ، فجعل يقول : يايداه ، يايداه ، وكان من أحسنِ الناس صوتاً ، فاستوسقت (١)

---

(١) استوسقت : انقادت .

الإبل وطاب لها السيرُ ، فاتخذه العربُ حُداءً برجز الشعر ، وجعلوا كلامَه أوّلَ الحُداء فمن قول الحادي :

ياهاديا ياهاديا ويايداه يايداه

فكان الحُداء أولَ السماع والترجيع في العرب ، ثم اشتُقَّ الغناءُ من الحُداء . وتحنُّ نساءُ العرب على موتاها ، ولم تكن أمّةٌ من الأمم بعدَ فارس والروم أولَعَ بالملاهي والطرب من العرب ، وكان غناؤهم النَّصْب (١) ثلاثةَ أجناس : الرّكباني ، والسِّناد الثقيل ، والهزج الخفيف .

أولُ الغناء في العرب : وكان أوّلَ من غنى من العرب الجرادتان ، وكانتا قينتين على عهد عاد لمعاوية ابن بكر العملقي ؛ وكانت العربُ تُسمّي القينةَ الكرينة ، والعود المزهر ، وكان غناء أهل اليمن بالمعازف وإيقاعها جنس واحد ، وغناؤهم جنسان : حنفي ، وحميري ؛ والحنفي أحسنهما ، ولم تكن قريش تعرف من الغناء إلا النَّصْب ، حتى قدم النضر بن الحارث بن كَلَدَة

(١) النصب : يقال له : نصب العرب وهو غناء يشبه الحداء إلا أنه أرق .

ابن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي (١) من العراق وافداً على كسرى بالحيرَة ؛ فتعلم ضربَ العودِ والغناءَ عليه ؛ فَقَدِمَ مكةَ ، فعلَّم أهلَها : فاتخذوا القينات .

أثر الغناء : والغناء يُرِقُّ الذهنَ . ويُلين العريكةَ ، ويُبهجُ النفسَ ويَسرُّها ، ويُشجعُ القلبَ ، ويُسخّي البخيلَ ، وهو معَ النبيذ يعاونان على الحزنِ الهادمِ للبدن ، ويُحدِثان له نشاطاً ، ويُفرِّجان الكربَ ، والغناءُ على الانفراد يفعلُ ذلك ، وفَضْلُ الغناءِ على المنطقِ كفضل المنطق على الخرَسِ ، والبُرءِ على السَقَمِ ، وقد قال الشاعر :

لاتبعثنَّ على همومك إذ ثوَتْ
غيرَ المدامِ ونَغْمةِ الأوتار

---

(١) النضر بن الحارث : قرشي من بني عبد الدار . كان من شجعان قريش ووجوهها . اطلع على كتب الفرس وقرأ تاريخهم . وهو أول من غنى على العود بألحان الفرس . أدرك النضر الإسلام ولم يسلم . وشهد بدراً مع مشركي قريش فأسره المسلمون وقتلوه سنة ٢ هـ .

فلِلّه دَرُّ حكيمٍ استنبطه ، وفيلسوفٍ استخرجَه ، أيَّ غامضٍ أظْهرَ ؟ وأيَّ مكنون كشَفَ ؟ وعلى أي فن دلَّ ؟ وإلى أيِّ عِلم وفضيلة سَبَقَ ، فذلك نسيجُ وَحْدِهِ ، وقَرِيعُ دَهْرِهِ (١) .

وقد كانت الملوكُ تنامُ على الغناء ليسري في عروقها السرورُ . وكانت ملوكُ الأعاجم لاتنامُ إلا على غناء مُطرِبٍ ، أوْ سَمَرٍ لذيذ . والعربيّةُ لاتنوّمُ ولدَها وهو يَبكي ، خَوْفَ أنْ يَسريَ الهمُّ في جَسَدِهِ ، ويَدِبَّ في عروقه . ولكنها تنازِعُهُ وتضاحِكهُ حتى ينامَ وهو فَرِحٌ مسرور ، فينمو جَسَدُهُ ، ويصفو لونُه ودمهُ ، ويَشِفُّ عَقلُهُ . والطفلُ يرتاحُ إلى الغناء ، ويستبدلُ ببكائه ضحكاً .

وقد قال يحيى بنُ خالد بن برمك : الغناءُ ماأطربَكَ فأرقصَكَ ، أو أبكاكَ فأشجاكَ ، وما سوى ذلك فبَلاء وَهَمٌّ .

قال المعتمد : قد قلتَ فأحسنتَ ، ووصفتَ فأطنبت ، وأقمتَ في هذا اليوم سوقاً للغناء ، وعيداً لأنواع الملاهي .

---

(١) القريع : الغالب في المقارعة .

وإن كلامك لمثل الثوب الموشّى ، يجتمع فيه الأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، وسائر الألوان ؛ فما صفة المغني الحاذق ؟

المغني الحاذق : قال ابن خُرداذبه : المغني الحاذق ياأمير المؤمنين ، من تمكّن من أنفاسه ، ولطف في اختلاسه ، وتفرّع في أجناسه .

قال المعتمد : فعلى كم تنقسم أنواع الطرب ؟

أنواع الطرب : قال : على ثلاثة أوجه ياأمير المؤمنين ، وهي طربٌ مُحرّكٌ مستخفٌّ لأريحيّة ، ينعش النفس ، ودواعي الشيم عند السماع ، وطربٌ شجنٌ وحزنٌ ، لاسيما إذا كان الشعر في وصف أيام الشباب ، والشوق إلى الأوطان ، والمراثي لمن عدم الصبر من الأحباب ، وطربٌ يكون في صفاء النفس ولطافة الحسّ ، ولا سيّما عند سماع جودة التأليف ، وإحكام الصنعة ؛ إذ كان من لايعرفه ولايفهمه لايسرّه ، بل تراه متشاغلاً عنه ؛ فذلك كالحجر الجامد ، والجماد الصّلد ، سواءٌ وجوده وعدمه ، وقد قال ياأمير المؤمنين

بعضُ الفلاسفةِ المتقدمين ، وكثيرٌ من حكماء اليونانيين : مَنْ عَرَضَتْ له آفةٌ في حاسَّة الشمِّ كَرِهَ رائحةَ الطَّيب ، ومن غَلُظَ حِسُّهُ كرهَ سَماعَ الغناءِ ، وتشاغَلَ عنه ، وعابَه ، وذَمَّه .

منزلة الإيقاع وألقابه : قال المعتمد : فما منزلةُ الإيقاعِ وأنواع الطرّوقِ وفنون النغم ؟

قال : قد قال في ذلك ياأميرَ المؤمنين مَن تقدَّم : إن منزلةَ الإيقاع من الغناءِ بمنزلةِ العَروضِ من الشعر ، وقد أوضحوا الإيقاعَ ، ووَسموه بسماتٍ ولقَّبوه بألقابٍ ، وهو أربعةُ أجناس : ثقيل الأول ، وخفيفه ، وثقيل الثاني ، وخفيفه ، والرمل الأوّل ، وخفيفه ، والهزج ، وخفيفه ، والإيقاع : هــو الوزن ومعنى أوقع وَزَنَ ، ولم يُوقعْ : خرجَ من الوزن ، والخروجُ إبطاءٌ عن الوزن أو سرعة ؛ فالثقيل الأول : نقرُهُ ثلاثة ثلاثة ، اثنتان ثقيلتان بطيئتان ، ثم نقرةٌ واحدة ؛ وخفيفُ ثقيلُ الثاني نقرُهُ اثنتان متواليتان ، وواحدة بطيئة ، واثنتان مزدوجتان ، وخفيفُ الرمل : نَقْرُهُ اثنتان اثنتان مزدوجتان ، وبينَ كلِّ زوجٍ وَقفة . والهزج نَقرُهُ واحدةٌ واحدة مستويتان

ممسكة ، وخفيفُ الهزجِ نقرُهُ واحدةٌ واحدة متساويتان في نَسَقٍ واحد أخف قَدْراً من الهزج ، والطرائق ثمانٍ : الثقيلان الأَول والثاني ، وخفيفاهما ، وخفيف الثقيل الأَول منهما يسمى بالماخوري ، وإنما سُمِّي بذلك ؛ لأن إبراهيمَ بن ميمون الموصلي – وكان من أبناء فارس ، وسكن المَوْصِلَ – كان كثيرَ الغناء في هذه المواخير ، بهذه الطريقة ، والرمل وخفيفه ، ويتفرع من كل واحد من هذه الطرائق مَزمومٌ مُطلَق ، وتختلفُ مواقعُ الأصابع فيها فيحدثُ لها ألقاباً تُميزُها ، كالمحصور . والمخبول ، والمحثوث ، والمخدوع ، والأدراج .

والعودُ عند أكثرِ الامم وجُلِّ الحكماء يوناني ؛ صَنَعَهُ أَصحابُ الهندسة على هيئة طبائع الإنسان ؛ فإن اعتدلت أوتاره على الأقدار الشريفة جانس الطبائعَ فأطرب ، والطرَبُ : ردُّ النفس إلى الحال الطبيعية دفعةً ، وكلُّ وترٍ مثلُ الذي يليه ومثل ثلثه . والدستبان الذي يلي الأنف موضوعٌ على خط التُّسع من جُملة الوتر ، والذي يلي المشط موضوع على خط الرُّبع من جملة الوتر ، فهذه ياأميرَ المؤمنين جوامعُ في صفةِ الإيقاع ومنتهى حدُوده .

ففرح المعتمد في هذا اليوم . وخَلَعَ على ابن خرداذبه ، وعلى مَن حَضَر من ندمائه ، وفضَّلَه عليهم ، وكان يوم لهو وسرور .

فلما كان في صبيحة تلك الليلة دعا المعتمدُ من حَضَرهُ في اليوم الأول . فلما أخذوا مراتبَهم من المجلس قال لبعض مَن حضره من ندمائه ومغنيه : صف لي الرقصَ وأنواعَه . والصفةَ المحمودةَ من الراقص . واذكر لي شمائلَه .

الرقص وأنواعه : فقال المسؤول : ياأميرَ المؤمنين ، أهل الاقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم من أهل خراسان وغيرهم . فجملةُ الإيقاع في الرقص ثمانيةُ أجناس : الخفيفُ ، والهزَجُ ، والرَّمَلُ . وخفيفُ الرمل . وخفيفُ الثَّقيل الثاني ، وثقيلهُ الثقيل الأوَّل . وثقيلهُ ، والراقصُ يحتاج إلى أشياءَ في طباعه ، وأشياء في خلقته ، وأشياء في عَمَلِه : فأما مايحتاجُ إليه في طباعه فَخِفَّةُ الرُّوح ، وحُسْنُ الطَّبْع على الإيقاع . وأنْ يكونَ طالبهُ مَرِحاً إلى التدبير في رَقْصِهَ والتصرُّف فيه . وأمَّا مايحتاجُ

إليه في خِلْقَتِه فطولُ العُنُق والسَّوالف (١) ، وحسْن الدَّل والشَّمائل ، والتمايُلُ في الأعطاف ورقَّةُ الخصْر والخفَّةُ وحُسْنُ أقسام الخَلْق . وواقع المناطق . واستدارة الثياب من أسافلها . ومَخَارِجُ النَّفَس ، والإراحة . والصبرُ على طول الغاية . ولَطافَةُ الأقْدام ، ولِينُ الأَصابع . وإمكانُ لينها في نقلها وفيما يُتَصرَّفُ فيه من أنواع الرقص من الإبل . ورقص الكرة . وغيره . ولينُ المفاصل ، وسرعة الانتقال في الدوَران . ولِينَ الأَعطاف . وأمَّا مايحتاج إليه في عمله فكثْرةُ التصرف في ألوان الرَّقص . وإحكامُ كلِّ حدٍّ من حدوده . وحسن الاستدارة . وثبات القدم على مَدَارهما . واستواء ماتعمل يُمْنى الرِّجْل ويُسراها . حتى يكونَ في ذلك واحداً . ولوضْع القدم ورفعها وجهان : أحَدُهما أنْ يوافق بذلك الإيقاع ، والآخرُ أن يَتَشَبَّطَ (٢) به . فأكثرُ مايكونُ هو فيه أمكنُ وأحْسَنُ فليَكُن مايوافقُ

(١) السوالف : ج سالفة : ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى الترقوة .

(٢) تثبط عن الأمر : تريث .

الإيقاعَ فهو من الحب والحسنِ سواء . وأمّا مايُشْتَبَطُ به فأكثرُ مايكون هو فيه أمكن وأحسن ، فليكنْ مايوافقُ الإيقاعَ مترافعاً . وما يُتَشَبَّطُ به متسافلاً .

غداء المعتمد الذي مات عقيبه : قال المسعودي :

وقد كان المعتمدُ قعد للغداء واصطبحَ يومَ الاثنين لإحدى عشرة ليلةً بقيت من رجب الفرد سنةَ تسعٍ وسبعين ومئتين . فلما كان عندَ العصر قُدِّمَ الطعامُ . فقال : ياموشكيره — للموكَّل به — مافعلتِ الرؤوسُ بأرقابها ؟ وقد كان قدَّم من الليل أن يُقَدَّمَ له رؤوسُ حملان . وقد فُصِلَ فيها أرقابها ، فَقُدِّمتْ . وكان معه على المائدة رَجُلٌ من نُدَماته وسُمَّاره يُعْرفُ بقف الملَقِّم . ورجلٌ آخرُ يُعرف بخلف المُضحك ، فأوّلُ من ضَرَبَ بيده إلى الرؤوس المُلَقِّم . فانتزع أُذُنَ واحد منها . ولَقَّمهُ في الرقاق . وغَمَسَها في الأصباغ (١) . وأهوى بها إلى فيه . وأمعنَ في الأكْلِ . وأما المضحكُ

(١) الأصباغ : ج صبغ : وهو مايؤتدم به كالزيت والخل ونحوهما لأن الخبز يغمس فيه ويلون به .

فإنّه يقتلع اللهازم (١) والأعين . فأكلوا وأكل المعتمد ، وأتموا يومهم فأمّا الملقمُ صاحبُ اللقمةِ الأولى فإنه تهرّأ في الليل . وأما المضحك فإنه ماتَ قبلَ الصباح ، وأما المعتمد فأصبحَ ميتاً قد لحق بالقوم .

ودخل إسماعيلُ بن حمّاد القاضي إلى المعتضد وعليه السواد ؛ فسلم عليه بالخلافة ، وكان أولَ من سلم عليه بها ، وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ومعهم بدرٌ غلامُ المعتضد يقول : هل ترونَ به من بأسٍ أو أثرٍ ؟ ماتَ فجأة ، وقتلَتْهُ مداومتُهُ لشُرْبِ النبيذِ ؛ فنظروا إليه فإذا ليس به من أثر ، فغُسِلَ وكُفِّنَ وجُعِلَ في تابوت قد أُعِدَّ له وحُمِلَ إلى سامرا فدُفِنَ بها .

وذكروا ـ والله أعلم ـ أنّ سببَ وفاته أنه سُقِيَ نوعاً من السُّمّ في شرابهم الذي كانوا يشربونه ، وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتُبَّت ،

---

(١) اللهازم : ج لهزمة : عظم ناتىء في اللحي تحت الأذن ، وهما لهزمتان .

وربّما وجدوه في سُنْبُلِ الطيب . وهو ألوان ثلاثة . وفيه خواص عجيبة .

وللمعتمد أخبارٌ حسان وما كان في أيامه من الكوائن والحوادث مما كان بخراسان من حروب الصفّار وغيره وما كانَ من وَلَد أبي دُلَف بأرض الجبل . وما كان من العرب من الطولونية ، وما كان بديار بكر من بَلاء وأسر وغيرهما من أحمد بن عيسى بن الشيخ . وما كان باليمن ، قد أتينا على مبسوطها وجميع ذلك كله والغرَر منه وما حدث في كل سنة من أيامه من الحوادث في كتابينا : « أخبار الزمان » « والأوسط » . فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الكتاب .

ذكر خلافة المعتضد بالله

موجز : وبُويِعَ أبوالعباس أحمدُ بنُ طلحةَ المعتضدُ بالله ، في اليوم الذي مات فيه المعتمدُ على الله عَمُّهُ وهو يومُ الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومئتين ، وأمُّهُ أمُ وَلَد رومية يقال لها ضرار . وكانت وفاتهُ يوم الأحد لسبع بقين من شهر

ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومئتين : فكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ويومين . وتوفي بمدينة السلام . وله سبعٌ وأربعون سنة . وقيل : إنّه وُلّي الخلافةَ وهو ابنُ إحدى وثلاثين سنة . وتوفي سنة تسع وثمانين . على ماذكرنا ، وله أربعون سنة وأشهر . على تباين أصحابِ التواريخ في كتبهم ، وما أرّخوه في أيامهم . والله الموفق .

* * *

ذكر جمل من أخباره ، وسيره ولمع مما كان في أيامه

حال الرعية في أيامه : ولما أفْضَتِ الخلافة إلى المعتضد بالله سكنت الفتنُ . وصلَحتِ البلدانُ . وارتفعتِ الحروبُ . ورَخُصَت الأسعار . وهدأ الهرجُ (١) . وسالمه كلُّ مخالف ، وكان مظفَّراً قد دانت له الأمور . وانفتح له الشرقُ والغربُ ، وأُديلَ له في أكثر المخالفين عليه (٢) والمنابذين له ، وظَفِرَ بهارونَ الشّاري (٣) .

(١) الهرج : الفتنة والاضطراب .

(٢) أديل له في أكثر المخالفين : كانت الغلبة له عليهم .

(٣) وهو هارون بن عبد الله الشاري : مقدم الصفرية في أيام المعتمد والمعتضد . كان شجاعاً مغواراً خرج في أطراف الموصل وكثر أتباعه . قاتله المعتضد ولم يظفر به . ثم أسره الحسين بن حمدان وجاء به إلى المعتضد فقتله سنة ٢٨٣ هـ .

وكانَ صاحبَ المملكةِ والقيّمَ بأمرِ الخلافةِ بَدْرٌ مولاه ، وإليه جميعُ المعارفِ في جميعِ الآفاقِ . وإليه أمرُ الجيوشِ وسائرِ القوادِ .

ماليّةُ الدّولةِ في عهدهِ : وخلّفَ المعتضد في بيوت الأموال تسعة آلاف ألف دينار ، ومن الوَرِقِ أربعين ألف ألف درهم ، ومن الدواب والبغال والجمازات (١) والحمير والجمال اثني عشر ألف رأس . وكان معَ ذلك شحيحاً بخيلاً ينظر فيما لا ينظرُ فيه العوام .

تقتيره : وحكى عبدُ اللهِ بنُ حمدون — وكان نديمَه وخاصّتَه ، وممن كان يأنَسُ به في خلَواته — أنه أمرَ أن تُنْقَصَ حشَمهُ ومن كان يجري عليه الأنزال من كلّ رغيفٍ أوقية ، وأن يُبتدأ بأمرِ خبزه ، لأنّ للوصائف عدداً من الرّغفان فيها ثلاثٌ لذا وأربع لذا وأكثر من ذلك . قال ابن حمدون : فتعجّبْتُ من ذلك في أوّل أمره ، ثم تبيّنْتُ القصّةَ ، فإذا أنه يتوفّرُ من ذلك في كل شهرٍ مالٌ عظيم ، وتقدّم إلى خزّانه أن يختارَ له من الثياب التُسْتَريّة (٢) والدّبيقيّة أحسنَها لتقطيعها لنفسه .

---

(١) الجمز : ضرب من السير . والجمازة : نوع من النوق السريعة .

(٢) الثياب التسترية : منسوبة إلى تستر من أشهر مدن خوزستان .

أنواعُ من قسوته : وكان مع ذلك قليلَ الرحمة ، كثيرَ الإقدام ، سفّاكاً للدماء ، شديدَ الرغبة في أن يمثّلَ بمَن يقتلُه .

وكان إذا غضبَ على القائد النبيل ، والذي يختصه من غلمانه أمر أن تُحفَرَ له حفيرةٌ بحضرته ثم يُدلّى على رأسه فيها ، ويُطرح التراب عليه ، ونصفه الأسفل ظاهرٌ على التراب ، ويُداس التراب ، فلا يزال كذلك حتى تخرجَ روحُه من دُبُره .

وذُكر من عذابه أنه كان يأخذ الرَّجُلَ فيُكتَّفُ ويُقيَّد ، فيؤخذ القطنُ فيُحشى في أُذُنِه وخيشومه وفمه ، وتُوضع المنافخُ في دُبره حتى ينتفخَ ويَعظُمَ جسمُهُ ثم يُسَدُّ الدبرُ بشيءٍ من القطن ، ثم يُفْصَدُ ، وقد صارَ كالجملِ العظيم ، من العرقين اللذين فوقَ الحاجبين ، فتخرجَ النفسُ من ذلك الموضع ، وربما كان يُقام الرجلُ في أعلى القصرِ مُجرّداً مُوثَقاً ويُرمى بالنّشابِ حتى يموت .

واتخذَ المطاميرَ ، وجعلَ فيها صنوفَ العذاب ، وجعل

عليها نجاحَ الحرمي المتولّي لعذاب الناس . ولم يكن له رغبةٌ إلا في النساء والبناء ؛ فإنه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار . وكان طولُ قصرهِ المعروفِ بالثريا ثلاثةَ فراسخ .

أبو العيناء : وكانت وفاة أبي العيناء سنة اثنتين وثمانين ومئتين بالبصرة في جمادى الآخرة. وكان يكنى بأبي عبيد الله ، وكان قد انحدر من مدينة السلام إلى البصرة في زورقٍ فيه ثمانون نفساً في هذه السنة فغرقَ الزورقُ ؛ ولم يتخلص مما كان فيه إلا أبو العيناء وكان ضريراً . تعلّقَ بأطراف الزورق فأخرجِ حيّاً ، وتلِفَ كلُّ مَنْ كان معه ؛ فبعد أن سَلِمَ ودخل البصرة مات .

وكان لأبي العيناء من اللِّسان وسُرعةِ الجواب والذكاء مالم يكن عليه أحدٌ من نُظرائه ، وله أخبارٌ حسان وأشعار ملاح مع أبي علي البصير (١) وغيره ، وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا .

---

(١) هو الفضل بن جعفر النخعي ، شاعر ضرير من الكتاب البلغاء المترسلين الظرفاء ، فارسي الأصل . نشأ بالكوفة ، ثم سكن بغداد . مدح المعتصم والمتوكل . توفي بسرمن رأى سنة ٢٥٥ هـ .

وحضر مجلسَ بعضِ الوزراء ، فتعارضوا حديثَ بعض البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من الجـــود ، فقال الوزير لأبي العيناء . وقد كان أمعنَ في وصفهم وما كانوا عليه من البذل والإفضال : قد أكثرْتَ من ذكرهم ووصفك إياهم . وإنما هذا من تصنيف الوَرَّاقين وتأليف المحسنين ؛ فقال له أبو العيناء : فلِمَ لايكذب الوَرَّاقون عليك أيها الوزير بالبذل والجود ؟ فأمسكَ عنه الوزيرُ . وتعجب الناس من إقدامه عليه .

واستأذن يوماً على الوزير صاعد بن مُخَلَّد ؛ فقال له الحاجب : الوزيرُ مشغول فانتظر ؛ فلما أبطأ إذنُه قال للحاجب : ماصنعَ الوزير ؟ قال : يُصلِّي ، قال : صدقتَ لكلِّ جديدٍ لَذَّةٌ ؛ يُعيِّره بأنه حديثُ عَهْدٍ بالإسلام .

وقد كان أبو العيناء دخل على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري ، وذلك في سنة ست وأربعين ومئتين ؛ فقال له : كيف قولُك في دارِنا هذه ؟ فقال : إنَّ الناس بَنَوْا الدورَ في الدنيا ، وأنت بنيتَ الدنيا في دارك ؛ فاستحسن ذلك ثم قال له : كيف شُربُك النبيذَ ؟ فقال :

أعجزُ عن قليله ، وأفتضحُ من كثيره ، فقال له : دَعْ هذا عنك ونادمنا ، فقال : أنا امرؤ محجوبٌ ، والمحجوبُ تتخطرفُ (١) إشارتُه ، ويجورُ قصدُه ، ويُنظَر منه إلى ما لا يُنظر إليه . وكلُّ مَنْ في مجلسك يخدمك . وأنا أحتاج أن أُخدَمَ ، وأخرى لستُ آمنُ أن تنظرَ إليَّ بعين راضٍ وقلبُك غضبانُ أو بعين غضبان وقلبُك راضٍ ، ومتى لم أميِّز بين هاتين هلكتُ ، فأختارُ العافيةَ على التعرُّضِ للبلاء ؛ فقال : بلغنا عنك بذاءٌ (٢) ، قال : يا أمير المؤمنين قد مدح الله تعالى وذم فقال : «(نِعْمَ العبدُ إنَّهُ أوَّابٌ)» وقال جل ذكره : «(هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ـ الآية)» فإن لم يَكُن البذاءُ بمنزلة العقرب يلدغُ النبيَّ والذميَّ فلا ضَيْرَ في ذلك ، قال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أكُ صـــادقاً

ولم أشتم النِّكْـسَ اللـئيم المذمما

---

(١) خطرف وتخطرف : أسرع في المشي . وتتخطرف إشارته : تسرع .

(٢) البذاء : السفه والفحش .

ففيم عرفتُ الخيرَ والشرَّ باسمه
وشقَّ لي اللهُ المسامعَ والفما

قال : من أين أنت ؟ قال: من البصرة ، قال : ماتقول فيها ؟ قال : ماؤها أجاجٌ (١) ، وحرُّها عذاب ، وتطيبُ في الوقت الذي تطيبُ فيه جهنم .

وكان وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان واقفاً على رأسه، قال: ماتقول في عُبيد الله بن يحيى بن خاقان(٢)؟ قال : نِعمَ العبدُ ، منقسمٌ بين طاعةِ الله تعالى وخدمتك .

قدوم أهل البصرة على المعتضد: وقد كان أهلُ البصرة وَرَدُوا على المعتضد في مراكبَ بحريَّة بيض مشحَمة بالشَّحم والنُّورَة(٣) على مافي بحرهم ، ووفد فيها خلقٌ من خطبائهم ومتكلميهم وأهلِ الرِّياسة والشرف والعلم : منهم أبوخليفة الفضلُ بن الحباب الجُمَحي ، وكان مولى آل جُمح من قريش. وكان ولي القضاء بعد ذلك ، يشكون إلى المعتضد

---

(١) الأجاج : ملح مر .
(٢) سبقت ترجمته .
(٣) النورة : القطران .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مانزلَ بهم من مِحنِ الزمان وجدْبٍ لحقهم . وجَوْرٍ من العمال اعتَوَرَهم ، وألحوّا بالصياح والضجيج في مراكبهم في دجلة . فجلس لهم المعتضدُ من وراءِ حجاب ، وأمر الوزير القاسم بن عبيد الله (١) وغيره من كتاب الدواوين بالجلوس لهم من حيث يسمع المعتضد خطابَهم ، فيقصّونَ لهم بما يشكونه من حُكّم الدواوين ؛ ثم أذن للبصريين فدخلوا، وأبو خليفة في أولهم . عليهم الطيالسةُ الزرق والأَقناع على رؤوسهم . ذوو عوارض(٢) جميلة وهيئة حسنة . فاستحسن المعتضد مارأى منهم ، وكان المبتدىءُ منهم بالنطق أبو خليفة؛ فقال : غمر العامر ، ودَثّرَ الظاهر ،واختلفت العَوّاء (٣) ، وخسفت الجوزاء ، وأناخت علينا المصائبُ،واعتورتنا المحنُ ،

---

(١) القاسم بن عبيدالله بن سليمان بن وهب الحارثي : وزير من الكتاب الشعراء . استوزره المعتضد ، ولما مات قام القاسم بأعباء الخلافة ، وعقد البيعة للمكتفي في غيبته بالرقة ووزر له . (٢٥٨ – ٢٩١) ﻫ .

(٢) العوارض : ج عارضة : صفحة الخد . ويقال فلان ذو عارضة أي : ذو بيان ولسن وبديهة .

(٣) العواء : مجموعة كواكب تظهر للرائي قريبة من الدب الأكبر ، وهو يشير بذلك إلى ماأصابهم من محن .

وقامَ كلُّ رجلٍ منها في ظلمة ، واصطلمت الضياع (١) ، وانخفضت القلاع ، فانظر إلينا بعين الإمام ، تستقيم لك الأيام ، وتنقـــادُ لك الأنام ، وإلا فنحن البصريون لاندفع عن فضيلة ، ولا نتنافس عن جلالة . وسجَعَ في كلامه ، وأغرق في خطابه ، فقال له الوزير : أَحسَبُك مؤدّباً أيها الشيخ ، فقال له : أيها الوزير ، المؤدبون أجلسوك هذا المجلس ، قال له الوزير : كم في خمسٍ من الإبل ؟ قال له أبو خليفة : الخبيرَ سألت ؛ في خمس من الإبل شاةٌ ، وفي العشر شاتان ، ثم مضى في وصف فرائضِ الإبل واصفاً لما يجبُ فيها ، ذاكراً للتنازع في موضعه منها ؛ ثم شرعَ في البقر والغنم ، بلسانٍ فصيح وخطابٍ حسن في إيجاز من خطاب وبيان من الوصف ؛ فبعث المعتضد — وقد أعجبــه ما سمع ، وأكــثرَ لِـذلك من الضحك — بخــادم إلى الوزير ، فقال لـــه : اكتب لهم عمّـــا يريدون ، وأجبْهم إلى ماسألوه ،

---

(١) الاصطلام : الاستئصال . وهو يعني خراب الضياع واندثارها.

ولا تَصرِفْهم إلا شاكرين، فهذا شيطانٌ قذفَ به البحرُ، ومِثْلُهُ فليفِدْ على الملوك.

أبو خليفة الجمحي: وكان أبو خليفةَ لايتكلّفُ الإعراب، بل قد صار له كالطبع، لدوامِ استعماله إيّاه من عُنفوان حداثته. وكان ذا محلٍّ من الإسناد.

وله أخبار ونوادر حسان قد دُوِّنت: منها أنَّ بعضَ عمال الخراج بالبصرة كان مصروفاً عن عمله، وأبو خليفة مصروفاً عن قضائه، فبعث العامل إلى أبي خليفة أنَّ مَبْرَمَانَ النحْويّ (١) صاحبَ أبي العباس المبرد قد زارني في هذا اليوم إلى بعض الأنهار والبساتين، فأتَوه مبكّرين مع من حضرنا من أصحابنا، وسألوه الحضور معهم، فجلسوا في سمارية(٢) متفكهين، قد غيروا ظواهرَ زيِّهم حتى أتَوا نهراً من أنهار البصرة واستحسنوا بعضَ

(١) هو محمد بن علي بن إسماعيل العسكري، المعروف بمبرمان: من كبار العلماء بالعربية. من أهل بغداد. أخذ عن المبرد والزجاج. وأخذ عنه السيرافي والفارسي. له عدة تصانيف منها: «شرح شواهد سيبويه» و«النحو المجموع على العلل». توفي سنة ٣٤٥ هـ.

(٢) نوع من المراكب.

البساتين فتقدموا إليه وخرجوا إلى الشطّ وجاسوا تحتَ النخل على شط النهر، وقُدِّم إليهم ما حُمِل معهم من الطعام وكان أيام المبادي. وهي الأيام التي يُشمر فيها الرُّطَب فيكبسونه في القواصر (١) تمراً، وتكون حينئذ البساتين مشحونة بالرجال ممن يَعمل في التمر من الأكَرَة، وهم الزُّرّاع وغيرهم؛ فلما أكلوا قال بعضهم لأبي خليفةَ غيرَ مُكنٍ له خوفاً أن يعرفَه من حَضرَ ممن ذكرنا من الأكرة والعمال في النخل: أخبرني أطالَ اللهُ بقاءك عن قول الله عز وجل: «(يأيُّها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً)» هذه الواو ماموقعها من الإعراب، قال أبو خليفةَ: موقعها رفعٌ، وقوله: « قوا » هو أمرٌ للجماعة من الرجال، قال له: كيف تقولُ للواحد من الرجال وللاثنين؟ قال: يُقالُ للواحد من الرجال: قِ، وللاثنين: قِيا، وللجماعة: قُوا؛ قال: كيف تقولُ للواحدة من النساء وللاثنتين منهن وللجماعة منهنّ؟ قال أبو خليفة: يُقالُ للواحدة: قي، وللاثنتين: قِيا، وللجماعة: قِينَ. قال: فأسألُك أن تعجلَ بالعجلة

(١) القواصر: ج قوصرة: وعاء للتمر.

كيف يقال للواحد من الرجال والاثنين والجماعة ، والواحدة من النساء والاثنتين منهن والجماعة منهن ؟ قال أبوخليفة عَجلان : قِ قِيا قُوا قِي قِيا قِينَ ؛ وكان بالقرب منهم جماعةٌ من الأكَرة ؛ فلمّا سمعوا ذلك استعظموه ، وقالوا : يازنادقة ، أنتم تقرؤونَ القرآنَ بحروفِ الدّجاج ، وعدَوْا عليهم فصفعوهم ، فما تخلّص أبوخليفة والقوم الذين كانوا معه من أيديهم إلا بعد كَدٍّ طويل .

وقد أتينا على نوادر أبي خليفة وأخباره ومخاطبته لبغلته حين ألقته وما تكلّم به حين دخول اللص إلى داره وغير ذلك في كتابنا « الأوسط » .

وكانت وفاةُ أبي خليفة بالبصرة في سنة خمس وثلاث مئة .

محمد بن الحسن بن سهل يدعو لرجلٍ طالبي : وفي سنة ثمانين ومئتين أُخِذ ببغدادَ رجلٌ يعرف بمحمّدِ ابن الحسن بن سهل (١) ابن أخي ذي الرّياستين الفضل بن

---

(١) سبقت ترجمة الحسن بن سهل .

سهل ، يلقب بشميلة ، ومعه عبيد الله بن المهتدي (١) ،
ولمحمد بن الحسن بن سهل هذا تصنيفات في أخبار المُبيِّضة (٢) ،
وله كتابٌ مؤلف في أخبار علي بن محمد صاحب الزنج
على حسب ما ذكرنا من أمره فيما سلف من هذا الكتاب ،
فأقر عليه جماعةٌ من المستأمنة من عَسْكر العلوي وأُصيبت
له جرائد فيها أسماءُ رجال قد أخذ عليهم البَيْعَة لرجل
من آل أبي طالب ، وكانوا قد عزموا على أنْ يَظْهروا
ببغداد في يوم بعينه ، ويقتلوا المعتضد ، فأدخلوا إلى المعتضد ،
فأبى مَن كان مَعَ محمد بن الحسن أن يُقِرُّوا ، وقالوا :
أمَّا الرجلُ الطالبي فإنَّا لانعرفهُ ، وقد أُخذَتْ علينا
البَيْعَةُ له ولم نرَهُ ، وهذا كان الواسطةَ بيننا وبينه ،
يعنون محمدَ بنَ الحسن ، فأمرَ بهم فقُتِلوا ، واستبقى
شميلة طمعاً في أنْ يدلَّه على الطالبي ، وخلَّى عبيدَ الله
ابن المهتدي لعلمه ببراءته ، ثم أراد المعتضدُ بالله بمحمد بن

---

(١) هو عبيد الله بن محمد بن هارون الواثق . وقد سبق ذكر أبيه المهتدي مفصلا .

(٢) المبيضة : فرقة من الثنوية : سموا بذلك ؛ لتبييضهم ثيابهم مخالفة للمسودة من العباسيين .

الحسن بجميع الجهات أن يدلّه على الطالبي الذي أخذَ له العهدَ على الرجال ؛ فأبى ، وجرى بينه وبين المعتضد خَطْبٌ طويل . وكان في مخاطبته للمعتضد أن قال : لو شَوَيْتَني على النار مازدْتُكَ على ماسمعتَ مِني . ولم أُقِرَّ على مَن دعوتُ الناس إلى طاعته وأقررتُ بإمامته ، فاصنعْ ماأنْتَ له صانع ؛ فقال له المعتضد : لسنا نعذّبُك إلا بما ذكرت ؛ فذُكِر أنه جُعِلَ في حَديدَةٍ طويلة أُدخِلَتْ في دُبُرِه وأُخرِجتْ من فمه وأمسك بأطرافها على نار عظيمة حتى مات بحضرة المعتضد وهو يَسبّهُ ويقولُ فيه العظائم ، والأشهرُ أنه جُعِلَ بين رِماحٍ ثلاثة وشُدَّ بأطرافها وكُتِّفَ وجُعِلَ فوقَ النارِ من غير أن يماسّها وهو في الحياة يُدارُ عليها ويُشوى كما تُشوى الدّجاجُ وغيرُها إلى أنْ تَفَرقَعَ جِسمُه ، وأُخرِجَ فصُلب بين الجسرين من الجانب الغربي .

من حزم المعتضد : ومما ذُكِرَ من خبر المعتضد وحزمه في الأمورِ وحِيَلِه أنّه أطلق من بيت المال لبعض الرسوم في الجندِ عَشر بِدَرٍ(١) ؛ فحُمِلَتْ إلى منزلِ

(١) بدر : ج بدرة والبدرة عشرة آلاف درهم .

صاحبِ عطاء الجيش ليتصرّفها فيهم ؛ فنُقِبَ منزلُه في تلك الليلة ، وأُخذتِ العشرُ البِدَرُ ، فلما أصبحَ نظرَ إلى النَّقْبِ ولم يرَ المالَ ، فأمر بإحضار صاحبِ الحرس ، وكان على الحرس يومئذٍ مؤنس العجلي ، فلما أتاه قال له : إنَّ هـذا المالَ للسلطان والجند ، ومتى لم تأتِ به أو بالذي نقبه وأخذَ المالَ ألزمك أمير المؤمنين غُرْمَه ، فجدَّ في طلبه ، وطلب اللصَّ الذي جسرَ على هذا الفعل ، فصار إلى مجلسه ، وأحضر التوابين والشُّرَطَ ، والتوابون : هم شيوخُ أنواعِ اللصوص الذين قد كبروا وتابوا ، فإذا جرت حادثة علِموا مِن فِعل مَن هي ، فدلُّوا عليه ، وربما يتقاسمون اللصوصَ ماسرقوه ، فتقدم إليهم في الطلب ، وتهدّدهم ، وأوعدَهم ، وطالبَهم ، فتفرّقَ القومُ في الدروب والأسواق والغرفِ والمواخيرِ ودكاكين الروّاسين ودورِ القمار ، فما لبثوا أن أحْضروا رجلاً نحيفاً ضعيفَ الجسم رثَّ الكُسْوة هيّن (١) الحالة . فقالوا : ياسيّدي ، هذا صاحبُ الفعْلة وهو غريبٌ

---

(١) الهين : الضعيف .

من غير هذا البلد . وأطبق القوم كلهم على أنه صاحب النقب ولص المال . فأقبل عليه مؤنس العجلي فقال له : ويلك ! ! من كان معك ؟ ومن أعانك ؟ وأين أصحابك؟ ماأظنك تقدر على عشر بدر وحدك في ليلة . ماكنتم إلا عشرة وأقل ذلك خمسة ، فأقر لي بالمال إن كان مجتمعاً ، وعلى أصحابك إن كان المال قد قسم ، فما زاده على الإنكار شيئاً . فأقبل يترفق به ويعده أن يثيبه ويرزقه ويعظم جائزته ، ويعده بكل جميل على رده والإقرار به ، ويتوعده بكل مكروه وهو على جحوده وإنكاره ، فلما غاظه ذلك وأنكره ويئس من إقراره أخذ في عقوبته ومساءلته ، فضربه بالسوط والقلاوس والمقارع والدرة (١) على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه وعضله . حتى لم يكن للضرب فيه موضع ، وبلغ به ذلك إلى حالة لايعقل فيها ولاينطق ، فلم يقر بشيء ، فبلغ ذلك المعتضد ، فأحضر صاحب الجيش ، فقال له : ماصنعت في المال ؟ فأخبره

(١) القلوس : ج قلس : حبل غليظ (يونانية) والدرة : عصا أو سوط يضرب به .

الخبر . فقال له : ويلك ! ! تأخذ لصاً قد سرق من بيت المال عشر بِدَرٍ فتبلغ به الموتَ والتلفَ حتى يهلكَ الرجلُ ويضيعَ المالُ ، فأين حِيَلُ الرجال ؟ قال : ياأميرَ المؤمنين ماأعلَمُ الغيبَ ، ولم تكن لي في أمره حيلةٌ غيرَ مافعلتُ ، قال : أحضِرني الرجلَ ؛ فأُتِيَ به وقد حُمِل في جِلٍّ (١) ، فوُضِعَ بين يديه وقد عَقَلَ ، فسأله فأنكر ؛ فقال له : ويلك ! ! إن مُتَّ لاينفعك ، وإن برئت من هذا الضرب ونجوتَ لم أدعَكَ تصلْ إليه ؛ فلك الأمانُ والضَّمانُ على ماتُصالِحُ به حالتَكَ ويُحمَدُ به أمرُك ، فأبى إلا الإنكار ، فقال : عليَّ بأهلِ الطبِّ ، فأُحضِروا ، فقال : خذوا هذا الرجل إليكم فعالجوه بأرفَقِ العلاج ، وواظبوا عليه بالمراهم والغذاء والتعاهُدِ ، واجتهدوا أن تُبرِئوه في أسرَع وقتٍ ؛ فأخذوه إليهم ؛ وأخرجَ مالاً مكانَ المال وأمر بتفريقه على الجند ؛ فيقال : إنه برِئَ وصلح في أيامٍ يسيرة ، ثم واظبوا عليه بالطعام والشرابِ والوطاءِ والطِّيبِ حتى صحَّ وقوي جسمُهُ وظهر لونهُ ورجعت إليه نفسُهُ ، ثم ذكَّر به ؛ فأمر

---

(١) الجل : البسط والأكسية .

بإحضاره ، فلما حضر بين يديه سأله عن حاله ، فدعا وشكر ، وقال : أنا بخير ماأبقى اللهُ أميرَ المؤمنين . ثم سأله عن المال ، فعاد إلى الإنكار ، فقال له : ويلَكَ !! لست تخلو من أن تكون أخذته وحدك كلَّه أو وصل إليك بعضُه ، فإن كنت أخذته كلَّه ، فإنك تُنفقه في أكلٍ وشرب ولهو ، ولا أظنك تُفنيه قبلَ موتك ، وإن متَّ فعليك وِزْرُه ، وإن كنتَ أخذتَ بعضَه سمحنا لك به ، فأَقِرَّ لنا به وأَقِرَّ على أصحابك ، فإني أقتلُك إن لم تُقِرَّ ، ولا ينفعُك بقاءُ المال بعدَك ، ولا يبالي أصحابُك بقتلك ، ومتى أقررتَ دفعْتُ إليك عشرةَ آلافِ درهمٍ ، وأخذتُ لك من أصحاب الجسر مثلَ ذلك ، ورسمتُك من التوَّابين ، وأجريتُ لك في كل شهر عشرةَ دنانيرَ تكفيك لأكلك وشُربك وكسوتك وطيبك ، وتكونُ عزيزاً ، وتنجو من القتل ، وتتخلَّص من الإثم ، فأبى إلا الإنكار ، فاستحلفه بالله فحلف وأظهر له مُصحفاً واستحلفه فحلفَ عليه ، فقال : إني سأظهَرُ على المال ، فإن أنا ظَهَرتُ عليه بعد هذه اليمين قتلتُك ولم أستبقِك ، فأبى إلا الإنكار . فقال له : فَضَعْ يدَكَ على رأسي واحلف بحياتي ، فوضع يدَهُ على رأسه ،

وحلف بحياته أنّه ماأخذه وأنه مظلوم مُتَّهم ، وأن التوّابين قد تبرؤوا به ، فقال له المعتضد : فإن كنتَ قد كذبتَ قتلتُك وأنا بريء من دمك ؟ قال : نعم ، فأمر بإحضار ثلاثين أسود ، بحيث يراهم ويرونه ، وأمرهم أن يتناوبوا في ملازمته فأتت عليه أيام وهو قاعد لايتكىء ولايستند ولايستلقي ولا يضطجع ، وكلما خَفَقَ خفقةً وُجِىء(١) فَكُه وقمع رأسهُ (٢) ، حتى إذا ضَعُفَ وقاربَ التّلفَ، أمرَ بإحضاره ، فأعاد عليه ماكان خاطبه به واستحلفه بالله وبغير ذلك من الأَيمان ، فحلف على ذلك كلّه وبما لم يستحلفه به أنه ماأخذ المالَ ولايعرف مَن أخذَه. فقال المعتضد لمن حضر : قلبي يشهدُ أنه بريء ، وأن مايقولُ حقٌّ ، وأن التوّابين قد عرفوا صاحبه ، وقد أثمنا في هذا الرجل ، وسأله أنْ يجعلَه في حِلٍّ ، ففعل ، ثم أمر بإحضار مائدة عليها طعام ، وأحضرَ باردَ الشراب ، وأمرَه بالجلوس والأكل والشرب ، فأقبل يأكل ويشربُ ، ويُحَثُّ على الأكل . ويُلَقّمُ ويُعادُ الشراب عليه

---

(١) خفق : تحرك واضطرب . وجىء : ضرب .

(٢) قمع رأسه : ضرب بالمقمعة وهي عصا من حديد كالمحجن .

ويُكَرَّر ؛ حتى لم يبقَ للأكل والشرب موضع . ثم أمر ببخــور وطيب فبُخِّر وطُيِّبَ . وأُتِيَ له بحَشِيَّة ريش فوُطِّىءَ له ومُهِّدَ . فلما استلقى واستراح وغفا أمر بإزعاجه وسُرعةِ إيقاظه . فحُمِلَ من موضعه حتى أُقعِدَ بين يديه وفي عينيه الوَسَنُ ، فقال له : حدِّثني كيف صنعت ؟ وكيف نَقَبْتَ ؟ ومن أينَ خرجت ؟ وإلى أين ذهبتَ بالمال ؟ ومَنْ كان معك ؟ قال : ماكنتُ إلا وحدي ، وخرجتُ من النَّقْبِ الذي دخلتُ منه ، وكان مقابلَ الدار حمَّامٌ له كُومُ شَوك يُوقَدُ به ، فأخذتُ المال ورفعت ذلك الشَّوك والقماشَ والقصَب فوضعته تحتَه وغطَّيته ، وهو هنالك ، فأمرَ برده إلى فراشه ، فردّوه وأضجعوه عليه ، ثم أمرَ بإحضار المال ، فأُحضِرَ عن آخره ، وأحضرَ مؤنس العجلي ، وأحضر الوزيرَ والجلساءَ ، وقد غطَّى المالَ بالبساط ناحيةً من المجلس ثم أمر بإيقاظ اللص وقد اكتفى في النوم وذهبَ عنه الوسَنُ ، فقال له بحضرة الجميع مثلَ قوله الأول ، فجحدَ وأنكرَ . فأمر بكَشْف البساط . وقال له: ويلك ! ! أليس هذا المال ؟ أليس فعلتَ كذا وكذا ؟

يصِفُ له ما كان حدّثه به . فأسقطَ في يد اللص ، ثم أمر فقُبِضَ على يديه ورجليه وأُوثِقَ . ثم أمر بمنفاخ فنُفِخَ في دُبُرِه . وأُتِيَ بقطن فحُشي في أذنيه وفمه وخيشومه وأقبل يُنفخ . وخلّى عن يديه ورجليه من الوثاق ، وأمسك بالأيدي وقد صار كأعظم ما يكون من الزُقاق المنفوخة . وقد ورم سائرُ أعضائه وعَظُم جسمهُ . وعيناه قد امتلأتا وبرزتا . فلما كاد أن ينشقّ أمر بعض الأطباء فضربه في عِرقين فوق الحاجبين ؛ وهما فوق الجبين . فأقبلت الريح تخرج منهما مع الدم ولها صوت وصفير إلى أنْ خَمَدَ وتَلِفَ . وكان ذلك أعظمَ منظر رُؤي في ذلك اليوم من العذاب . وقيل : إن البِدَر كانت عيْناً (١) . وإن عَدَدَها كان أكثرَ مما وصفنا .

مصادرة ابن الطيب السرخسي ومقتله : وفي هذه السنة — وهي سنةُ ثلاث وثمانين ومئتين — قَبَضَ المعتضدُ على أحمدَ بن الطيِّب بن مروان السَّرخسي صاحب يعقوب بن إسحاق الكنديّ ، وسلّمه إلى بدرٍ

---

(١) العين : الذهب المضروب .

غلامه . ووجّه إلى داره مَن قبض على جميع ماله . وقرّر جواريه على المال حتى استخرجوه . فكان جملةُ ماحصلَ من العيّن والورق وثمن الآلات خمسين ومئة ألف دينار . وكان ابنُ الطيّب قد ولي الحسْبة ببغداد . وكان موضعهُ من الفلسفة لايُجهلُ . وله مصنّفاتٌ حسانٌ في أنواعٍ من الفلسفة وفنونٍ من الأخبار .

وقد تنازع الناسُ في كيفية قتله . والسببِ الذي من أجله كان قتلُ المعتضدِ إياه . وقد أتينا على ماقيل في ذلك في كتابنا المترجم بالأوسط . فأغنى ذلك عن إعادته في ذلك الكتاب .

شبـــح يتشكل للمعتضد : وفي هـــذه السنةِ ظهرَ للمعتضد شخصٌ في صُوَرٍ مختلفة في داره . فكان تارةً يَظهرُ في صورةِ راهب ذي لحيةٍ بيضاء وعليه لباسُ الرهبان، وتارةْ يظهر شاباً حَسَنَ الوجهِ ذا لحية سوداء بغير تلك البزّة . وتارةً يظهر شيخاً أبيضَ اللحيةِ ببزّة التجار ، وتارة يظهر بيده سيفٌ مسلول وضَربَ بعضَ الخدم فقتله . فكانت الأبواب تؤخذ وتغلق فيظهرُ له أينَ كان في بيتٍ أو صحنٍ أو غيرهِ . وكان يَظهرُ له في أعلى

الدار التي بناها ، فأكثر الناس القول في ذلك ، واستفاض الأمر واشتهر في خواص الناس وعوامهم ، وسارت به الركبان ، وانتشرت به الأخبار والقول في ذلك على حسب ما كان يقع لكل واحد منهم ، فمن قائل : إن شيطاناً مريداً صمد له يظهر فيؤذيه ، ومنهم من يقول : إن بعض مؤمني الجن رأى ما هو عليه من المنكر وسفك الدماء فظهر له رادعاً وعن المنكر زاجراً ، ومنهم من رأى أن ذلك بعض خدمه كان قد هوي بعض جواريه فاحتال بحيلة فلسفية من بعض العقاقير الخاصة فيضعها في فمه فلا يدرك بحاسة البصر ، وكل ذلك ظن وحسبان ، فأحضر المعتضد المعزمين (١) ، واشتد قلقه ، واستوحش ، وحاز عليه أمره (٢) ، فقتل وغرق جماعة من خدمه وجواريه ، وضرب جماعة منهم ، وقد أتينا على الخبر في ذلك ، وما حكي عن أفلاطون في هذا المعنى ، وعلى خبر شغب أم المقتدر بالله ، والسبب

(١) المعزمون : ج معزم : صاحب الرقية .

(٢) حاز عليه أمره : أي غلب عليه أمره فركب مالا يحب .

الذي من أجْله حبَسَها المعتضدُ وأرادَ قَطْعَ أنفها والتَّشويهَ بها في كتابنا « أخبار الزمان » .

وفاة المعتضد : وكانت وفاةُ المعتضد لأربعِ ساعاتٍ خلت من ليلة الاثنين لثمانٍ بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومئتين ، في قصره المعروف بالحسني . بمدينة السلام ، وقيل : إنَّ وفاتَه كانت بِسمٍّ إسماعيل بن بلبل (١) قبل قتْلهِ إياه ، فكان يَسْري في جسده . ومنهم من ذَكر أن جسمَه تخلَّلَ في مسيره في طلب وصيف الخادم على ماذكرنا ، ومنهم من رأى أن بعضَ جواريه سمَّتْهُ في منديلٍ أعطته إياه يتنشَّفُ به ، وقيل غيرُ ذلك مما عنه أعرضنا .

وقد كان أوصى أن يُدفن في دار محمد بن عبد الله ابن طاهر ، في الجانب الغربي من الدار المعروفة بدار الرُّخام ، فلما اعتراهُ الغَشْيُ ووقع الموت شكُّوا في

---

(١) إسماعيل بن بلبل — وزير المعتضد قبل توليه الخلافة . وكان تصرف بالأموال في أثناء غياب الموفق في حرب الجبل . قيده المعتضد ثم عذبه بصنوف العذاب حتى الموت . وكانت وفاته سنة ٢٧٨ هـ .

وفاته . فتقدمَ الطبيبُ إلى بعض أعضائه فجسَّه فأحسَّ به وهو على مابه من السَّكَرات ، فأنِفَ من ذلك وركلَه برجله فقلبَه أذرعاً ، فيُقال : إن الطبيبَ ماتَ منها ؟ ومات المعتضدُ من ساعته ؛ وسَمِعَ ضجَّةً وهو على مابه من الحال ، ففتحَ عينيه ، وأشار بيديه كالمستفهم . فقال له مؤنس الخادم : ياسيِّدي . الغلمان قد ضجوا عند القاسم ابن عبيد الله ؛ فأطاقنا لهم العطاء . فقطَّب وهمهم في سكرته فكادت أنفُسُ الجماعة أن تخرج من هيبته ، وحُمِل إلى دار محمد بن عبد الله بن طاهر ، فدفن بها .

قال المسعودي : وللمعتضد أخبارٌ وسير وحروبٌ ومسير في الأرض غيرَ ماذكرنا ، قد أتينا على ذكرها والغُرَر من مبسوطها في كتابينا « أخبار الزمان » و « الأوسط ».

ذكر خلافة المكتفي بالله

موجز : وبُويع المكتفي بالله — وهو عليُّ بن أحمد المعتضد — بمدينة السلام ، في اليوم الذي كانت فيه وفاةُ أبيه المعتضد ، وهو يوم الاثنين لثمانٍ بَقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومئتين ، وأخذَ له البَيْعةَ

القاسمُ بنُ عُبيدِ الله . والمكتفي يومئذٍ بالرقة . وللمكتفي يومئذٍ نَيِّفٌ وعشرون سنة، ويُكَنَّى بأبي محمد . فكان وصول المكتفي إلى مدينة السلام من الرقة يوم الاثنين لسبع ليال بَقِينَ من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين ومئتين ، وكان دخولهُ في المساء . ونزلَ قصرَ الحسني على دجلة ، وكانت وفاتهُ يوم الأحد لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَتْ من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومئتين . وهو يومئذٍ ابن إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، فكانت خلافتُهُ ستَّ سنين وسبعةَ أشهر واثنين وعشرين يوماً . وقيل : ست سنين وستة أشهر وستة عشر يوماً . على تباين الناس في تواريخهم ، والله أعلم .

ذكر جمل من أخباره ، وسيره ، ولمع مما كان في أيامه

اسم عليّ في الخلفاء : ولم يتقلَّد الخلافَة إلى هذا الوقت ـــ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة ـــ من خلافة المتقي بالله مَنْ اسمهُ عليٌّ إلا علي بن أبي طالب والمكتفي.

ردُّ المظالم إلى أهلها : ولما نَزَلَ المكتفي قَصْرَ الحسني في اليوم الذي كان فيه دخولهُ إلى مدينة السلام

خلعَ على القاسم بن عبيد الله ، ولم يخلع على أحد من القوّاد ، وأمرَ بهدمِ المطامير التي كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس ، وإطلاق من كان محبوساً فيها ، وأمر بردّ المنازل التي كان المعتضد اتخذها لموضع المطامير إلى أهلها ، وفرق فيهم أموالاً . فمالت قلوبُ الرعية إليه . وكثر الداعي له بهذا السبب .

مالية الدولة : ومات المكتفي وقد خلّف في بيوت الأموال من العَين ثمانيةَ آلافِ ألف دينارٍ ، ومن الوَرِقِ خمسةً وعشرين ألف ألف درهم . ومن الدوابّ والبغال والجمّازات وغيرِها تسعةَ آلاف رأس . وكان مع ذلك بخيلاً ضيّقاً .

وأخبرنا أبوالحسن أحمد بن يحيى المنجم المعروف بابن النديم ، وكان من حُذّاق أهل النظر والبحث وأهل الرياسة من أهل التوحيد والعدل (١) ، وفي أخيه علي بن

---

(١) أهل التوحيد و العدل : هم المعتزلة , الذين قالوا : إن الله تعالى واحد في ذاته ، لا قسمة له ولا صفة ، وواحد في أفعاله لا شريك له . والعدل في نظرهم مايقتضيه العقل من الحكمة، وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة .
الملل والنحل : ج١ ص ٤٢ — ٤٣ .

يحيى (١) يقول أبو هفان (٢) :

لربيع الزمان في الحول وقت
وابنُ يحيى في كل وقتٍ ربيع
رَجُلٌ عنده المكارم سُوقٌ
يشتري دهرَه ونحن نبيعُ

وظيفته من الطعام : قال : وكانت وظيفة المكتفي بالله عشرة ألوان في كل يوم ، وجديٌ في كل جمعة . وثلاث جامات حلواء ، وكان يردد عليه الحلواء ؛ ووكّل على مائدته بعضَ خدمه . وأمَرَه أن يُحصيَ مافضل من الخبز ، فما كان من المكسّر عزله للثريد .

---

(١) هو أبوالحسن علي بن يحيى : كان مؤتمناً لدى الخلفاء العباسيين ، وكان شاعراً محسناً، وراوية للأشعار والأخبار . له كتب منها : « كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين » . توفي بسر من رأى . (٢٠١ — ٢٧٥ هـ) .

(٢) هو أبوهفان المهزمي : ذكره صاحب الفهرست في جملة الشعراء المحدثين (عباسي) وكان إخبارياً ، راوية ، مصنفاً،وله من الكتب : كتاب الأربعة في أخبار الشعراء .

وما كان من الصّحاح رُدّ إلى مائدته من الغد . وكذلك كان يفعل بالبوارد (١) والحلواء .

نهب ضياعاً من أهلها: وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشمّاسيّة بإزاء قُطْرَبُّل (٢) . فأخذ بهذا السبب ضياعاً كثيرة، ومزارع كانت في تلك النواحي بغير ثمن من مُلاّكها فكثُرَ الداعي عليه، فلم يستتمّ ذلك البناء حتى توفي، كان هذا الفعل مشاكلاً لفعل أبيه المعتضد في بناء المطامير .

قسوة وزيره : وكان وزيره القاسم بن عبيد الله(٣) عظيم الهيبة ، شديد الإقدام . سفاكاً للدماء ، وكان الكبير والصغير على رعب وخوف منه ، لايعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه .

وفاة الوزير : وكانت وفاته عشية الأربعاء لعشر خلون من ربيع الآخرة سنة إحدى وتسعين ومئتين ، وله نيف وثلاثون سنة ، ففي ذلك يقول بعض أهل الأدب وأراه عبد الله بن الحسن بن سعد :

---

(١) لعله قصد الأطعمة الباردة .

(٢) قطربل : من كور بغداد واسم قرية من قراها .

(٣) سبقت ترجمته .

شربنا عشيّـة مـات الوزيـــر
ونشـرب يـــاقوم في ثالثــه
فلا قدّس الله تلك العظـــام
ولا بارك الله في وارثــــه

مقتل ابن الرومي : ومن أهلكه القاسم بن عبيد الله على ماقيل بالسُمّ في خشكنانجة (١) علي بن العباس بنُ جُرَيج الرومي ، وكان منشؤه ببغداد ووفاتهُ بها ، وكان من مختاتي معاني الشعراء ، والمجوّدين في القصير والطويل ، متصرّفاً في المذهب تصرفاً حسناً ، وكان أقلّ أدواته الشعرُ . ومن محكم شعره وجيده قوله :

رأيتُ الدهــر يجرَحُ ثم يـــأســو
يعوّضُ أو يُســلّي أو يُنَسّي
أبت نفسي الهـــلوعَ لفقد شيء
كفى حزناً لنفسي فقدُ نفسي

ومن قوله العجيب الذي ذهب إلى معاني فلاسفة اليونانيين

---

(١) الخشكنانج : نوع من الكعك يحشى بالجوز والسكر .

ومن مهر من المتقدمين قولهُ في القصيدة التي قالها في صاعد بن مَخْلَد :

لما تُؤذِن الدنيا به من زوالها
يكونُ بكاءُ الطفل ساعةَ يُوضع

وإلا فما يُبكيه منها ، وإنها
لأفسحُ مما كان فيه وأوسع ؟

ومما دق فيه فأحسن وذهب إلى معنى لطيف من النظر على ترتيب الجدليين وطريقة حذّاق المتقدمين قوله :

غموضُ الشيء حين تذبُّ عنه
يُقلِّلُ ناصرَ الخصم المحقّقْ

تضيقُ عقولُ مستمعيه عنه
فيقضي للمُجلّ على المُدقّقْ

وفاة جماعة من الأعيان : وفي سنة تسعين ومئتين مات عبدالله بن أحمد بن حنبل (١) ، يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة .

(١) هو عبدالله بن أحمد بن محمد بن حنبل ، من بني شيبان : حافظ للحديث . من أهل بغداد . له مصنفات منها : « الزوائد » على كتاب الزهد لأبيه . . (٢١٣ – ٢٩٠) هـ .

وفي سنة إحدى وتسعين ومئتين كانت وفاة أبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب . ليلة السبت لثمانٍ بقين من جمادى الأولى . ودُفِنَ في مقابر باب الشام في حجرة اشترُيت له . وخلّف واحداً وعشرين ألف درهم وألفي دينار . وغلّة بشارع باب الشام قيمتُها ثلاثة آلاف دينار .

من أخبار ثعلب : ولم يزل احمدُ بنُ يحيى مُقَدَّماً عند العلماء منذ أيام حداثته إلى أن كبر وصار إماماً في صناعته ، ولم يُخلِّفْ وارثاً إلا ابنةً لابنه ، فردَّ ماله عليها ، وكان هو ومُحمد المبرِّد عالمين قد خُتِمَ بهما خاتَمُ الأُدباء ، وكانا كما قال بعض الشعراء من المحدثين :

أيا طالبَ العلم لاتجهلن
وعُذ بالمبرّدِ أو ثعلبِ

تجد عند هذين علمَ الورى
ولا تكُ كالجمل الأجربِ

عـــلومُ الخـــلائق مقـــرونة

بـهـــذين في الشـــرق والمغرب

وكان محمد بن يزيد المبرِّد يُحِبُّ أنْ يجتمعَ في المناظرة مع أحمد بن يحيى ويستكثرَ منه ؛ وكان أحمد ابنُ يحيى يمتنع من ذلك .

وأخبرنا أبوالقاسم جعفر بن حمدان الموصلي الفقيه — وكان صديقَهما — قال : قلت لأبي عبد الله الدِّيْنَوَرِيّ ختَنِ(١) ثعلب : لِمَ يأبى أحمدُ بنُ يحيى الاجتماعَ مع المبرد ؟ فقال لي : أبوالعباس محمد بن يزيد حَسَنُ العبارة ، حلْوُ الإشارة ، فصيحُ اللسان ، ظاهرُ البيان ، وأحمدُ بنُ يحيى مذهبُهُ مذهبُ المعلِّمين ، فإذا اجتمعا في مَحفلٍ حُكِمَ لهذا على الظاهر إلى أنْ يُعْرَفَ الباطنُ .

وأخبرنا أبو بكر القاسمُ بنُ بشّار الأنباري النحْوي ، أنّ أبا عبد الله الدينوري هذا كان يختلف إلى أبي العباس

(١) ختن الرجل : صهره .

المبرد يقرأ عليه كتابَ سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر . فكان ثعلبُ يَعذلهُ على ذلك ، فلم يكن ذلك يردعهُ .

وقيل : إن وفاة أحمد بن يحيى ثعلب كانت في سنة اثنتين وتسعين ومئتين .

علة المكتفي : قال : واشتدت علة المكتفي بالله بالذَّرَب(١) ، فأحضر محمد بن يوسف القاضي وعبد الله ابن علي بن أبي الشوارب ، فأشهدهما على وصيته بالعهد إلى أخيه جعفر ، وقد قدمنا ذكر وفاته فيما سلف من هذا الكتاب فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع .

قال المسعودي : وللمكتفي بالله أخبار حسان . وما كان في عصره من الكوائن في قصة ابن البامخي بمصر . وأمر القرمطي بالشام ، وأمر زكرويه وخروجه على الحاجّ ، وغير ذلك مما كان في خلافته ، وقد أتينا على جميع ذلك في كتابينا « أخبار الزمان » و «الأوسط» ، فأغنى ذلك عن إعادة ذكره .

---

(١) الذرب : الداء الذي لا يبرأ .

ذكر خلافة المقتدر بالله

موجز : وبويع المقتدرُ بالله جعفر بن أحمد في اليوم الذي تُوفي فيه أخوه المكتفي بالله. وكان يومَ الأحد لثلاثَ عَشْرَةَ ليلةً خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومئتين ، ويكنى أبا الفضل ، وأمه أم ولد يقال لها شغب . وكذلك أم المكتفي أمٌ ولد يقال لها: ظَلُومُ ، وقيل غير ذلك ، وكان له يومَ بويع ثلاثَ عشرةَ سنةً ، وقُتِل ببغداد بعد صلاة العصر . يوم الأربعاء لثلاث ليالٍ بقينَ من شوال سنة عشرين وثلاث مئة ؛ فكانت خلافتهُ أربعاً وعشرين سنةً وأحَدَ عَشَرَ شهراً وستّةَ عشر يوماً . وبلغَ من السن ثمانيةً وثلاثين سنةً وخمسةَ عَشَرَ يوماً ، وقد قيل في مقدار عمره غير ماذكرنا ، والله أعلم .

ذكر جمل من أخباره ، وسيره ، ولمع مما كان في أيامه

مقتل وزيره : وبويع المقتــدر وعلى وزارتــه

العباس بن الحسن (١) إلى أن وثَبَ الحسين بن حمدان(٢) . ووصيف بن سوارتكين . وغيرهما من الأولياء على العباس ابن الحسن فقتلاه وفاتكاً معه ، وذلك في يوم السبت لإحدى عَشَرَة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة ست وتسعين ومئتين ، وكان من أمر عبد الله بن المعتز ، ومحمد بن داود وغيرهما ماقد اتضح في الناس واشتهر . وأتينا على ذكره في الكتاب الأوسط وغيره في أخبار المقتدر بالله .

مصنَّفات في سيرة المقتدر : وقد صنفَّت جماعةٌ من الناس أخبارَ المقتدر مجتمعةً مع أخبار غيره من الخلفاء ومفرَدةً ، وعمل ذلكٌ في أخبار الدولة من أخبار بغداد ،

---

(١) هو العباس بن الحسن بن أيوب الجرجرائي : من وزراء الدولة العباسية . استوزره المكتفي . ولما مات المكتفي قام العباس بالبيعة للمقتدر وانفرد بأعمال الدولة . وكان أديباً بليغاً . (٢٤٧ - ٢٩٦) ﻫ .

(٢) الحسين بن حمدان التغلبي : أحد الأمراء الشجعان المقدمين في العصر العباسي، وهو عم سيف الدولة الحمداني . كان من أنصار ابن المعتز . قتله المقتدر سنة ٣٠٣ ﻫ .

وقد صنف أبوعبدالله بن عبدوس الجهشياري (١) أخبارَ المقتدر بالله في ألوف من الأوراق ، ووقع لي منها أجزاءٌ يسيرة .

وأخبرني غيرُ واحدٍ من أهل الدراية أنَّ ابنَ عبدوس صنَّفَ أخبارَ المقتدر في ألف ورقة ، وإنما نذكر من أخبار كلٍّ واحدٍ منهم لمعاً ، وإنما الغرض جوامعُ من أخبارهم تبعث على دَرسه وحفظ مافيه ونسْخهِ .

عبد الله بن المعتز : وكان عبدُ الله بن المعتز أديباً ، بليغاً ، شاعراً ، مطبوعاً ، مُجوِّداً ، مقتَدِراً على الشعر ، قريبَ المأخذ ، سَهلَ اللفظ ، جيدَ القريحة ، حسن الاختراع المعاني ، فمن ذلك قولهُ :

تقول العاذلاتُ : تَعَزَّ عنها
وأطفِ لهيبَ قلبك بالسلوِّ

---

(١) هو محمد بن عبدوس بن عبدالله الكوفي الجهيشاري : مؤرخ من الكتاب المترسلين . كان حاجباً للوزير حامد بن العباس في خلافة المقتدر . له عدة تصانيف منها : « كتاب الوزراء والكتاب » و « أسماء العرب والعجم والروم وغيرهم » . توفي سنة ٣٣١ هـ .

وكيف وقُبْلةٌ منها اختلاسا
ألذُّ من الشماتةِ بالعدوِّ ؟

وقوله :

ضعيفة أجفانهُ والقلبُ منه حَجَرُ
كأنما ألحاظهُ من فِعْلِهِ تعتذر

وقوله :

تولّى الجهلُ ، وانقطعَ العتابُ
ولاح الشيبُ ، وافتُضِحَ الخضابُ
لقد أبغضتُ نفسي في مَشيبي
فكيف تُحبّني الخُودُ الكعابُ ؟

وقوله :

عجباً للزمان في حالتيه
وبَلاءٍ دُفِعتُ منه إليه
رُبَّ يومٍ بكيت فيه فلما
صرت في غيره بَكَيتُ عليه

وفاة محمد بن داود الأصبهاني : قال : وكانت وفاةُ أَبي بكر محمدِ بنِ داود بن علي بن خلف الأصبهاني الفقيه سنةَ ستٍّ وتسعين ومئتين ، وكان ممن قد علا في موارد الأدب ، وتصرَّفَ في بحار اللغة ، وتفنَّنَ في موارد المذاهب ، وأشفى على أغراض المطالب ، وكان عالماً بالفقه منفرداً ، وواحداً فيه فريداً ، وألَّفَ في عنفوان صباه وقبل كَماله وانتهائه الكتابَ المعروفَ بالزَّهرة ، ثم تناهت فكرتهُ ، ونسقتْ قوّتهُ ، فصنَّفَ الفقهياتِ ككتابه في الوصول إلى معرفة الأصول ، وكتاب الإنذار ، وكتاب الإعذار والإيجاز ، وكتابه المعروف بالانتصار على محمد بن جرير وعبدالله بن شرشير وعيسى بن إبراهيم الضرير .

ومما قاله فيه فأحسن في عنفوان شبابه ، وأثبته في كتابه المترجم بالزهرة ، وعزاه إلى بعض أهل عصره . وإن كان محسناً في سائر كلامه من منظومه ومنثوره قوله :

على كبدي من خيفة البين لَوعةٌ
يكادُ لها قلبي أسىً يتصدَّعُ

يخاف وقوعَ البين والشملُ جامع
فيبكي بعينٍ دمعُها متسرّعُ

فلو كان مسروراً بما هو واقعٌ
كما هو محزون بما يتوقّعُ

لكان سواءً بُرْؤُه وسقامُه
ولكن وشْكَ البين أدهى وأوجَعُ

وفاة علي بن محمد بن بسام: وفي سنة ثلاثٍ وثلاث مئة في خلافة المقتدر بالله كانت وفاةُ عليّ بن محمد بن نصر ابن منصور بن بسام ؛ وكان شاعراً لَسِناً ، مطبوعاً في الهجاء ، ولم يسلم منه وزيرٌ ولا أمير ولاصغير ولا كبير . وله هجاء في أبيه وإخوته وسائر أهل بيته ؛ فمما قال في أبيه محمد بن نصر :

بَنى أبو جعفر داراً فشيَّدها
ومثلُه لخيار الدّور بَنّاءُ

فالجوع داخلَها ، والذُلُّ خارجَها
وفي جوانبها بؤسٌ وضَرّاء

ماينفع الدارَ من تشييدِ حـــائطها
وليس داخلَهـا خـبزٌ ولا ماء

ولعلي بن محمد بن بسام في هذه المعاني أشعار كثيرة ، اكتفينا بذكر البعض عن إيراد ماهو أكثر منه في هذا الكتاب ، لما قدمنا ذكره فيما سلف قبله من الكتب ؛ وقد كان أبوه محمدُ بنُ نصر بنِ منصور في غايةِ السرورِ والمروءة ، وكان رَجُلاً مترفاً ، حَسَنَ الزِّي ، ظاهرَ المروءةِ ، مشغوفاً بالبناء .

وذكر أبوعبد الله القُمِّي قال : دخلت عليه يوما شاتياً ، شديد البرد ببغداد ، فإذا هو في قُبَّةٍ واسعة قد طُليت بالطين الأحمر الأرمني ، وهو يلوح بريقاً ، فقدرت أن تكون القبة عشرين ذراعاً في مثلها ، وفي وسطها كانون بزرافين (١) إذا اجتمع ونُصِبَ كان مقداره عشرة أذرع في مثلها ، وقد مُلِيءَ جمرَ الغضى ، وهو جالس في صدر القبة ، عليه غِلالة تُسْتَرية ، وما فضلَ عن الكانون مفروشٌ بالديباج الأحمر ، فأجلسني

(١) الكانون : الموقد والمصطلى . والزرافين ج زرفين : الحلقة .

بالقرب منه ، فكدت أتلظى ، فدفع إليّ جامَ ماءِ الورد ، وقد مُزِج بالكافور . فمسحت به وجهي ، ثم رأيتهُ قد استسقى ماء ، فأتَوه بماء رأيتُ فيه ثلجاً ؛ فلم يكن لي وُكْدٌ (١) إلا قطع مابيني وبينه ، ثم خرجت من عندِهِ إلى بردٍ مائع ، وقد قال لي : لايَصلُحُ هذا البيت لمن يريدُ الخروجَ منه .

طعام محمد بن نصر : قال : ودخلت عليه في بعض الأيام وهو جالس في موضع آخر في داره ، وقد رفعه على بِرْكة ، وفي صدره صُفَّة ، وهو يُشرِف منها على البستان ، وعلى حَيْر الغزلان (٢) ، وحظيرة القُماري وأشباهها ، فقلت له : ياأبا جعفر ، أنت والله جالس في الجنة ، قال : فليس ينبغي لك أن تخرجَ من الجنةِ حتى تصطبحَ فيها ، فما جلستُ واستقرَّ بي المجلسُ حتى أتوهُ بمائدة جَزْعٍ (٣) لم أرَ أحسنَ منها ، وفي

---

(١) الوكد : المراد والقصد . أي أنه لم يستطع البقاء في المجلس لحرارة المصطلى .

(٢) حير الغزلان : حظيرتها .

(٣) الجزع : الخرز اليماني ؛ وهو الذي فيه سواد وبياض .

وسطها جامُ جَزْعٍ ماوَّنة ، قد لُوِيَ على جنباتها الذهبُ الأحمر ، وهي مملوءةٌ من ماء ورد ، وقد جُعِلَ سافاً على ساف (١) كهيئة الصومعة من صدور الدجاج ، وعلى المائدة سُكُرُّجَات (٢) جَزْع فيها الأصباغُ وأنواع الملح ، ثم أُتِينا بسَنْبُوسَق (٣) يفور وبعده جامات اللوزينج (٤) ، ورُفعت المائدة ، وقمنا من فورنا إلى موضع الستارة ، فقُدِّم بين أيدينا إجّانةُ (٥) صيني بيضاء قد كُوِّمت بالبنفسج والخيري ، وأخرى مثلها قد عُبِّيءَ فيها التفاح الشامي قَدَّرْنا مقدار ماحضر فيها ألف تفاحة ، فما رأيت طعاماً أنظف منه ولا ريحاناً أظرف منه ، فقال لي : هذا حَقُّ الصَّبوح ، فما أنسى إلى الساعة طيبَ ذلك اليوم .

---

(١) الساف : الصف .

(٢) سكرجات : ج سكرجة : الصحفة التي يوضع فيها الأكل (فارسية) .

(٣) السنبوسق : رقاق من العجين المعجون بالسمن تحشى باللحم والجوز . (فارسية) .

(٤) اللوزينج : نوع من الحلوى شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز (فارسية) .

(٥) إجانة : إناء كبير .

مقتل المقتدر : وقُتِلَ المقتدرُ بالله ببغداد وقتَ صلاة العصر يوم الأربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلاث مئة ،وكان قتاله في الوقعة التي كانت بينه وبين مؤنس (١) الخادم بباب الشمّاسيّة من الجانب الشرقي ، وتولّى دفنَ المقتدر العامّةُ . وكان وزيرهُ في ذلك اليوم أبا الفتح الفضل بن جعفر بن موسى بن الفرات (٢) على حسب ماذكرنا .

وذُكِرَ أن الفضلَ أخذ الطالعَ في وقت رُكوبِ المقتدر بالله إلى الوقعة التي قُتِلَ فيها ، فقال له المقتدر : أيُّ وقتٍ هو ؟ فقال : وقتُ الزّوال ، فتَقَطّبَ له المقتدر وأراد أنْ لايخرجَ حتى أشرفت عليه خَيلُ مؤنس ، فكان آخر العهد به من ذلك الوقت .

السادس من بني العباس : وكلُّ سادسٍ من خلفاء

---

(١) مؤنس الخادم : من الخدم الذين بلغوا رتبة الملوك . كان من خدم المعتضد ، وكان أبيض فارساً شجاعاً من الساسة الدهاة بقي ستين سنة أميراً حارب المقتدر فلما تمكن القاهر قتله . (٢٣١ - ٣٢١) هـ .

(٢) الفضل بن جعفر : وزير من الكتاب . من أعيان الدولة العباسية . استوزره المقتدر والقاهر . مات بالرملة . (٢٨٠ - ٣٢٧) هـ .

بني العباس مخلوعٌ مقتولٌ ، فكان السادسُ منهم محمدُ ابنَ هارون المخلوع ، والسادسُ الآخرُ : المستعينَ ، والسادسُ الآخرُ : المقتدرَ بالله .

وللمقتدرِ أخبارٌ حسان ، وما كان في أيامه من الحروب والوقائع ، وأخبار ابن أبي الساج ، وأخبار مؤنس ، وأخبار سليمان بن الحسن الحماني (١) وما كان منه بمكة في سنة سبع عشرة وثلاث مئة وغيرها ، وما كان في المشرق والمغرب ، وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » مفصلاً ، وفي الكتاب الأوسط مجملاً ، وذكرنا منه في هذا الكتاب لمعاً ، وأرجو أن يفسح لنا الله في البقاء ، ويمد لنا في العمر ، ويسعدنا بطول الايام ، فنعقب تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر نضمنه فنون الأخبار ، وأنواعاً من طرائف الآثار ، على غيرِ نظم من تأليف ولا ترتيب من تصنيف على حسب مايسنح من فوائد الأخبار ، ويوجد

(١) سليمان بن الحسن الجنابي : وليس الحماني : هو زعيم القرامطة في البحرين . ولي أمرهم بعد وفاة أبيه . هاجم البصرة والكوفة ، وضيق الخناق على المقتدر ، كما هاجم مكة المكرمة ، واقتلع الحجر الأسود ، وأرسله إلى هجر . مات نحو ٣٣٢ هـ .

من نوادر الآثار ، ونترجمه بكتاب وصل المجالس بجوامع الأخبار ومخالط الآداب تالياً لما سلف من كتبنا ، ولاحقاً لما تقدم من تصنيفنا .

ذكر خلافة القاهر بالله

موجز : وبويع القاهر محمد بن أحمد المعتضد بالله يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاث مئة ، ثم خلع يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة ، وسملت عيناه ؛ وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام ، ويكنى بأبي منصور ، وأمه أم ولد .

ذكر جمل من أخباره ، وسيره، ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه : واستوزر القاهر أبا علي محمد بن علي ابن مقلة (١) في سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة ثم عزله،

(١) محمد بن علي بن الحسين بن مقلة : وزير من الشعراء الأدباء ، يضرب المثل بحسن خطه . ولد في بغداد استوزره المقتدر والقاهر والراضي ونقم عليه الأخير فقطع يده اليمنى ثم لسانه . مات في السجن . (٢٧٢ — ٣٢٨) هـ .

واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان(١) ثم عزله، واستوزر أبا العباس أحمد بن عبيد الله الخصيبي (٢)

أخلاقه : وكانت أخلاقهُ لاتكاد تُحصَّل ، لتقلُّبه وتَلَوُّنه ، وكان شَهْماً شديدَ البطش بأعدائه ، وأباد جماعةً من أهل الدولة ، منهم مؤنس الخادم ، وبليق ، وعلي بن بليق ، فهابه الناس وخشوا صَوْلَتَه ، واتَّخذَ حربةً عظيمةً يحملُها في يده إذا سعى في داره ويَطرحُها بين يديه في حال جلوسه ، ويباشرُ الضربَ بتلك الحربة لمن يريدُ قَتْلَهُ ، فسكن مَنْ كان يستعمل على من قبله من الخلفاء التشغّب والتوثب عليهم ، وكان قليلَ التثبُّتِ في أمره ، مَخُوفَ السَّطوةِ ، فأدَّاه ماوصفنا من فعاله إلى أن احتيلَ عليه في داره فقُبِضَ عليه ، وسُمِلَتْ كِلْتا عينيه . وهو حيٌّ في هذا الوقت في

---

(١) أبوجعفر محمد بن القاسم : من الوزراء الكتاب : وهو ابن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي،والقاسم كان كاتباً شاعراً . وزر للمعتضد والمكتفي وقد سبقت ترجمته .

(٢) أحمد بن عبيد الله بن أحمد : وزير وشاعر ومترسل . استوزره المقتدر ثم القاهر . عزل ونكب . مات نحو سنة ٣٢٨ هـ .

الجانب الغربي في دار ابن طاهر . على مانمي إلينا من خبره . واتصل بنا من أمره . وذلك أن الراضي بالله غيب خبره وقطع ذكره . فلما بويع إبراهيم المتقي بالله أصيب القاهر معتقلاً في بعض المقاصير . فأمر به إلى دار ابن طاهر . فاعتقل بها إلى هذه الغاية على ماوصفنا .

الخراساني الأخباري يصف الخلفاء العباسيين للقاهر بالله :

وذكر محمد بن علي العبدي الخراساني الإخباري ، وكان القاهر به آنساً ، قال : خلا بي القاهر فقال : اصدقني أو هذه — وأشار إلي بالحربة — فرأيت والله الموت عياناً بيني وبينه ، فقلت : أصدقك يا أمير المؤمنين ، فقال لي : انظر ، يقولها ثلاثاً ، فقلت : نعم ياأمير المؤمنين ، قال : عما اسألك عنه ، ولا تغيب عني شيئاً ، ولا تحسن القصة ، ولا تسجع فيها ، ولا تسقط منها شيئاً ، قلت : نعم ياأمير المؤمنين ، قال : أنت علامة بأخبار خلفاء بني العباس في أخلاقهم وشيمهم من أبي العباس السفاح فمن دونه ، فقلت : على أن لي الأمان ياأمير المؤمنين ، قال : ذلك لك .

وصف السفاح : قال : قلت : أمَّا أبو العباس السفاح ، فكان سريعاً إلى سَفْكِ الدماء ، واتَّبَعَه عماله في الشرق والغرب في فعاله ، واستنُّوا بسيرته : مثل محمد ابن الأشعث بالمغرب ، وصالح بن علي بمصر ، وخازم ابن خزيمة ، وحميد بن قحطبة ، وكان مع ذلك بَحْراً سَمْحاً وَصُولاً جَوَاداً بالمال ، وسالك من ذكرنا من عُمَّاله وغيرهم ممن كان في عصره سبيلَه ، وذهبوا مذهبه ، مُؤْتَمِّينَ به . .

وصف المنصور : قال : وأخبرني عن المنصور ، قلت : الصدق ياأميرَ المؤمنين ؟ قال : الصدق ، قلت : كان والله أوَّلَ من أوقعَ الفُرقةَ بين وَلَدِ العبَّاس بن عبد المطلب وبين آل أبي طالب ، وقد كان قبل ذلك أمرُهُم واحداً ، وكان أوَّلَ خليفة قَرَّبَ المنجِّمين وعَمِل بأحكام النجوم ، وكان معه نوبختُ المجوسيُّ المنجِّمُ (١) ، وأسلم على يديه ، وهو أبو هؤلاء النوبختية ، وإبراهيم الفزاري المنجِّم (٢) ، صاحب القصيدة في النجوم ،

---

(١) نوبخت : أول منجم نال حظوة لدى المنصور العباسي وهو من أسرة فارسية الأصل أنجبت عدداً من رجال الدولة والمتكلمين والفلكيين .

(٢) ابراهيم الفزاري : سبقت ترجمته .

وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك . وعلي بن عيسى الإسطرلابي المنجّم (١) ، وهو أوّلُ خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية . منها : كتاب « كليلة ودمنة » ، وكتاب « السند هند » . وتُرجمت له كتبُ أرسطاطاليس ، من المنطقيات وغيرها . وترجم له كتاب « المجسطي » لبطليموس ، وكتاب « الأرتماطيقي » وكتاب « إقليدس » وسائر الكتب القديمة من اليونانية ، والرومية ، والفهلوية ، والفارسية ، والسريانية ، وأُخرِجَت إلى الناس ، فنظرُوا فيها ، وتعلقوا إلى علمها ، وفي أيامه وضع محمد بن إسحاق(٢) كتاب « المغازي والسير ، وأخبار المبتدأ » ولم تكن قبلَ ذلك مجموعةً ولا معروفةً ولا مصنَّفة ، وكان أوَّلَ

---

(١) علي بن عيسى الإسطرلابي الحراني : تلميذ ابن خلف المروروذي ، اشترك في الأرصاد الفلكية ببغداد ودمشق وقياس الدرجات التي أمر بها المأمون في سنجار .

(٢) محمد بن إسحاق : من أقدم مؤرخي العرب . من أهل المدينة . له « السيرة النبوية » . . و « كتاب الخلفاء »، سكن بغداد ومات فيها سنة ١٥١ هـ .

خليفة استعمل مواليَهُ وغلمانَه في أعماله وصرفهم في مهماته . وقدّمَهم على العرب . فامتثل ذلك الخلفاءُ من بعده من ولده . فسقطت وبادت العربُ . وزال بأسُها ، وذهبت مراتبُها ، وأفضت الخلافةُ إليه ، وقد نظرَ في العلم ، وقرأ المذاهبَ ، وارتاض في الآراء ، ووقفَ على النِّحَل ، وكتب الحديث ، فكثرت في أيامه رواياتُ الناس ، واتسعت عليهم علومهم .

وصف المهدي : قال القاهر : قد قلتَ فأحسنتَ ، وعبّرتَ فبيّنت ، فأخبرني عن المهدي كيف كانت أخلاقُه ؟ . .

قلت : كان سَمحاً سخيّاً كريماً جواداً ، فسلك الناسُ في عصره سبيلَهُ ، وذهبوا في أمرهم مذهبَهُ ، واتّسعوا في مساعيهم ، وكان من فعله في ركوبه أن يحمِلَ بِدَرَ الدنانير والدراهم ، فلا يسأله أحَدٌ إلا أعطاه ، وإن سكت ابتدأهُ المفرِّقُ بين يديه ، وقد تقدّم بذلك إليه ، وأمعنَ في قتْلِ الملحدين ، والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه ، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتبِ ماني وابن دَيْصان ،

ومرقيون (١) مما نقله عبدالله بن المقفع ، وغيره . وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية . وما صنّفه في ذلك: ابن أبي العرجاء، وحمّاد عجرد ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس : من تأييد المذاهب المانية ، والديصانية والمرقيونية ، فكثر بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم في الناس ، وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم . وأقاموا البراهين على المعاندين ، وأزالوا شبه الملحدين . فأوضحوا الحق للشاكين ، وشرع في بناء المسجد الحرام . ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم على ماهما عليه إلى هذه الغاية ، وبنى بيت المقدس ، وقد كان هدمته الزلازل .

---

(١) ماني : سبق التعريف به وبمذهبه . وابن ديصان : من الثنوية وهو أقدم من ماني . وقد أثبت أتباعه أصلين : النور والظلمة ، فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً ، والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً .

أما أصحاب مرقيون ، فقد اثبتوا أصلين : النور والظلمة ، وأثبتوا أصلا ثالثاً هو المعدل الجامع وهو سبب المزاج ، فان المتنافرين لا يمتزجان إلا بجامع، وحصل من الامتزاج والاجتماع هذا العالم . الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ – ٢٥٣ .

وصف الهادي : قال : فأخبرني عن الهادي على قِصَرِ أيامه كيف كانت أخلاقُه وشِيَمُه ؟

قلت : كان جَبَّاراً عظيماً ، وأول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المُرْهفة ، والأعمدة المشهورة ، والقسيّ الموتورة ، فسلكت عُمَّالُه طريقتَه ، ويَمَّمُوا منهجَه ، وكَثُرَ السِّلاحُ في عصره .

قال : لقد أجَدْتَ في وصفك ، وبالغتَ فيما ذكرت من قولك ، فأخبرني عن الرشيد كيف كانت طريقتُه ؟

وصف الرشيد : قلت : كان مواظباً على الحج ، متابعاً للغزو ، واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة ، وأظهر ذلك بها وبمِنى وعَرَفات ، ومدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فعم الناسَ إحسانُه ، مع ما قُرِنَ به من عدله ، ثم بنى الثغورَ ، ومَدَّنَ المدنَ ، وحصَّن فيها الحصونَ ، مثل طَرَسُوسَ وأَذَنة ، وعَمَّرَ المصيصة ، ومَرعَشَ ، وأحكم بناءَ الحرب ، وغيرَ ذلك من دور السبيل والمواضع المرابطين ، واتَّبَعَهُ عمالُه ، وسلكوا طريقَتَه ، وقَفَتْهُ رَعيَّتُهُ مقتديةً

بعمله ، مستندةً بإمامته . فقمعَ الباطلَ ، وأظهر الحق . وأنارَ الأعلامَ ، وبرزَ على سائر الأمم ، وكان أحسنَ الناسِ في أيامه فِعْلاً أمُّ جعفرٍ زبيدةُ بنتُ جعفر بن المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة ، واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة ، وطريقها المعروفة إلى هذه الغاية ، وما أحدثتْهُ من الدُّور للتسبيل بالثَّغْرِ الشامي وطَرَسُوسَ ، وما أوقفت على ذلك من الوقوف . وما ظهرَ في أيامه من فعل البرامكة وجودِهم وإفضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم ، وكان الرشيدُ أوَّلَ خليفة لعب بالصُّولجان (١) في الميدان ورمَى بالنُّشَّاب في البُرجاس(٢) . ولعب بالأُكرة والطبطاب (٣) وقرَّبَ الحُذَّاق في ذلك فعمَّ الناس ذلك الفعل ، وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس . وبالنرد ،وقدَّم اللُّعَّابَ ، وأجرى عليهم الرزقَ ، فسمَّى الناسُ

---

(١) الصولجان : عصا معقوفة الرأس .

(٢) البرجاس : الهدف ينصب على رأس رمح أو نحوه .

(٣) الأكرة : الكرة ، والطبطاب، والطبطابة : خشبة عريضة يلعب بها بالكرة .

أيامَه — لنضارتها . وكثْرة خيرها وخصبها — أيام العروس . وكثير مما يجاوز النعتَ ويتفاوت فيه الوصف .

قال القاهر : فأراك قد قصَّرْتَ في تفصيل أفعالِ أمَّ جعفر ، فلِمَ ذلك ؟

قلت : ياأمير المؤمنين ميْلاً إلى الاقتصار ، وطلباً للإيجاز .

وصف أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور : قال : فتناول الحربةَ وهزَّها فرأيتُ الموتَ الأحمرَ في طَرَفها ، ثم برقَ عيْنيه مع ذلك فاستسْلمتُ ، وقلت : هذا مَلَكُ الموت ، ولم أشكَّ أنه يقبضُ روحي ؟ فأهوى بها نحوي ، فنَزَعْتُ منها ، فاسترجَعَ وقد أخطأتْني ، فقال : ويلَكَ ! ! أبغضتُ مافيه عيناك ، ومَلِلْتَ الحياة ؟ قلت : ماهو ياأميرَ المؤمنين ؟ قال : أخبار أم جعفر زدني منها ، قلت : نعم ياأمير المؤمنين ! كان من فِعلها وحُسنِ سيرتها في الجد والهزل مابرَّزتْ فيه على غيرها ، فأما الجِدُّ والآثارُ الجميلة التي لم يكن في الإسلام مثلُها

مثل حَفْرِها العينَ المعروفةَ بعين المُشَاش(١) بالحجاز . فإنها حفرتها ومهدت الطريق لمائها في كل خَفْض ورَفْع وسهل وجبل ووَعْر . حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة ، فكان جملةُ ماأنفقت عليها — مماذُكرَ وأُحصِيَ — ألفَ ألفٍ وسبعمائة ألف دينار ؛ وما قدَّمْتُ ذِكْرَه من المصانع (٢) والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور ، وإنفاقها الألوف على ذلك . دون ما كان في وقتها من البذل . وما عمَّ أهلَ الفاقةِ من المعروف والخصْبِ ، وأما الوجهُ الثاني — مما تتباشى به الملوك في أعمالهم ، وينعمون به في أيامهم ، ويصونون به دُوَلَهم . ويُدَوَّنُ في أفعالهم وسِيَرهم — فهو أنها أَوَّلُ من اتَّخذَ الآلةَ من الذهب والفضَّة المكلَّلة بالجوهر . وصُنِعَ لها الرفيعُ من الوَشْي ، حتى بلغ الثوبُ من الوشي الذي اتُّخِذَ لها خمسين ألف دينار ؛ وهيَ أَوَّلُ من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري ، يختلفون على الدواب

(١) قال ياقوت : المشاش : وهو الذي يجري بعرفات ويتصل إلى مكة .

(٢) المصانع : ج مصنع : مايجمع فيه ماء المطر كالحوض .

في جهاتها ، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها . وأوّلُ من اتخذ القبابَ من الفضّةِ والآبنوس والصَنْدل وكلاليبُها من الذهب والفضة مُلَبَّسة بالوشي والسمور(١) والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق ، واتّخذت الخفافَ المرصَّعةَ بالجوهر وشمعِ العنبر ، وتشبّه الناس في سائر أفعالهم بأم جعفر .

ولما أفضى الأمر إلى ولدها ياأميرَ المؤمنين قدّم الخدمَ ، وآثرهم ، ورفع منازلَهم ، ككوثر وغيره من خدَمه ، فلما رأت أم جعفر شدّةَ شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواريَ المقدودات الحسانِ الوجوه ، وعمّمت رؤوسَهنّ ، وجعلت لهن الطُّرَر (٢) والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق (٣) والمناطق ، فماست قدودُهنّ ، وبرزت أردافُهنّ ، وبعثت بهنّ إليه ، فاختلفن في يديه ، فاستحسنهن واجتذبن قلْبَه إليهن ، وأبرزهن

(١) السمور : جلد حيوان يشبه ابن عرس لونه أحمر مائل إلى السواد . يدعى السمور أيضاً .

(٢) الطرر : ج طرة : تزيين شعر الناصية .

(٣) القراطق : ج قرطق : ضرب من اللباس .

للناس من الخاصة والعامة، واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواريَ المطمومات (١) . وألبسوهن الأقبية والمناطق . وسموهن الغُلاميات .

فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الفرح والطربُ والسرورُ . ونادى بأعلى صوته : ياغلام ، قدَح على وصف الغلاميات ، فبادر إليه جوارٍ كثيرةٌ قدُّهن واحد ، تَوهمتُهنّ غلماناً بالقراطق والأقبية والطرر والأقفية ومناطق الذهب والفضة . فأخذ الكأسَ بيده . فأقبلتُ أتأملُ صفاءَ جوهرِ الكأسِ ونُورِّيةَ الشراب . وشُعاعَهُ . وحُسنَ أولئك الجواري ، والحربةُ بين يديه . وأسرعَ في شربه . فقال : هيه .

وصف المأمون : فقلت : نعم ياأمير المؤمنين ، ثم أفضى الأمرُ إلى المأمون ، فكان في بَدءِ أمره — لما غلبَ عليه الفضلُ بنُ سهل وغيرهُ — يستعملُ النظرَ في أحكام النجوم وقضاياها ، وينقاد إلى موجباتها ، ويذهب مذاهبَ من سلف من ملوك ساسان كأردشير

---

(١) طم الشعر : جزه أو عقصه .

ابن بابك وغيره . واجتهد في قراءة الكتب القديمة ؛ وأمعن في دَرْسها ، وواظب على قراءتها ؛ فافتنَّ في فهمها . وبلغ درايتها ؛ فلما كان من الفضل بن سهل ذي الرياستين ما اشتهرَ ، وقدِمَ العراقَ انصرف عن ذلك كلِّه ، وأظهرَ القول بالتوحيد والوعد والوعيد ، وجالس المتكلمين ، وقرَّبَ إليه كثيراً من الجدليين المبرِّزين والمناظرين كأبي الهُذَيل ، وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظّام ، وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم . وألزم مجلسَه الفقهاءَ ، وأهلَ المعرفة من الأدباء ، وأقدمهم من الأمصار ، وأجرى عليهم الأرزاقَ . فرغب الناسُ في صنعة النظر ، وتعلَّموا البحثَ والجدلَ . ووضع كلُّ فريق منهم كُتباً ينصرُ فيها مذهبَهُ ويؤيد بها قولَه . وكان أكثرَ الناسِ عفواً ، وأشدَّهم احتمالاً ، وأحسنَهم مقدرَة ، وأجودَهم بالمال الرغيب ، وأبذلَهم للعطايا . وأبعدَهُم من التسافه ، واتَّبعه وزراؤه وأصحابُه في فعله ، وسلكوا سبيلَه ، وذهبوا مَذْهَبَهُ .

وصف المعتصم : ثم المعتصم . فإنه يا أمير المؤمنين سلك في النِّحْلة رأيَ أخيه المأمون ، وغلب عليه حبُّ

الفروسية ، والتَّشَبُّهَ بالملوكِ الأعاجم في الآلة . ولُبْسِ القَلانس والشاشيّات (١) فلبسها الناس اقتداءً بفعله . وائتماماً به ، فسُمِّيَت المعتصميات . وعمَّ الناسَ إفضالُهُ وأمِنَتْ به السبلُ في أيامه . وشمِلَ الناسَ إحسانُهُ .

وصف الواثق : ثم هارونُ بنُ محمدٍ الواثقُ . فإنه اتبع ديانةَ أبيه ، وعمِّه ، وعاقب المخالفَ . وامتحن الناس ، وكثر معروفُهُ . وأمر القضاةَ في سائر الأمصار أن لايقبلوا شهادةَ من خالفه . وكان كثيرَ الأكل ، واسعَ العطاءِ ، سهلَ الانقياد ، متحبباً إلى رعيته .

وصف المتوكل : ثم المتوكل ياأمير المؤمنين . فإنه خالف ماكان عليه المأمونُ والمعتصمُ والواثقُ من الاعتقاد ، ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه ، وأمرَ بالتقليد ، وأظهرَ الروايةَ للحديث ، فحسُنَتْ أيامُهُ ، وانتظمت دولَتُهُ . ودام مُلكُهُ ، وغير ذلك ياأمير المؤمنين مما اشتهر من أخلاقه .

قال القاهر : قد سمعتُ كلامَكَ وكأني مشاهدٌ للقوم

(١) الشاشيات : ملاءات من الحرير يعتم بها .

على ماوصفت : معاينٌ لهم فيما ذكرت : ولقد سرّني ماسمعتُ منك ، ولقد فتحتَ أبوابَ السياسة ، وأخبرتَ عن طرق الرياسة ، ثم أمرَ بجائزة عَجّل لي عطاءَها في وقتها ، ثم قال لي : إذا شئتَ فقُمْ ، فقمتُ ، وقام على أثري بحربته ، فخُيِّلَ والله لي أنه يرميني بها من ورائي ، ثم عَطَفَ نحوَ دارِ الحدم ، فما مضت إلا أيام يسيرة حتى كان من أمره ماظهر .

قال المسعودي : وهذا الرجل الذي أخبرْتُ عنه بهذا الحديث له أخبار حسانٌ ،وهو حي يرزق إلى هذه الغاية ، وهي سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة ، مدّاحاً للملوك ، معاشراً لأهل الرياسات ، حسنَ الفهم ، جيدَ الرأي .

وقد أتينا على ماكان في أيام القاهر — مع قِصَر مُدّته — من الكوائن في الكتاب الأوسط ، فمنع ذلك من ذكره في هذا الكتاب .

ذكر خلافة الراضي بالله

موجز : بُويع الراضي بالله محمد بن جعفر المقتدر ، ويكنى أبا العباس ، يوم الخميس لست خلون

من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة. فأقام في الخلافة إلى أن مضى من ربيع الأول عشرةُ أيام. سنة تسعٍ وعشرين وثلاث مئة، ومات حتف أنفه بمدينة السلام، وكانت خلافته ستّ سنين وأحدَ عَشَرَ شهراً وثلاثةَ ايام، وأمه أم ولد يقال لها ظَلُوم.

ذكر جمل من أخباره وسيره، ولمع مما كان في ايامه

وزراؤه : واستوزر الراضي أبا علي محمد بن علي بن مقلة، ثم استوزر أبا علي عبد الرحمن بن عيسى ابن داود بن الجراح، ثم أبا جعفر محمدَ بن القاسم الكرخي، ثم أبا القاسم سليمان بن الحسن بن مَخْلَد، ثم أبا الفتح الفضلَ بنَ جعفر بن الفرات، ثم أبا عبد الرحمن بن محمد البريدي.

من شعر الراضي : وكان الراضي أديباً شاعراً ظريفاً، وله أشعار حِسان في معانٍ مختلفة، إنْ لم يكن ضاهى بها ابنَ المعتز فما نقصَ عنه؛ فمن ذلك قولهُ في وصف حاله وحال معشوقه إذا التقيا :

يرصفُ وجهي إذا تأمّله
طَرْفي ، ويحمرُّ وجهُهُ خجلا
حتى كأن الذي بوجنته
من دمِ وجهي إليه قد نُقِلا

وقد كان أبوبكر الصولي (١) يروي كثيراً من أشعار الراضي ، ويذكر حسن أخلاقه وجميل أخباره ، وارتياضه بالعلم وفنون الادب ، وإشرافه على علوم المتقدمين ، وخوضه في بحار الجدليين من أهل الدراية والمتفلسفين .

من محاسن الصولي أبي بكر : وذكر أن الراضي رأى في بعض متنزهاته بالثريا بستاناً مونقاً ، وزهراً رائقاً ، فقال لمن حضر من ندمائه : هل رأيتم أحسنَ من هذا ؟ فكلٌّ قال أشياءَ ذهبَ فيها إلى مدحِهِ ووصف محاسنه ، وأنها لايفي بها شيء من زَهرَات الدنيا ، فقال : لَلعِبُ

(١) هو محمد بن يحيى ويعرف بالشطرنجي . نادم الراضي والمكتفي والمقتدر . له تصانيف منها : « الأوراق » و « أخبار القرامطة » توفي سنة ٣٣٥ ه .

الصولي بالشطرنج . والله،أحسنُ من هذا الزهر.ومن كل ماتصفون .

وذُكِرَ أنَّ الصُّولي في بدء دخوله إلى المكتفي . وقد كان ذُكِرَ له بجودة لعبهِ الشطرنجَ ، وكان الماوردي اللاعب مقدماً عنده ؛ متمكناً من قلبه،معجباً بلعبه ؛ فلعبا جميعاً بحضرة المكتفي ، فحمل المكتفي حُسْنُ رأيه في الماوردي وتَقَدُّمُ الحُرمــة والأُلفة على نُصرتــه وتشجيعه حتى أدهش ذلك الصولي في أول وهلة ، فلما اتّصلَ اللعبُ بينهما، وجّمعَ له الصولي غايتَه،وقصدَ قَصْدَهُ ، غلبه غلباً لايكاد يَرُدُّ عليه شيئاً ، وتَبَيَّن حُسْنُ لعبه للمكتفي ، فعدلَ عن هواه ونَصره للماوردي، وقال له : صارَ ماءُ وَردكَ بَوْلاً .

قال المسعودي : وقد تناهى بنا الكلام،وتغلغل بنا التصنيف إلى جُمَلٍ من أخبار الشطرنج ، وما قيل فيها ؛ مع ماقدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لأخبار الهند ومبادىء اللعب بالشطرنج والنرد ، واتصال ذلك بالأجسام العُلْوِيّة والأجرام السماوية ، فلنذكر جُمَلاً

مما ذُكِرَ في ذلك ، مما لم يتقدم له ذكر فيما سلف من هذا الكتاب .

الخليل بنُ أحمد : وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في تفضيل صنعة الكلام ، وهي الرسالة المعروفة بالهاشمية ، أنَّ الخليل بن أحمد (١) من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتاباً في الإيقاع وتراكيب الأصوات ، وهو لم يعالج وَتَراً قط ، ولا مسَّ بيده قَضيباً قط ، ولا كثُرتْ مشاهدتهُ للمغنّين ، وكتبَ كتاباً في الكلام، ولو جَهِد كلُّ بليغٍ في الأرض أنْ يتعمَّدَ ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ، ولو أنَّ ممروراً استغرق قوى مِرَّتِه (٢) في الهذيان لما تهيأ له مثلُ ذلك منه،ولا يتأتّى مثلُ ذلك لأحد إلا بخذلان الذي لا يبقي منه شيء . قال الجاحظ : ولولا أنْ أستخِفَّ الكتابَ، وأهجرَ الرسالة وأُخرجها من حَدِّ الجدِّ إلى الهزل حكيتُ صدْرَ كتابه في التوحيد،وبعضَ ما وصَفَه في العدل ،

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي : من أئمة اللغة والأدب . وواضع علم العروض . أستاذ سيبويه. ولد ومات بالبصرة (١٠٠ – ١٧٠) هـ .
(٢) المرة : خلط من أخلاط البدن .

قال : ولم يرضَ بذلك حتى عَمدَ إلى الشطرنج فزادَه في الدولاب حملاً ، فلعبت به أناسٌ من حاشية الشطرنجيين ، ثم رموا به .

أنواع آلات الشطرنج : وقد ذكر الناسُ مِمن سلف وخلف أنَّ جميعَ آلات الشطرنج على اختلاف هيئاتها ستُّ صورٍ لم يظهر في اللعب غيرها : فأوَّلُها الآلةُ المربَّعةُ المشهورة ، وهي ثمانيةُ أبيات في مثلها ، ونُسبت إلى قدماء الهند ، ثم الآلة المستطيلة ، وأبياتها أربعة في ستة عشر ، والأمثلة تُنصَبُ فيها في أوّل وهلة أربعة صفوف من كلا الوجهين ، حتى تكونَ الدوابُّ منها في صفَّين ، والبيادقُ أيضاً أمامها صفين ، ومسيرها كمسير أمثلة الصورة الأولى . والآلة المربعة — هي عشرة في مثلها — والزيادة في أمثلتها قطعتان تسميان الدبَّابتين ؛ ومسيرُهما كمسير الشاه إلا أنَّهما يأخذان ويؤخذان ، ثم الآلة المدورة المنسوبة إلى الروم ؛ ثم الآلة المدورة النجوميّة التي تُسمَّى الفلكيّة ، وأبياتُها اثنا عشَر على عدد بروج الفلك مقسومة نصفين ، وينُقل فيها سبعةُ

أمثلة مختلفة الألوان على عدد الخمسة الأنجم والنيرين(١) وعلى ألوانهما .

وقد بيّنّا فيما سلف من أخبار الهند كيفية اتصالها بالأجسام السماوية ، وما قيل في عشقها للأشخاص العلوية ، وإن تحرك الفلك لعشقه لما فوقه ، وقولهم في النفس ونزولها عن عالم العقل إلى عالم الحس حتى نسيت بعدَ الذكر وجهلت بعدَ العلم ، وغير ذلك من تخاليطهم مما يتّصلُ علمهُ عندهم بمنصوبات الشطرنج .

ثم آلةٌ أخرى تسمى الجوارحية ، استُحدثت في زماننا هذا ، وهي سبعة أبيات في ثمانية ، وأمثلتها اثنا عشر ،في كل جهة منها ستة ، كل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من جوارح الإنسان التي بها يميز وينطق ويسمع ويبصر ويبطش ويسعى ، وهي سائر الحواس ، والحاس المشترك ، وهو الذي من القلب .

وقد ذكرت الهندُ وغيرُها من اليونانيين والفرس

(١) الخمسة الأنجم ، هي : عطارد ، الزهرة ، المريخ ، المشتري ، زحل . والنيران : الشمس والقمر .

والروم وغيرهم ممن لعب بها كيفيةَ صُوَرِهَا ونَصْبِها ومباديها، ووجوهَ عللها، والغرائبَ فيها، وتصنيفَ القوائم والمفرَدات ؛ وأنواعَ طرائفِ المنصوبات .

وقد استعمل لُعَّاب الشطرنج عليها فنون الخزل والنوادر المدهشة ؛ فزعم كثيرٌ منهم أنَّ ذلك مما يَبعثُ على لَعِبها وانصباب الموادّ وصحيح الأفكار إليها . وأنَّ ذلك بمنزلة الارتجاز الذي يستعمله أهلُ القتال عند اللقاء، والحادي عند الإعياء، والماتحُ للغَرْب(١) عند الاستقاء ، وأن ذلك عُدَّةٌ للاعب ، كما أنَّ الشعرَ والارتجازَ من عُدَّة المحارب .

وقد قيل فيما وصفنا أشعار كثيرة مما قاله بعض اللُعَّاب ، فمن ذلك :

نوادرُ الشطرنج في وقتها
أَحَرُّ من مُلْتَهِبِ الجمرِ

---

(١) الغرب : الدلو العظيمة . والماتح : من يستقي الماء مغترفاً .

كم من ضعيف اللّعْبِ كانت لـــه
عوناً على مُستحسَنِ القَمْــرِ (١)

وممَّا قيل فيها فأحسن قائلُها وبالَغَ في وصفِ اللّعب بهـا :

أَرضٌ مربَّعةٌ حمــراءُ مـــن أَدَمٍ
مابين إلفَين موصوفَين بالكرمِ
تذاكرا الحربَ فاحتالا لهـا شَبَهـاً
من غيرِ أنْ يَسعيا فيها بسفك دمِ
هذا يُغيرُ على هذا ، وذاك عــلى
هذا يُغــير ، وعينُ الحربِ لم تنمِ
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعرفةٍ
في عسكرين بلا طـبلٍ ولا علَمِ

وممّا قيل فيها فبزلغ في وصفها ، واستوعب النظر لأكثر معانيها ، ماقاله أبوالحسن بن أبي البغل الكاتب ،

---

(١) قمره : غلبه . والقمر : الغلبة والفوز .

وكان من جِلّةِ الكُتّاب، وكبار العمّال، وممن اشتُهِر بمعرفتها واللّعب بها، وهو :

فتى نصبَ الشطرنجَ كيما يرى بهـا
عواقبَ لاتسمو لها عينُ جـاهل

وأبصرَ أعقابَ الأحاديثِ في غـدٍ
بعيني مُجِدٍّ في مَخيلةِ هازل

فأجدى على السلطان في ذاك أنـه
أَراهُ بها كيفَ اتّقاءُ الغوائـل

وتصريفُ مافيهـا إذا مااعتبرتَـه
شبيهٌ بتصريف القنـا والقنابـل

وقد قدّمنا في باب أخبار ملوك الهند فيما سلف من هذا الكتاب قولَ من قال في النرد والفصّين : إنها جُعِلت مثلاً للمكاسب ، وأنّها لاتُنال بالكَيْس ولا بالحِيَل ،وما ذُكِرَ عن أردشير بن بابَك في ذلك أنه أوّلُ من لَعِبَ بها ، وأرى تقلُّبَ الدنيا بأهلها ، وجعل بيوتَها اثني عشرَ على ترتيب عدد الشهور ؛ وإن كلابَها

ثلاثون كاباً بعدد أيام الشهور ، وإن الفصَّين مثالُ للقدر وتلاعُبِه بأهل هذا العالم ، وغير ذلك مما وصفنا من أحوالها ، وما قدمنا من ذكرها في هذا الكتاب ،وغيره مما سلف من كتبنا .

وذكر بعض أهل النظر من الإسلاميين أن واضع الشطرنج كان عَدْلياً (١) مستطيعاً فيما يفعل ،وأن واضع النرد كان مُجَبِّراً (٢) ، فتبيَّنَ باللعب بها أنه لاصنعَ له فيها ، بل تَصرُّفُهُ فيها على مايُوجبه القدَرُ عليه بها .

العروضي يحكي عن الراضي وسعة اطلاعه :

وذكر العروضي — وهو ممن كان أدّب الراضي وغيره من الخلفاء وأبنائهم — قال : حدَّثتُ الراضي ذاتَ يوم خبراً لقتيبة بن مسلم الباهلي (٣) في الكِبْرِ ،وغيره من الخصال التي توجد في أهْلِ الرِّياسات مما يُحمَدُ فيهم

---

(١) من العدل وهو ماقال به المعتزلة . وقد سبقت الإشارة إلى معناه .

(٢) من الجبرية التي تقول : إن الانسان مجبر على فعل الشيء أو تركه.

(٣) قتيبة بن مسلم : أمير فاتح . غزا بلاد ماوراء النهر فتوغل فيها،وغزا أطراف الصين،وكان عظيم المكانة ، مرهوب الجانب ، دمث الأخلاق ، حليماً ، داهية . قتل غيلة بفرغانة (٤٩ — ٩٦ هـ) .

وما يُكرَهُ منهم من الأخلاق ، فكتب ذلك في حال صباه وعنفوانِ حداثته ، ولقد رأيتهُ مواظباً على درسه إلى أن استكملَ إتقانَهُ في مجالسه ، فداخله عند ذلك طرب وفرح وأريحية لم أعهدها منه ، ثم قال لي وقد أقبل عليّ : لعلّ الزمانَ أن يبلغَ بي أن أتأدبَ بهذه الخصال ، وأكونَ في مرتبة من يَرتاضُ بهذه الآداب ، وهو أنه قيل لقتيبة بن مسلم وهو والٍ على خرسان للحجّاج ومحاربٌ للترك : لو وجّهتَ فلاناً — لرجلٍ من أصحابه — إلى حرب بعض الملوك على الجيش . فقال قُتَيبةُ : إنه رَجُلٌ عظيمُ الكِبْر ، ومن عَظُم كِبْرُهُ اشتدّ عُجْبُهُ ، ومن أُعجِبَ برأيه لم يُشاوِرْ كفيّاً ، ولم يؤامر نَصيحاً ، ومَنْ تَبجّحَ بالإِعجاب وفخَرَ بالاستبداد ، كان من الصُنْع (١) بعيداً ، ومن الخذلان قريباً ، والخطأ مع الجماعة خَيرٌ من الصواب مع الفُرقَة ، ومن تكَبّرَ على عَدوّه حقَره ، وإذا

(١) الصنع : الإحسان .

حقره تهاون بأمره ، ومن تهاون بأمر عدوه ووثق بأمر قوته ، وسكن إلى جميع عدته قل احتراسه ، ومن قل احتراسه كثر عثاره ، وما رأيت عظيماً تكبّر على صاحب حرب قط إلا كان منكوباً ومهزوماً ومخذولاً ، لا والله حتى يكون أسمع من فرس ، وأبصر من عقاب ، وأهدى من قطاة ، وأحذر من عقعق ، وأشد إقداماً من أسد ، وأوثب من فهد ، وأحقد من جمل ، وأروغ من ثعلب ، وأسخى من ديك ، وأشح من ظبي ، وأحرس من كركي ، وأحفظ من كلب ، وأصبر من ضب ، وأجمع من النمل ، وإن النفس تسمح بالعناية على قدر الحاجة ، وتتحفظ على قدر الخوف ، وتطمع على قدر السبب ؛ وقد قيل على وجه الدهر : ليس لمعجب رأي ، ولا لمتكبر صديق ، ومن أحب أن يُحَب تحبب .

بين معاوية وقيس بن سعد : قال العروضي : وتذاكرنا يوماً بحضرة الراضي بالله في حال صباه — وقد حضر جماعة من ذوي العلم والمعرفة بأخبار الناس ممن غبر — فانتهى بنا الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان حين

ورد عليه كتاب من ملك الروم أن يُرسِلَ إليه سراويلَ أجسمِ رجلٍ عنده ، فقال معاوية : لاأعلمُه إلا قيسُ ابنُ سعد (١) ، فقال لقيس : إذا انصرفتَ فابعث إليّ بسراويلك فخلعها ورمى بها ، فقال معاوية : هلاّ بعثتَ بها من منزلك ، فقال قيس :

أردتُ لكيما يعلمَ الناسُ أنّها
سراويلُ قيسٍ ، والوفودُ شهودُ
وأنْ لايقولوا : غابَ قيسٌ ، وهذه
سراويلُ عادٍ قد نمتْهُ ثمودُ

فقال قائل ممن حضر : قد كان جبلةُ بنُ الأيهم (٢) أحدُ ملوك بني غسان طولهُ اثنا عشر شبراً ، فإذا ركب

---

(١) قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي : وال صحابي . من دهاة العرب ، وأحد الأجواد المشهورين ، وكان يحمل راية الأنصار مع النبي (ص) وشهد صفين مع علي . وكان موصوفاً بطوله وجماله . توفي نحو ٦٠ هـ .

(٢) هو اخر ملوك الغساسنة في الشام ، عاش زمناً في الجاهلية وقاتل المسلمين في دومة الجندل واليرموك . أسلم،ثم ارتد . مات بالقسطنطينية سنة ٢٠ هـ .

مسحت قدماه الأرض ، فقال له الراضي بالله : قد كان قيسُ بنُ سعدٍ هذا المذكور إذا ركب تخط قدماه الأرض ، وإذا مشى بين الناس يتوهمون أنّه راكب ، وقد كان جدّي عليُّ بنُ عبدالله بن العباس طويلاً جميلاً يتعجّبُ الناسُ من طوله ، وكان يقول: كنتُ إلى مَنكِبِ عبد الله ابن عباس ، وكان عبدُ الله إلى مَنْكِبِ جدّي العباس ، وكان العباس بنُ عبد المطلب إذا طاف بالبيت يُرى كأنه فُسطاطٌ أبيضُ ، قال : فتعجّبَ والله من حضر من إيراده هذا الخبر ، ومن كلامه مع صغر سنه .

الراضي يَعِدُ العروضي بِمِنْحة إذا أضحكه :

وأخبرنا العروضي قال: سَمِرتُ عند الراضي في ليلة شاتية صُهابية (١) ، فرأيتهُ قَلِقاً مُتململاً ؛ فقلت له : ياأميرَ المؤمنين ، أرى منك خِصالاً لم أعْهدها ، وضيقَ صدرٍ لم أعرفه ، فقال له : دَعْ عنك هذا ، وحدّثني فإن أنتَ أزلت بحديثك ماأجدهُ من الهم فلكَ ماعليَّ وما تحتي ، على أن أشرطَ عليك إزالةَ الهمّ بالضحك ،

(١) صهابية : شديدة البرد .

قالت : ياأميرَ المؤمنين . رَحلَ رَجلٌ من بني هاشم إلى ابن عمه بالمدينة ؛ فأقام عنده حَوْلاً لم يَدخُلْ مُستراحاً ؛ فلما كان بعد الحول أراد الرجوع إلى الكوفة ؛ فحلف عليه ابن عمه أن يُقيمَ عنده أياماً أُخَرَ ؛ فأقامَ . وكان للرجل قَينتان . فقال لهما : أمَا رأيتما ابنَ عمّي وظَرْفَهُ ؟ أقام عندنا حولاً لم يَدخُلِ الخلاءَ ؛ فقالتا له : فعلينا أن نَصْنَعَ له شيئاً لايجدُ معه بُداً من الخلاء . قال : شأنكما وذلك ؛ فعمدَتا إلى خَشَبِ العُشَرِ (١) ؛ فدقتاه وهو مُسْهِل ، وطرحتَاه في شرابه ؛ فلما حضرَ وقتُ شرابهما قدّمتاه إليه . وسقتَا مولاهما من غيره ؛ فلما أخذ الشرابُ مأخذَهُ تَناوَمَ المولى ؛ وتَمغّصَ الفتى من جوفه ، فقال للتي تليه : ياسيدتي ، أينَ الخلاءُ ؟ فقالت لها صاحبتُها : مايقولُ لك ؟ قالت : يسألك أن تُغنّيه :

خلا من آل فاطمةَ الديارُ
فمنزلُ أهلها منها قِفارُ

---

(١) جنس من الشجر ينبت في آسيا الجنوبية وبلاد العرب . الواحدة عشرة بضم العين وفتح الشين .

فغنَّته ، فقال الفتى : أظنُّهما كوفيتين وما فهمتا عني ، ثم التفت إلى الأخرى ، فقال لها : ياسيدتي ، أين الحُشّ ؟ فقالت لها صاحبتها : مايقول لك ؟ قالت : يسألك أن تُغنّيه :

أوْحَشَ الدقراتُ فـــالديرُ منهـــا
فغنـــــــاها بالمنزل المعمـــــور

فغنته ، فقال الفتى : أظنهما عراقيتين وما فهمتا عني ، ثم التفت إلى الأخرى فقال لها : أعزّكِ الله أين الموضّأ ؟ فقالت لها صاحبتها : مايقول لك ؟ قالت : يسالك أن تغنيه :

توضّـــأ للصـــلاة وصـــلِّ خمساً
وآذنْ بالصـــــــلاة عـــلى النبي

فغنته ، فقال : أظنهما حجازيتين وما فهمتا عني ، ثم التفت إلى الأخرى فقال لها : ياسيدتي أين الكَنيف؟ قالت لها صاحبتها : مايقول لك ؟ قالت ، يسألك أن تغنيه :

تكنّفني الواشـــون من كلِّ جانب
ولو كان واشٍ واحدٌ لكفانيا

فغنته ، فقال : أظنهما يمانيتين وما فهمتا عني . ثم التفت إلى الأخرى ، فقال لها : ياهذه أين المستراح ؟ فقالت لها صاحبتها : ماقال لك ؟ قالت : يسألك أن تغنيه :

ترك الفُكاهَة والمُزَاحا
وقَلا الصَّبابَةَ واستراحا

فغنته ؛ والمولى يسمع ذلك وهو متناوم ؛ فلما اشتد به الأمر أنشأ يقول :

تكنَّفَني السُّلاحُ وأضجَرُوني
على مابي بتكرير الأغاني
فلما ضاق عن ذاك اصطباري
ذرقت به على وجه الزواني

ثم إنه حلَّ سراويلَه وسلَحَ عليهما ، فتركهما آية للناظرين ، وانتبه المولى في إثر ذلك ، فلما رأى مانزل بجواريه قال : ياأخي ، ماحملك على هذا الفعل ؟ قال : يابنَ الفاعلة الكَ بجَوارٍ يرينَ المخرجَ صراطاً مستقيماً لايدللنني عليه ، فلم أجد جزاءً غيرَ هذا ! ثم رحلَ عنه ، قال : فذهب بالراضي الضّحاكُ كلَّ مَذْهَب ، وسلَّم إليَّ كلَّ ماكان عليه وتحته من لباس وفرشٍ . فكان مبلغُ ثمنِ ذلك نحواً من ألفِ دينار .

خلق الراضي وعاداته : وكان الراضي كثيرَ الاستعمال للطّيب . حَسَنَ الهيئة . سخيّاً . جَواداً . حسنَ المذاكرة بأخبارِ الناس وأيامهم . مقرّباً لأهل العلم والأدب والمعرفة ، كثيرَ الدنو منهم . فائضاً بجوده عليهم . ولم يكن ينصرفُ عنه أحدٌ من نُدمائه في كل يوم إلا بصلةٍ أوْ طيب . وكانوا عدّةَ نُدماء : منهم محمد ابن يحيى الصولي ، وابن حمدون النديم . وغيرهما . فعوتب على كثرة أفضاله على من يحضُره من الجلساء ، فقال : أنا أستحسنُ فعلَ أميرِ المؤمنين أبي العباس السفاح ؛ لأنه كانت فيه فضائلُ لاتكاد تجتمع في أحدٍ ، لايحضره نديم ولا مغنٍّ مثْلُه ولا قينة فينصرف إلا بصلة أو كُسوةٍ قلّت أو كثُرتْ ، وكان لايُؤخّرُ إحسانَ مُحسنٍ لغَدٍ ، ويقول : العجبُ من إنسان يُفرحُ إنساناً فيتعجّلُ السرورَ ويؤخّرُ ثوابَ مَنْ سرّهُ تسويفاً وعِدَةً ، فكان أبوالعباس في كل ليلة أو يوم يقعُدُ لشُغله لاينصرفُ أحَدٌ ممن حضره إلا مسروراً ، ونحن إنْ لم تتأتّ لنا الأمورُ كتأتّيها لمن سلفَ فإنا نواسي جلساءنا ، بل إخواننا ، ببعض ماحضَرنا . وكان سَخيّاً

على سائر الأشياء لايستكثر لأحد من ندمائه كثرة مايصل إليه على طول الأيام . حتى كان بعضهم ربما يتأخر عن الحضور لما يترادف عليه من فضله . وكان الغالب عليه من الخدم راغب الخادم وزيره . ومن الغلمان ذكي وغيره .

قال المسعودي : وقد أتينا على ماكان في أيام الراضي من الكوائن والحوادث مجملاً ومفصلاً في كتابنا « أخبار الزمان . ومن أباده الحدثان . من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة » وما كان من أمره في حال خروجه مع بجكم إلى بلاد الموصل وديار ربيعة . وما كان بين بجكم وأبي محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان المسمى بعد ذلك بناصر الدولة . وقصدنا فيما ذكرنا في هذا الكتاب إلى الاختصار . دون الشرح والإكثار . إذ كان في الإكثار من الأخبار ثقل على القلوب . وملال للسامع ، وقليل الأخبار . يغني عن كثير الاقتدار .

ذكر خلافة المتقي لله

موجز : وبويع المتقي لله . وهو أبو إسحاق إبراهيم

ابن المقتدر ، لعشر خلون من ربيع الاول سنة تسع وعشرين وثلاث مئة ، وخُلِعَ وسملت عيناه يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة ، وكانت خلافته ثلاثَ سنين وأحَدَ عَشَرَ شهراً وثلاثةً وعشرين يوماً ، وأُمُّه أم ولد .

ذكر جمل من أخباره ، وسيره، ولمع مما كان في أيامه

وزراؤه : ولما أفضت الخلافة إلى المتقي لله أقرَّ على الوزارة سليمانَ بنَ الحسن بن مَخْلَد ، ثم استوزر أبا الحسن أحمد بن محمد بن ميمون ، وكان كاتبَهُ قبل الخلافة ، ثم استوزر أبا إسحاق محمد بن أحمد القراريطي، ثم استوزر أبا العباس أحمدَ بنَ عبد الله الأصبهاني ، ثم استوزر أبا الحسن علي بنَ محمد بن مقلة ، وغلب على الأمر أبو الوفاء تُوْزون التركي .

انتقاض الأمر عليه : واشتد أمرُ البريديين بالبصرة (١) ، ومنعوا السفنَ أن تصعَدَ ، وعَظُم

---

(١) البريديون : ثلاثة إخوة من عمال الدولة العباسية المشهورين . كانوا في أول أمرهم كتاباً أكثر مما كانوا قواداً ، وباستيلائهم على بغداد عام ٣٣٠ بدأ عهد الفساد الحقيقي .

جيشُهم . وكثرت رجالُهم . وصارَ لهم جيشان : جيشٌ في الماء في الشّذَوات والطيّارات والسّميريّات والزبازب ، وهذه أنواعٌ من المراكب يقاتَلُ فيها صغار وكبار ، وجيش في البر عظيم ؛ واصطنعوا الرجال . وبذلوا الرغائب ، فانضاف إليهم حجريةُ السلطان (١) وغلمانُه ،وصار جيش السلطان الأتراكَ والديلمَ والجبلَ ونفراً من القرامطة ، وكل ذلك مع توزون . وكان توزون من رفقاء بجكم والخواصّ من أصحابه . فانحدر توزون إلى واسط لحربِ البريديين ، وكانوا ملكوا واسطَ وتغلّبُوا عليها ، فكانت بينهم سجالا ، والمتقي لله لا أمرَ له ولا نهيَ ، فكاتب المتّقي أبا محمد الحسنَ بن عبد الله بن حمدان ناصر الدولة ، وأخاه أبا الحسن علي ابن عبد الله سيف الدولة أن ينجدوه ويستنقذوه مما هو فيه . ويفوّض إليهما المُلْكَ والتدبيرَ ، وقد كان قبلَ ذلك خرجَ إليهم وتوزونُ في جملتهم منضافٌ وغيرهُ من

(١) حجرية السلطان : حرسه والمحيطون به .

الأتراك والديلم ، وذلك عند قتلهم محمدَ بنَ رائق(١) في سنة ثلاثين وثلاث مئة ، وانحدارهم إلى مدينة السلام ، واستيلائهم على المُلْك والقيام به وحربهم البريديين . وما كان بينهم من الوقائع إلى أنْ توجَّه عليهم ماذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » من خروج أبي محمد الحسن بن عبدالله من الحضرة إلى الموصل . ولحوق أخيه أبي الحسن علي بن عبدالله . وخلاصه مما دبرَّه عليه توزونُ وجعجع التركي ، وخرج المتقي إلى الموصل . فلما بلغ توزون ذلك رجع إلى بغداد وقصدَ بني حمدان ، فكان التقاؤهم بعكبرا ، فكانت بينَهم سِجالاً ، ثم كانت لتوزون عليهم ، فرجع إلى بغداد ثم أجمعوا له أيضاً . ورجعوا إليه . فتركهم حتى قربوا إلى بغداد ، فخرج عليهم فلقِيَهم فهزمَهم بعدَ مواقعات كانت بينهم ، وسار وراءهم حتى دخل المَوْصل ، وخرجَ عنها إلى مدينة بلد (٢) ، فصالحوه

---

(١) محمد بن رائق : أمير من الدهاة الشجعان . ولي شرطة بغداد للمقتدر ثم ولاه الراضي إمرة الأمراء والخراج ببغداد سنة ٣٢٤ هـ . قتله ناصر الدولة الحمداني سنة ٣٣٠ هـ .

(٢) مدينة بلد : مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ .

على مال حملوه إليه ، فرجع إلى بغداد وهو مستظهر بمَنْ معه من الأتراك والجبل والديلم وكمال العُدّة والكراع ، وسار المتقي إلى نَصيبين ، ورجع عنها إلى الرَّقة فنزلها ، وذلك لأيام بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة ، وكاتب الإخشيدَ محمدَ بنَ طغج صاحب مصر فسار إلى الرقة وحملَ إليه مالاً كثيراً ، وأهدى إليه غلماناً وأثاثاً وضم إليه قائداً من قواده . وجمّل أمرَه ، وزاد في حاله ، وبرّ جميع مَنْ معه من وزيره أبي الحسن علي بن محمد بن مقلة ، وقاضي القضاة أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقي ، وسَلاَّمُ الحاجب المعروف بأخي نُجْح الطولوني ، وجماعة الوجوه والغلمان ، ثم لم يعبر الإخشيدُ محمد بن طغج إلى الرقّة ولا إلى شيء من جانب الجزيرة وديار مضر ، وعبر المتقي ، وسار إلى معسكره من الجانب الشامي ؛ فكانت بينهم خطوب وأيمان وعهود ، وأبو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان مُقيمٌ بحرّان على طول مقام المتقي بالرقة ، وقد كان أبو عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان سار عن حلب وبلاد حمص عند مسير الإخشيد إلى بلاد قنسرين

والعواصم . فانفضّ جمعُهُ ، وتفرق جندُهُ عنه ، وانضافوا إلى أبي الحسن علي بن عبد الله ، واتصلت كتب توزون بالمتقي ، وتواترت رُسلهُ يسأله الرجوع إلى الحضرة ، وأشهدَ توزونُ مَنْ حضرَهُ من القضاة والفقهاء والشهود ، وأعطى العهود والمواثيق بالسمع والطاعة للمتقي ، والتصرف له بين أمره ونهيه ، وترك الخلاف عليه ، وأنفذَ إليه كتبَ القضاة والشهود بما بذل من الأَيمان وأعطى من العهود ، وأشار بنو حمدان على المتقي أنْ لاينحدرَ ، وخوّفوه من توزون وحذّروه أمرَه ، فإنه لايأمنهُ على نفسه ، فأبى إلا مخالفتهم والثقةَ بما وردَ عليه من توزونَ ، وقد كان بنو حمدان أنفقوا على المتقي نفقةً واسعةً عظيمةً طول مُقامهِ عندهم واجتيازهِ بهم ، يكثر وصفُها ويتعسرُ علينا في التحصيل إيرادُها بإكثار المخبرين لنا بتحديدها ، وانصرفَ الإخشيدُ عن الفرات متوجّهاً نحوَ مصر ، وانحدرَ المتقي في الفرات ، فتلقاه أبوجعفر بن شيرزاد كاتب توزون بأحسن لقاء ، وأقام له الأتراك ، ومضى في انحداره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى ، وسار إلى الضيعة المعروفة بالسندية على شاطىء هذا النهر ، فتلقّاه

توزونُ هنالك ، وتَرجَّل له ومشى بين يديه . فأقسم عليه أنْ يَركبَ ففعل ، حتى وافى به إلى المضرب الذي كان ضربه له على الشط من نهر عيسى ؛ وذلك على شوط من مدينة السلام ؛ فأقام هنالك ؛ وأنفذ رُسُلاً إلى دار طاهر ليُحضِرَ المستكفي ، فلما حصلَ المستكفي في المضرب قَبضَ على المتقي ، ونهب جميع ما كان معه ، وقبض على وزيره أبي الحسن علي بن محمد بن مقلة ؛ وعلى قاضيه أحمد بن عبدالله بن إسحاق ؛ ونهب جميعَ العسكر ، وانصرف القائدُ الذي كان الإخشيدُ ضمّه إلى المتقي ومن معه إلى صاحبهم ؛ وأُحضِرَ المستكفي فبُويعَ له ، وكُحِل المتّقي . فصاحَ النساءُ والخدمُ لصياحه ، فأمر توزون بضرب الدبادب (١) حولَ المضربِ ، فخفيَ صُراخُ الخدم ، وأُدخِل إلى الحضرة ، مسمولَ العينين وأُخِذَ منه البردةُ والقضيب والخاتم ، وسُلِّم إلى المستكفي بالله ، وبلغ ذلك القاهرَ فقال : قد صِرنا اثنين نحتاجُ إلى ثالث ، يعرِّض بالمستكفي بالله .

---

(١) الدبادب : الطبول .

من صفات الخيل : وحــدث محمد بن عبد الله الدمشقي قال : لما انحدرنا مع المتقي من الرحبة وصرنا إلى مدينة عانة (١) دعا بالرقي وغلامه فحادثاه ، وتسلسل بهم القول إلى فنون من الأخبار ، إلى أن صاروا إلى ذكر الخيل ، فقال المتقي : أيكم يحفظ خبر سليمان ابن ربيعة الباهلي مع عمر بن الخطاب؟ فقال الغلام : ذكر أبوعمرو بن العلاء ياأمير المؤمنين إن سليمان بن ربيعة الباهلي كان يُهجِّن الخيل ويُعرِّبُها في زمن عمر بن الخطاب، فجاءه عمرو بن معد يكرِبَ بفرسٍ كُميت فكتبه هجيناً ، فاستعدى عليه عُمَرَ وشكاه إليه ، فقال سليمان : ادعُ بإناء رجراج قصيرِ الجَدْر (٢) ، فدعا به ، فصبَّ فيه ماء ، ثم أتى بفرسٍ عتيق لاشك في عتقه : فأسرعَ وبرك وشَرب ، ثم أتى بفرس عمرو الذي كان هُجِّنَ فأسرعَ فصب سنبكَه ومدَّ عنقَه كما فعل العتيق ،

---

(١) الرحبة : وتسمى رحبة مالك بن طوق وهي بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات . وعانة : بلد بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة وتنسب إليه الخمر .

(٢) الرجرجة : الاضطراب . والجدر : الحائط .

ثم ثنى أحدَ السنبكين قليلاً فشربَ . فلما رأى ذلك عمر بن الخطاب وكان ذلك بمحضره قال : أنتَ سليمانُ الخيل ،

فقال المتقي : فما عندكم عن الأصمعي وغيره من علماء العرب في صفاتها ؟ قال الرقي : ذكر الرّياشي عن الأصمعي قال : إذا كان الفرسُ طويلَ أوْظِفةِ اليدين. قصيرَ أوْظفةِ الرجلين ، طويلَ الذراعين ، قصيرَ الساقين ، طويلَ الفخذين ، طويلَ العَضُدَين ، مفرَّع (١) الكتفين لم يكد يُسبَقُ ، وقال : إذا سَلِمَ من الفرس شيئان لم يضُره عيبٌ سواهما : مغروزُ عنقه في كاهله ، ومغروزُ عجزه في صُلْبِهِ ، وإذا جادت حوافره فهو هو . وأنشدنا المبرد :

ولقد شهدت الخيلَ تحمل شِكَّتي
عَتَدٌ كسرحان القصيمة مِنهبُ (٢)

---

(١) مفرع الكتفين : مرتفعهما .

(٢) الشكة : السلاح . والعتد من الخيل : المعد للجري : والمنهب : الفائق في العدو .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرسٌ إذا استقبلتـــــه فكأنـــه
في العين جزع من أوالَ مشزَّبُ (١)
وإذا اعترضت له استوت أقطـــاره
فكأنـــــه مســـتدبرٌ متصـــوَّبُ

ذكر خلافة المستكفي بالله

موجز: وبويع المستكفي بالله ، وهـــو أبو القاسم عبدُ الله بن علي المكتفي ، يوم السبت لثلاث خلونَ من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة ،وخلع في شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة ،لسبع بقينَ من هذا الشهر ، فكانت خلافتُهُ سنةً وأربعة أشهرٍ إلا أياماً ، وأمه أم ولد .

ذكر جمل من أخباره ، وسيره ،ولمع مما كان في أيامه

ذكر أول أمره : قد قدّمنا عندما ذكرنا خلْعَ

(١) أوال : جزيرة بناحية البحرين فيها نخل كثير وبساتين .
والمشزب : المضمر . وأحسب الصواب : كجذع من أوال مشزب .
يقول توبة بن الحمير :
من الناعبات المشي نعبــاً كأنمــــا ينـاط بجذع من أوال جريرها.

المتقي لله أن المستكفي بويع له بالسبق على نهر عيسى من أعمال بادوريا بإزاء القرية المعروفة بالسندية (١) في الوقت الذي سُمِلَتْ فيه عينا المتقي ، بايع له أبوالوفاء توزون وسائر من حضره من القواد وأهل الدولة ، وأهل عصره من القضاة منهم القاضي أبوالحسن محمد بن الحسين بن أبي الشوارب وجماعة من الهاشميين ، فصلّى بهم في يومهم ذلك المغربَ والعشاء ، وسار حتى نزل في يومِ الأحد بالشمَّاسية ، فلما كان في يوم الاثنين انحدر في الماء راكباً في الطيَّار الذي يسمى الغزال ، وعليه قَلَنْسُوة طويلة محدودة ، ذُكِر أنها كانت لأبيه المكتفي بالله ؛ وعلى رأسه توزون التركي ومحمد بن محمد بن يحيى بن شيرزاد وجماعة من غلمانه ، وسُلِّم إليه المتقي ضريراً ، وأحمدُ بنُ عبدالله القاضي مقبوضاً عليه ، وحضر بعد ذلك سائرُ القضاة والهاشميين ، فبايعوا له ، واستوزر أبا الفرج محمدَ بن علي السامريّ مدةً ، ثم غَضِبَ عليه ، وغلب على أمره محمد بن شيرزاد ، وجلسَ للناس ، وسألَ عن القضاة ، وكشف عن أمرِ شهود الحضرة ، فأمر بإسقاط بعضهم .

---

(١) بادوريا : منطقة غربي بغداد . والسندية : من قرى بغداد .

وأمرَ باستتابة بعضهم من الكذب وقبول بعضهم لأشياء كان قد علِمَها منهم قبلَ الخلافة ، فامتثل القضاةُ ما أمر به من ذلك ، واستقضى على الجانب الشرقي محمد بن عيسى المعروف بابن أبي موسى الحنفي ، وعلى الجانب الغربي محمد بن الحسن بن أبي الشوارب الأموي الحنفي ، فقالت العامة : إلى ههنا انتهى سلطانه ، وانتهى في الخلافة أمرهُ ونهيه ، وقد كان بينه وبين الفضل بن المقتدر الذي يسمى بالمطيع قبل ذلك مجاورة في دار ابن طاهر ، وعداوة في اللعب بالحمام وتطييرها ، واللعب بالكبّاش والديوك والسُّمّان ، وهو الذي يسمى بالشام النفخ ، فلما حُمل المستكفي إلى نهر عيسى ليبايعَ له هربَ المطيعُ من داره ، وعلم أنه سيأتي عليه ، فلما استقرت للمستكفي طلب المطيعَ ، فلم يقف له على خبر ؛ فهدم دارَه ، وأتى على جميع ماقدر عليه من بستان وغيره .

المستكفي وغلام ضمه له توزون : وذكر أبوالحسن علي بن أحمد الكاتب البغدادي ، قال : لما استخلف المستكفي ضم إليه توزون غلاماً تركياً من غلمانه يقف بين يديه ، وكان للمستكفي غلام قد وقف على أخلاقه ونشأ في

خدمته ، فكان المستكفي يَميل إلى غلامه ، وكان توزون يُريدُ من المستكفي أن يُقدِّمَ المضمومَ إليه على غلامه الأول ؛ فكان المستكفي يبعثُ بالغلام التركي في حوائجه ، اتباعاً لمراضاة توزون ، فلا يبلغ له مايبلغُ غلامَه .

من أخبار الحجّاج مع أهل الشام : قال : وأقبل المستكفي يوماً على محمد بن محمد بن يحيى بن شيرزاد الكاتب ، فقال له : أتعرف خبرَ الحجاج بن يوسف مع أهل الشام ؟ قال: لا ياأمير المؤمنين ، قال : ذكروا أن الحجاج بن يوسف كان قد اجْتَبَى(١) قوماً من أهل العراق وجَدَ عندهم من الكفاية مالم يجد عند مختصيه من الشاميين ؛ فشقَّ ذلك على الشاميين وتكلموا فيه ، فبلغ إليه كلامهم ؛ فركب في جماعة من الفريقين ، وأوْغَلَ بهم في الصحراء ، فلاح لهم من بُعْد قطارُ إبل ؛ فدعا برجلٍ من أهل الشام ، فقال له : امضِ فاعرف ماهذه الأشباح ، واستَقْصِ أمرَها ، فلم يلبث أن جاءَ وأخبره أنها إبل ، فقال : أمُحمَّلة هي ؟ أم غيرُ محملة ؟ قال : لا أدري ، ولكني أعودُ وأتعرّفُ ذلك ، وقد كان الحجاج أتبعه برجل آخر من أهل العراق ،

---

(١) اجتبى : اختار .

وأمره بمثل ماكان أمَرَ الشاميَّ ، فلما رجع العراقي أقبل عليه الحجاج وأهل الشام يسمعون فقال : ماهي ؟ قال : إبل ، قال : وكم عددُها ؟ قال : ثلاثون ، قال : وماتحمل ؟ قال : زيتاً ، قال : ومن أين صَدَرَتْ ؟ قال : من موضع كذا ، قال : وأين قصدَتْ ؟ قال : موضعَ كذا ، قال : ومَنْ رَبُّها ؟ قال : فلان ، فالتفتَ إلى أهل الشام ، فقال :

ألامُ على عمرو ، ولو ماتَ أو نأى

لقلَّ الذي يُغني غَناءَكَ ياعمرو

فقال ابنُ شيرزاد : فقد قال ياأميرَ المؤمنين بعضُ أهلِ الأدب في هذا المعنى :

شَرُّ الرسولَين مَنْ يحتاجُ مرسلُه

منه إلى العَوْدِ ، والأمرانِ سِيّان

كذاك ماقالَ أهلُ العلمِ في مَثَلٍ

طريقُ كلِّ أخي جهلٍ طريقان

قال المستكفي : ماأحسنَ ماوصفَ البحتريُّ الرسولَ بالذكاء بقوله :

وكأنَّ الذكاء يبعثُ منه
في سوادِ الأمورِ شُعلةَ نار

وعلم ابنُ شيرزاد استثقالَ المستكفي لغلام توزونَ ، فأخبر توزونَ بذلك فأعفاه منه وأزالَه عن خدمته .

مسامرة في وصف الخمر : وحدَّثَ أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق المعروف بابن الوكيل البغدادي قال : كان أبي قديماً في خدمة المكتفي ، فلما كان من أمره ماشتهر ، صرتُ في خدمة ابنه عبد الله بن المكتفي ، فلما أفضت الخلافة إليه كنت أخصَّ الناسِ به ، فرأيته في بعض الأيام وعنده جماعة من ندمائه ممن كان يعاشرهم قبلَ الخلافة من جيرانه بناحية دار ابن طاهر ، وقد تذاكروا الخمرَ وأفعالها . وما قال الناسُ فيها من المنثور والمنظوم ، وما وُصفت به ، فقال بعضُ من حضر : ياأميرَ المؤمنين ، مارأيتُ أحداً وصفَ الخمرةَ بأحسنَ مِنْ وصفِ بعضِ من تأخر ؛ فإنه ذَكرَ في بعض كتبه في الشراب ووصفِه ؛ أنه ليس في العالم شيءٌ واحد أخذَ من أمهاته الأربعِ فضيلتَها وابتزَّها أكرمَ

خواصّها إلا الحمرة ؛ فلها لونُ النار ، وهو أحسن الألوان ، ولُدُونَةُ الهواء ، وهي ألين المجسّات ، وعذوبةُ الماء ، وهي أطيبُ المذاقات ، وبَرْدُ الأرض ، وهي ألذ المشروبات ، قال : وهذه الأربع وإن كنّ في جميع المآكل والمشارب متركبة فليس الغالب عليه ماوصفنا من الغالب على الخمر ، قال واصفها : قد قلت في اجتماع الصفات التي ذكرنا فيها :

لست أرى كالراح في جمعها
لأربع هُنّ قِوامُ الورى
عذوبةُ الماء ، ولِينُ الهوا ،
وسُخْنةُ النارَ ، وبَرْدُ الثرى

ولما كانت الراح بالموضع الذي وصفناها به من الفضل على سائر مايُنال من هذه الدنيا ، كانت الأوصاف أحسنَ لها من سائر مايُنال ويوصف من صنوف اللذات ، والمدح بها بما تَبعثُ من فنون الشهوات.

قال : فأما شُعاع الخمر فإنه يُشبَّه بكل شيء نوري ، من شمس وقمر ونجم ونار ، وغير ذلك من الأشياء

النوريّة ، فأما لونها فيحتمل أن يشبّه بكل أحمر في العالم وأصفر : من ياقوتٍ وعقيقٍ وذهبٍ ، وغيرِ ذلك من الجواهر النفيسة والحُلى الفاخرة .

قال : وقد شبهها الأولون بدم الذبيح ، ودم الجَوْف ، وشبهها غيرهم بالزيت والرازقي(١) وغيرهما ، وتشبيهها بالجوهر الأكرم أفضل لها ، وأحسن في مدحها .

قال : فأما صفاؤها فيحتمل أن يشبّه بكل مايقع عليه اسم الصفاء . وقد قال بعض الشعراء المتقدمين في صفائها :

تُريكَ القَــذى من دونها وَهْيَ دونَه

وهذا أحسن ماقاله الشعراء في وصف الخمر ، قال : وقد أتى أبونُوَاس في وصفها ووصف طعمها وريحها وحسنها ولونها وشعاعها وفعلها في النفس وصفة آلاتها وظروفها وأدنانها ، وحال المنادمات عليها ، والاصطباح ، والاغتباق ، وغير ذلك من أحوالها ، بما يكاد يُغلَقُ به بابُ وصفها ، لولا اتّساعُ الأوصاف لها واحتمالها

---

(١) الرازقي : نوع من العنب .

إياها ، وأنها لاتكاد تُحصَرُ ، ولايبلغ إلى غاياتها ، قال :
وقد وصف أبونُواس نورَها فقال :

فكأنهـــا في كفـــه شمسٌ وراحتـــهُ قمر

وقال :

فعلت في البيت إذ مُـــزجَـــتْ
مِثْلَ فعلِ الصُّبحِ في الظُّـــلَمِ
فاهـــتدى ســـاري الظلامِ بها
كاهـــتداءِ السَّفْرِ بالعـــلَمِ

وقال أيضاً :

بنتُ عشرٍ صَفَتْ ورَقّتْ ، فلو صُبْـ
ـتْ على الليل راحَ كُلُّ ظلام

وقال أيضاً :

إذا عَبَّ فيها شاربُ القوم خِلتَـــه
يُقَبِّل في داجٍ من الليلِ كوكبا
ترى حيثُما كانت من البيت مَشرِقاً
ومالم تكن فيه من البيت مَغْرِبا

* * *

قال : وله في هذا الفن أشياء كثيرةٌ قد وصفها في مشابَهةِ النّار ومجانَسَةِ الأنوار والرفع للظّلام ، وتصيير الليلِ نهاراً والظلامِ أنواراً ممّا هو إغراقُ الواصف واشتطاطُ المادح . قال : وليس إلى صفةِ لونها ونورها ماهو أحْسَنُ ممّا وَصَفَها ، إذ ليس بعد الأنوار شيءٌ في الحسنِ . قال : فداخَلَ المستكفي سرورٌ وفرحٌ وابتهاجٌ بما وصفَ ، فقال : ويحَكَ ! ! فُرِّجَ عني من هذا الوصف . قال : نعم ياسيّدي .

فلم أرَ المستكفي مُنْذُ وليَ الخلافةَ أشدَّ سروراً منه في ذلك اليوم ، وأجاز جميعَ مَنْ حضر من الجلساء والمغنّين والمُلْهين ، ثم أحْضَرَ ماحضره في وقته من عَيْنٍ ووَرِقٍ مع ضيق الأمر إليه . فوالله مارأيتُ له بعد ذلك يوماً مثله ، حتى قَبَضَ عليه أحمد بن بُوَيهِ الديلمي (١) ، وسَمَلَ عينيه ، وذلك أن الحرب لما طالت بين أبي محمد الحسين بن عبدالله بن حمدان — و كان

---

(١) أحمد بن بويه : من سلالة سابور ذي الأكتاف. امتلك بغداد في خلافة المستكفي مدة ٢٢ سنة وتوفي فيها . (٣٠٣ — ٣٥٦) ه .

في الجانب الشرقي ومعه الأتراك — وابن عمه الحسين ابن سعيد بن حمدان ، وبين أحمد بن بويه الديلمي في الجانب الغربي ، والمستكفي معه ، اتهم الديلمي المستكفي بمسألة بني حَمْدان ومكاتَبتهم بأخباره ، واطّلاعهم على أسراره ، مع ماكان قد تقدم له في نفسه ؛ فسَمَلَ عينيه ، وولّى المطيعَ ، وأعمل الديلميُّ الحيلَةَ في البيات بالديلم ؛ فحملَهم في السفن مع بوقات ودبابات (١) في الليل ، وألقاهم في مواضعَ كثيرة من الشارع إلى الجانب الشرقي ؛ فتوجَّهَتْ له على بني حمدان الحيلةُ ؛ فخرجوا نحو المَوْصِل من بعدِ أحداث كثيرة بين الأتراك وبينهم ببلاد تكريت ، واستوثق الأمرُ لأحمدَ بن بُويهِ الديلمي ، وشَرَعَ في عمارة البلد ، وسَدَّ البُثوق ، على حسب ماينمو إلينا من أخباره واتّصل بنا في أفعاله ، على بُعْدِ الدار ، وفسادِ السُّبُل ، وانقطاعِ الأخبار ، وكوننا ببلادِ مصرَ والشام .

---

(١) الدبابات : ج دبابة : وهي الة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن ، فينقبون وهم في جوفها .

قال المسعودي : ولم يتأتَّ لنا من أخبار المستكفي – مع قِصَرِ أيامه – غيرُ ماذكرنا ، واللهُ الموفِقُ للصواب .

ذكر خلافة المطيع لله

موجز مبدئه : وبُويعَ المطيعُ لله – وهو أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر – لسبعٍ بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة، وقيل : إنه بُويع في جمادى الأولى من هـذه السنة ، وغابَ على الأمر ابن بُوَيْه الديلمي . والمطيع في يده لا أمرَ له ولا نهيَ ، ولا خلافةَ تُعرفُ ، ولا وزارةَ تُذكر ، وقد كان أبوجعفر محمد بن يحيى ابن شيرزاد يدبر الأمر بحضرة الديلمي ، قيماً بأمر الوزارة برسم الكتابة ، ولم يخاطَبْ بالوزارة إلى أن استأمن الحسين ابن عبدالله بن حَمْدان إلى الجانب الغربي ، وخرج معه عند خروجه إلى ناحية الموصل ، إلى أن اتهمه بتغريته الأتراك عليه ؛ فسمل عينيه ، وقد قيل : إن أبا الحسن علي ابن محمد بن علي بن مُقلة يعرضُ الكتبَ على الديلمي والمطيع ، ويتصرف برسم الكتابة ، لابرسم الوزارة في هذا الوقت ، وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين

وثلاث مئة . ولم نُفرِدْ بجوامعِ تاريخِ المطيع باباً مفصلاً عن أخباره كإفرادنا لغيره مما سلف ذكرهُ في هذا الكتاب لأننا في خلافته بعدُ .

قال المسعودي : وقد أتينا على ذكر سائر الأحداث والكوائن في أيام مَنْ ذكرنا من الخلفاء والملوك في كتابينا « أخبار الزمان » والأوسط ، وذكرنا في هذا الكتاب مايكتفي به الناظر فيه ، وانتهى بنا التصنيف فيه إلى هذا الوقت ،وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاث مئة ، ونحن بفُسطاط مصر ، والغالبُ على أمرِالدولة والحضرة أبو الحسن أحمد بن بُويَهِ الديلمي المُسَمَّى معزّ الدولة وأخوه الحسنُ بنُ بويه (١) صاحبُ بلاد أصفهان وكُور الأهواز وغيرها المسمى ركن الدولة ، وأخوهما الأكبر ، والرئيس فيهم المعظم علي بن بُوَيْهِ (٢) الملقب بعميد الدولة

(١) الحسن بن بويه : من كبار الملوك في الدولة البويهية . و صاحب عراق العجم . استوزر ابن العميد واستمر في الملك ٤٤ سنة . توفي بالري . (٢٨٤ – ٣٦٦) هـ .

(٢) علي بن بويه : أول من ملك من بني بويه . كانت له بلاد فارس وعاصمته شيراز استمر في ملكه ١٦ سنة ومات بشيراز . (٢٨١ – ٣٣٨)هـ.

المقيم بأرض فارس ؛ والمدبر منهم لأمر المطيع أحمد بن بُوَيْه مُعِزّ الدولة ، وهو المحارب للبريديين بأرض البصرة . والمطيع معه على حسب ماينمو إلينا من أخبارهم . ودلّنا في كتابنا هذا بالقليل على الكثير . وبالخبر اليسير على الجليل الخطير ؛ وذكرنا في كل كتاب من هذه الكتب مالم نذكره في الآخر إلا مالايسع تركه، ولا نجد بُدّاً من إيراده لما دعت الضرورة إلى وصفه ، وأتينا على أخبار أهل كل عصر ، وماحدث فيه من الأحداث ، وما كان فيه من الكوائن إلى وقتنا هذا ، مع ماأسلفناه في هذا الكتاب من ذكرنا البر والبحر ، والعامر منهما والغامر . والملوك وسيرها ، والأمم وأخبارها .

المؤلف يعد بتأليف كتاب في الأخبار : وأرجو أن يُفسِحَ اللهُ تعالى لنا في البقاء ، ويمدّ لنا في العمر ، ويُسعِدَنا بطول الأيام . فنُعقِبَ تأليفَ هذا الكتاب بكتاب آخرَ نُضَمِّنُه فنوناً من الأخبار ، وأنواعاً من طرائفِ الآثار ، على غيرِ نظْم من التأليف .ولا ترتيب من التصنيف ، على حَسَبِ مايسْنَحُ من فوائدِ الأخبار ،

ويُوجدُ من نوادر الآثار ، ونترجمه بكتاب « وصلِ المجالس بجوامعِ الأخبار ومختلط الآثار » تالياً لما سلفَ من كتبنا ، ولاحقاً بما تقدم من تصنيفنا .

وجميعُ ماأوردناه في هذا الكتاب لايسعُ ذوي الدراية جهلهُ ، ولايُعْذر في تركه والتغافلِ عنه ؛ فمن عدَّ أبواب كتابي هذا ولم يُمعِنْ النظرَ في قراءةِ كلِّ بابٍ منه لم يبلغْ حقيقةَ ماقلنا ، ولاعرف للعلم مقدارَهُ ؛ فلقد جمعنا مافيه في عِدَّة السنين باجتهادٍ وتعبٍ عظيم ، وجوَلان في الأسفار ، وطَوافٍ في البلدان من الشرق والغرب في كثيرٍ من الممالك غيرِ مملكة الإسلام ؛ فمن قرأ كتابَنَا هذا فليتدَّبْرهُ بعين المحبة ، وليتفضَّلْ بهمته بإصلاح ماأنكرَ منه مما غيَّره الناسخ وصَحَّفَة الكاتب ، وليَرعَ لي نسبةَ العلم ، وحُرمَةَ الأدب ، وموجباتِ الرواية ، وما تجشمت من التعب فيها ، فإن منزلتي فيه وفي نظمه وتأليفه بمنزلة من وَجَدَ جوهراً منثوراً ذا أنواعٍ مختلفة وفنونٍ متباينة فنظَمَ منها سلْكاً ، واتَّخذَ عِقْداً نفيساً ، ثميناً باقياً لطلابه .

وليَعلمْ من نظرَ فيه أني لم أنتصرْ فيه لمذهب . ولاتحيَّزتُ إلى قول ، ولا حكَيتُ عن الناس إلا مجالسَ أخبارهم ، ولم أعرض فيه لغير ذلك .

فلنذكر الآن الباب الثاني من جوامع التاريخ على حسب ماقدمنا الوعد بإيراده في صدر هذا الكتاب وبالله أستعين . وعليه أتوكل .

ذكر جامع التاريخ الثاني ، من الهجرة إلى هذا الوقت

وهو جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاث مئة الذي فيه انتهينا من الفراغ من هذا الكتاب .

تقدمة : قد أفردنا فيما سلف من هذا الكتاب باباً في تاريخ العالم والأنبياء والملوك إلى مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومَبْعثه إلى هجرته . ثم ذكرنا هجرتَهُ إلى وفاته ، وأيام الخلفاء والملوك إلى هذا الوقت ، على حسب مايوجبُهُ الحسابُ وما في كتُبِ السير وأصحاب التواريخ ممن عُنِيَ بأخبار الخلفاءِ والملوك ، ولم نعرِضْ فيما ذكرنا من ذلك لما في كتب الزيجات مما ذكره أصحابُ النجوم ، على حسَب مايوجبُهُ تاريخُهم ؛ فلنذكُرْ في هذا الباب

بجميعَ ماأثبتوه في كُتُبِ زيجات النجوم من الهجرة إلى هذا الوقت المؤرخ ؛ ليكون ذلك أكثرَ لفائدة الكتاب ، وأجمعَ لمعرفة تبايُنِ أصحاب التواريخ من الأخباريين والمنجمين ، وما اتفقوا عليه من ذلك .

المبدأ ومقابله من تاريخ الإسكندر : فالذي وجدناه من ذلك في كتاب الزيجات أنّ الابتداء في يوم الجمعة مستهل المحرم سنة إحدى للتروية (١) ، وذلك يوم ستة عشر من تموز سنة تسعمائة وثلاثة وثلاثين ، وكانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة سنة إحدى بعد أن مضى منها شهران وثمانيةُ أيام ، فمكثَ بها حتى قُبِضَ صلى الله عليه وسلم تسعَ سنين وأحدَ عشرَ شهراً واثنين وعشرين يوماً ، فذلكَ عشرُ سنينَ وشهران .

زمن أبي بكر : أبوبكر الصديق رضي الله عنه سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام ؛ فذلك اثنتا عشرةَ سنةً وخمسة أشهر وثمانية أيام .

---

(١) سمي يوم التروية : لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء لما بعد .

زمن عمر : عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه :
عشر سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً ، فذلك اثنتان وعشرون سنة وأحد عشر شهراً وخمسة وعشرون يوماً .
وكانت الشورى بعد عمرَ ثلاثةَ أيام ، فذلك اثنتان وعشرون سنة وأحد عشر شهراً وثمانية وعشرون يوماً .

عثمان : عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه :
إحدى عشرة سنة وأحدَ عشرَ شهراً وتسعةَ عشرَ يوماً .
فذلك أربعٌ وثلاثون سنةً وأحَدَ عَشَرَ شهراً وسبعةَ عَشَرَ يوماً .

علي : عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه :
أربع سنين وسبعة أشهر . فذلك تسعٌ وثلاثون سنةً وثمانيةُ أشهر وسبعةَ عَشَرَ يوماً .

وإلى بَيْعَةِ معاويةَ بنِ أبي سفيان ستةُ أشهرٍ وثلاثةُ أيام ؛ فذلك أربعون سنةً وشهران وعشرون يوماً .

معاوية : معاويةُ بنُ أبي سفيانَ رضيَ الله عنه :
تسعَ عشرةَ سنةً وثلاثة أشهر وخمسة وعشرون يوماً ؛ فذلك تسعٌ وخمسون سنة وستة أشهر وخمسة وعشرون يوماً.

يزيد بن معاوية : يزيدُ بنُ معاوية : ثلاث سنين وثمانية أشهر ، فذلك ثلاثٌ وستون سنة وشهران وخمسة عشر يوماً .

معاوية بن يزيد : معاويةُ بنُ يزيدَ بنِ معاوية : ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً ، فذلك ثلاثٌ وستون سنة وستة أشهر وسبعة أيام .

مروان : مروان بن الحكم : أربعة أشهر ، فذلك ثلاث وستون سنة وعشرة أشهر وسبعة أيام .

عبد الله بن الزبير : عبدُ الله بن الزبير : ثمان سنين وخمسة أشهر ، فذلك اثنتان وسبعون سنة وثلاثة أشهر وسبعة أيام .

عبد الملك بن مروان : عبدُ الملك بن مروان حتى قتل ابن الزبير : سنة وشهرين وستة أيام ، فذلك ثلاثٌ وسبعون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام .

ذكر أيام بني مروان بن الحكم

عبدُ الملك بن مروان بن الحكم : اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر وخمسة أيام .

الوليد بن عبد الملك : تسع سنين وتسعة أشهر وعشرين يوماً .

سليمانُ بن عبد الملك : سنتين وسبعة أشهر وعشرين يومـــاً .

عمرُ بنُ عبد العزيز بن مروان: سنتين وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً .

يزيدُ بن عبد الملك : أربع سنين ويوماً واحداً .

هشامُ بن عبد الملك : تسعَ عشرةَ سنةً وثمانية أشهر وسبعة أيام ؛ فذلك مئةُ سنة وأربعةٌ وعشرون سنة وثلاثة أشهر وستة أيام .

الوليد بن يزيد بن عبد الملك : حتى قُتِلَ سنة وشهرين وعشرين يوماً ؛ فذلك مئة سنة وخمس وعشرون سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرون يوماً ، وكانت الفتنةُ بعد مقتله شهرين وخمسة وعشرين يوماً ؛ فذلك مئة سنة وخمس وعشرون سنة وثمانية أشهر واثنان وعشرون يوماً .

يزيد بن الوليد بن عبد الملك : شهرين وسبعة أيام ؛

فذلك مئة وخمس وعشرون سنة وأحد عشر شهراً ويوم واحد .

إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك حتى خُلِعَ : شهرين وأحدَ عشرَ يوماً ؛ فذلك مئة سنة وست وعشرون سنة وشهر واثنا عشر يوماً .

مروان بن محمد حتى قُتِلَ : خمس سنين وشهرين ، فذلك مئة سنة وإحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وإثنا عشر يوماً .

ذكر الخلفاء من بني هاشم

أبو العباس عبد الله بن محمد : أربع سنين وثمانية أشهر ويومين ؛ فذلك مئة سنة وخمس وثلاثون سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً . وحتى انتهتِ البَيْعَةُ إلى المنصور أربعةَ عشرَ يوماً ؛ فذلك مئة سنة وخمس وثلاثون سنة وأحد عشر شهراً وثمانية وعشرون يوماً .

أبوجعفر عبدالله بن محمد المنصور : إحدى وعشرين سنةً وأحدَ عشرَ شهراً وثمانية أيام ، فذلك مئة وسبع

وخمسون سنة وأحد عشر شهراً وستة أيام . وحتى انتهى الخبر إلى المهدي اثني عشر يوماً ؛ فذلك مئة وسبع وخمسون سنة وأحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً .

المهدي : عشر سنين وشهراً واحداً وخمسة أيام ؛ فذلك مئة سنة وثمان وستون سنة وثلاثة عشر يوماً . وحتى انتهى الخبرُ إلى الهادي ثمانيةَ أيام ؛ فذلك مئةُ سنةٍ وثمانٍ وستون سنة وشهر واحد ويوم واحد .

الهادي : سنة واحدة وشهراً واحداً وخمسة عشر يوماً ؛ فذلك مئة سنة وتسع وستون سنة وشهران وستة عشر يوماً .

الرشيد : ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وستة عشر يوماً ؛ فذلك مئة واثنتان وتسعون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام . وحتى انتهى الخبر إلى الأمين ابنه اثنا عشرَ يوماً ؛ فذلك مئة سنة واثنتان وتسعون سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً .

الأمين حتى خُلِعَ وحُبِسَ : ثلاث سنين وخمسة وعشرين يوماً ؛ فذلك مئة وخمس وتسعون سنة وستة

أشهر وعشرة أيام . ومكث محبوساً يومين . فذلك مئة وخمس وتسعون سنة وستة أشهر واثنا عشر يوماً . وأخرج وبويع له وحارب وحوصر حتى قتل ؛ سنة وستة أشهر وثلاثة عشر يوماً .

المأمون : عشرين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً ، فذلك مئتان وسبع عشرة سنة وستة أشهر وتسعة عشر يوماً .

المعتصم : ثمان سنين وثمانية أشهر ويومين ، فذلك مئتان وستة وعشرون سنة وشهران وتسعة عشر يوماً .

الواثق : خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، فذلك مئتان وإحدى وثلاثون سنة وأحد عشر شهراً وأربعة وعشرون يوماً .

المتوكل : أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة أيام ، فذلك مئتان وست وأربعون سنة وتسعة أشهر ويوم واحد .

المنتصر : ستة أشهر ؛ فذلك مئتان وسبع وأربعون سنة وثلاثة أشهر ويوم واحد ، وإلى ان انحدر المستعين إلى مدينة السلام سنتين وتسعة أشهر وثلاثة أيام ؛ فذلك

مئتان وخمسون سنة وأربعة أيام . وإلى أن بويع للمعتز بسامرا عشرة أيام . فذلك مئتان وخمسون سنة وأربعة عشر يوماً . وإلى أن خُطِب للمعتز بمدينة السلام أحَدَ عشر شهراً وعشرين يوماً . فذلك مئتان وإحدى وخمسون سنة وأربعة أيام . وإلى أن خلع المعتز ثلاث سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً ؛ فذلك مئتان وأربع وخمسون سنة وستة أشهر وسبعة وعشرون يوماً ؛ وإلى بيعة المهتدي يومين ؛ فذلك مئتان وأربع وخمسون سنة وسبعة أشهر .

المهتدي : أحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً ، فذلك مئتان وخمس وخمسون سنة وستة أشهر وسبعة عشر يوماً .

المعتمد : ثلاثاً وعشرين سنة وثلاثة أيام ؛ فذلك مئتان وثمان وسبعون سنة وستة أشهر وعشرون يوماً .

المعتضد : تسع سنين وتسعة أشهر ويومين ؛ فذلك مئتان وثمان وثمانون سنة وثلاثة أشهر واثنان وعشرون يوماً .

المكتفي : ست سنين وستة أشهر وعشرين يوماً ؛ فذلك مئتان وأربع وتسعون سنة وعشرة أشهر واثنا عشر يوماً .

المقتدر حتى خُلِعَ : إحدى وعشرين سنة وشهرين وخمسة أيام ؛ فذلك ثلاث مئة سنة وست عشر سنة وتسعة عشر يوماً .

ابن المعتز : حتى خُلِعَ : يومين ؛ فذلك ثلاث مئة سنة وست عشرة سنة وأحد وعشرون يوماً .

المقتدر حتى قُتِلَ : ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام ؛ فذلك ثلاث مئة وتسع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة عشر يوماً .

القاهر حتى خُلِعَ : سنة وستة أشهر وعشرة أيام ؛ فذلك ثلاث مئة سنة وإحدى وعشرون سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام .

الراضي : ست سنين وأحد عشر شهراً وثمانية أيام ؛ فذلك ثلاث مئة وثمانية وعشرون سنة وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً .

المتقي : ثلاث سنين وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً ؛ فذلك ثلاث مئة واثنتان وثلاثون سنة وأحد وثلاثة أيام .

المستكفي : سنة وثلاثة أشهر ؛ فذلك ثلاث مئة سنة وثلاث وثلاثون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام .

المطيع لله : إلى غرة جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وثلاث مئة : سنتين وثمانية أشهر وخمسة عشر يوماً ؛ فذلك ثلاث مئة وخمس وثلاثون سنة وأربعة أشهر إلا ثلاث ليال .

مبدأ الأخذ بتاريخ الهجرة : والتاريخ من المولد إلى هذا الوقت معلوم ، ومن المبعث إلى الوفاة معروف غير مجهول ، ولايتعذّر تناوله على ذي الدراية من هذا الكتاب . إلا ان معول الناس أن بدء ، التاريخ من الهجرة ، على حسب مابيّنا فيما سلف من كتبنا من مشاورة عمر الناس في التاريخ عند حدوث أمور وجب تدوينُها ، وما قاله الناسُ من كل فريق منهم . وأخذه بقول علي ابن ابي طالب رضي الله عنه ، أن يُؤرّخَ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتركه أرضَ الشرك ، وأنّ ذلكَ كان من عمر رضي الله عنه في سنة سبعَ عشرةَ أو ثماني عشرة ، على حسب التنازع في ذلك . والله أعلم .

المؤلف يختم كتابه بذكر صنيعه : قال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي رحمه الله : قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب أنواعاً من الأخبار ، وفنوناً من العلم من أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والملوك وسيرها ، والأمم وأخبارها ، وأخبار الأرض والبحار ، وما فيها من العجائب والآثار ، وما اتصل بذلك ، ليستدلّ به على ماسلف من كتبنا ، ومدخلاً إلى ماتقدم من تصنيفنا في أنواع العلوم مما قدمنا ذكره ، ولم نترك نوعاً من العلوم ، ولا فنّاً من الأخبار ، ولاطريفاً من الآثار ، إلا أوردناه في هذا الكتاب مفصلاً ، أو ذكرناه مجملاً ، أو أشرنا إليه بضرب من الإشارات ، أو لوحنا إليه بفَحْوَى من العبارات ، من أخبار العجم والعرب والكوائن والأحداث في سائر الأمم ..

معذرة المؤلف : وقد قدَّمنا الاعتذارَ فيما سلف من هذا الكتاب من سهوٍ إن عَرَضَ ، أو تصحيف أو تغيير من الكاتب إن وقع ، ولما قد دُفِعْنَا إليه ، من الأسفار المتواترة ، والحركة المتصلة : تارة مُشرِّقين ، وتارة مُغَرِّبين ، وطوراً متيامنين ، وطوراً متشاملين ،

وما يلحقنا من سهو الإنسانية . ويصحبنا من عجز البشرية ، عن بلوغ الغاية ، وتقصي النهاية ولو كان لا يؤلف كتاباً إلا من حوى جميع العلوم إذاً ماألف أحد كتاباً . ولاتأتى له تصنيف ؛ لأن الله عز وجل يقول «(وفوق كل ذي علم عليم)» جعلنا الله ممن يؤثر طاعته . ويوفق لرشده ، ونسأله أن يمحو بخير شراً . وبجد هزلاً ، ثم يعود علينا بعد ذلك بعفوه . ويتغمدنا بفضله . إنه جواد منان . لاإله إلا هو رب العرش العظيم؛ وصلى الله على سيد الأنام محمد وعلى آلـه الطاهرين وسلم تسليما .

* * *



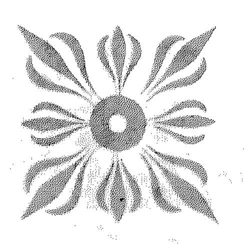
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٢٥٠٠ ط١ ١٩٨٩/٣/





سعر النسخة داخل القطر
٧٠ ل.س

في الاقطار العربية ما يعادل
١٣٠ ل.س

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة
دمشق ١٩٨٩